مكتبة

اختيارات جائزة ابن بطوطة - الرحلة المترجمة 2017 - 2018

النقيب كورني

رائحة البارود

نحو احتلال الجنوب المغربي

1913-1912

ترجمة وتقديم: محمّد ناجي بن عمر

رائحة البارود

حقـوق النســخ والترجمــة © ٢٠١٨ دار الســويدي للنــشر والتوزيــع، **منشــورات المتوسـط** - إيطاليـا.

30 7 2023 مكتبة
t.me/soramnqraa

À la conquête du Maroc Sud avec la colonne Mangin, 1912-1913
by "Charles Joseph Alexandre Cornet"
Arabic copyright © 2017 by **Dar Al-souaidi publishing house & Almutawassit Books**.

المؤلف: شارل جوزف الكسندر كورني / المترجم: محمّد ناجي بن عمر
عنوان الكتاب: رائحة البارود - رحلة النقيب كورني نحو احتلال الجنوب المغربي

الطبعة الأولى: ٢٠١٨.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي، ص.ب: 44480/ الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 0097126447474/ فاكس: 0097126449797 / alrihla@gmail.com

ISBN: 978-88-85771-41-3

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

اختيارات جائزة ابن بطوطة - الرحلة المترجمة 2017 – 2018

مكتبة 1284

النقيب كورني

رائحة البارود

نحو احتلال الجنوب المغربي

1913-1912

ترجمة وتقديم: محمّد ناجي بن عمر

يشرف على هذه السلسلة: نوري الجرّاح

المتوسط

استهلال

مكتبة
t.me/soramnqraa

مكتبة عربية لأدب الرحلة، مَنْ كان يُصدِّق؟ موسيقى لا تهدأ، وصخب لا ينتهي، وسطور الرّحّالة مدوّنات، هي لوحات فنّيّة مدهشة ومشاعر حميمة وخلجات وجدانية فيّاضة، خواطر وانطباعات وصور ترصد المرئيّات، حدسٌ شاعريٌّ، وابتكار فنّيٌّ وجمال في التعبير، خيال يعانق الواقع، ويُوقِظ الذاكرة، فيأتي بالمُمتِع والمُدهِش. مرايا تتعاكس، بلدان قريبة وبعيدة، أماكن جديدة، وزوايا لم تُستَكْشَف، يرتادها عاشق مغامر، كما يسري تحت جناح الليل للقاء الحبيبة. وهو لا يكتفي بعناقها والبوح بمكنونات قلبه وفكره إليها، بل يستغرق في ملامحها، يناجيها ويسعد باستجلاء خفاياها، وكأنه يتأمّل نفسه في مراياها، تلك هي الرحلة، ومن هنا يبدأ الاكتشاف والتغيير، اكتشاف المكان واكتشاف الذات سعياً وراء فَهْم حقيقي لها. هكذا تنبثق الرؤى من معاشرة المُدُن والأنهار والجبال، وترتسم في صياغات جديدة للوجدان والنظر والتعبير في نصوص حَيّة عابرة للزمان، كما هي عابرة للمكان.

***

بدأنا برحلة، وقلنا إننا سنختم معاً مائة رحلة، أمّا وقد تجاوزتِ الكُتُب المائتَيْن، وتكاد تطوي صفحة المائة الثالثة، فقد تحوّل مشروع "ارتياد الآفاق" إلى مكتبة منظورة زاخرة بالمُؤلَّفات.

إنني لأُحيِّي أولئك المغامرين القدامى من أبطال الرحلة فرساناً امتطوا صهوات الجياد، واقتحموا غمار الموج، سالكين دروب الدهشة والخطر؛ وأتطلّع بفرح غامر إلى هذه الكوكبة الجديدة من الرّحّالة المعاصرين، الذين واكبوا مشروع "ارتياد الآفاق"، وتألّقوا في مسالكه. أُطالع عشرات الأسماء والعناوين التي تزدان بها أغلفة الكُتُب، وهي تنقلنا بين المُدُن والبلدان والقارّات، هؤلاء هم غوّاصو لآلئ الرحلة العربية ومبدعو أدبها الروائي الجميل. إنهم ثروة الأمّة من الناظرين في جهات الأرض كلها، وسفراؤها إلى العالم، العائدون بالرُّؤى والمعارف والخبرات، أهل المشاهدة وأهل الحوار مع الآخر، بصفته أنا أخرى، وشريكاً على هذا الكوكب.

في أسواق المُدُن وأكشاك المطارات والموانئ ومحطّات القطار نَمُرُّ بألوان من كُتيّبات السياحة وصور المنتجعات وإعلانات الفنادق وشركات السَّفَر. هذا شيء آخر غير أدب الرحلة؛ واليوم، فإن المكتبات الحديثة المنتشرة بين المدارس والجامعات والمراكز الثقافية لم يعد في مقدورها أن تستغني عن كنوز أدب الرحلة وروائعها، بل أفردت لها رفوفاً خاصّة بها.

الرحلة، كما آلتْ إليه، سَفَرٌ في الأرض، وسَفَرٌ في المُخيّلة، وبالتالي فإن نصوصها مغامرة في اللغة وفي الوجود.

***

تَهْدفُ هذه السِّلسلةُ بَعْثَ واحدٍ من أعرقِ ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية، من خلال تقديم كلاسيكيَّاتِ أدبِ الرِّحلةِ، إلى جانب الكشف عن نصوصٍ مجهولةٍ لكُتّاب ورحّالة عربٍ ومسلمينَ، جابوا العالم، ودوّنوا يوميَّاتهم وانطباعاتهم، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخَبروهُ في أقاليمه، قريبةً وبعيدةً، لاسيما في القَرنَيْنِ الماضِيَيْنِ اللذَيْنِ شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة

الغربية لدى النُّخب العربية المثقّفة، ومحاولة التّعرّف على المجتمعات والنّاس في الغرب، والواقع أنه لا يمكن عَزْل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرةِ الاستشراق والمستشرقين الذين ملؤوا دروبَ الشَّرقِ، ورسموا له صوراً، ستملأ مجلّدات لا تُحصى عدداً، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم، ومن منطلق المستأثر بالأشياء، والمُتهيِّئ لترويج صور عن "شرق ألف ليلة وليلة"، تغذّي أذهان الغربيّيْن ومُخيّلاتهم، وتُمهِّدُ الرأي العامّ، تالياً، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق. ولعلّ حَمْلَةَ نابليون على مصر، بتداعياتها العسكرية والفكرية كلها في ثقافتنا العربية، هي النموذجُ الأتمُّ لذلك. فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي، لتُؤسّس للظاهرة الاستعمارية، بوجهَيْها العسكري والفكري.

***

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكّن من تنميط الشرق والشرقيّيْن، عَبْرَ رسمِ صورٍ دنيا لهم، بواسطة مُخيِّلةٍ جائعةٍ إلى السِّحْريّ والأيروسيِّ والعجائبيِّ، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم، كما سيتَّضِحُ من خلال نصوص هذه السلسلة، ركّز، أساساً، على تتبُّع ملامح النهضة العلميَّة والصناعيَّة، وتطوُّر العمران، ومظاهر العصرنة ممثّلة في التّطوّر الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق. لقد انصرف الرّحّالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات، مدفوعين، غالباً، بشَغَف البحث عن الجديد، وبالرغبة العميقة الجارفة، لا في الاستكشاف فقط، من باب الفضول المعرفي، وإنما، أساساً، من بابِ طَلَبِ العلم، واستلهام التجارب، ومحاولة الأخذ بمعطيات التّطوّر الحديث، واقتفاء أثر الآخر، للخروج من حالةِ الشَّلل الحضاريِّ التي وجد

العرب أنفسهم فريسة لها. هنا، على هذا المنقلب، نجُد أحد المصادر الأساسية المُؤسِّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته، وهي نظرة المُتطلِّع إلى المَدَنيَّة وحداثتها، من موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة، المُتحسِّر على ماضيه التليد، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية.

إن أحد أهداف هذه السِّلسلة من كُتُب الرحلات العربية إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريق الرحلة، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرّحّالة، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار. فأدب الرحلة، على هذا الصعيد، يُشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه مادّة سرديّة مُشوِّقة، تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش، ممّا التقطتْهُ عيون تتجوّل، وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يُلمُّ بالأشياء، ويُحلِّلها، ويراقب الظواهرَ، ويتفكَّرُ بها.

***

أخيراً، لا بدّ من الإشارة إلى أن هذه السِّلسلة التي شارفت اليوم على المائة كتاب أسّستْ، وللمرّة الأولى، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلَّفة من نصوص ثريَّة، تكشف عن همّة العربيِّ في ارتيادِ الآفاقِ، واستعدادِه للمغامرة من بابِ نَيْل المعرفةِ مقرونةً بالمُتعةِ، وهي، إلى هذا وذاك، تغطّي المعمور في أربعِ جهات الأرض، وفي قارّاته الخمس، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالمه، البحث عن مُكوِّنات الذات الحضارية للعرب والمسلمين، من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمُفكّرون والمُتصوّفة والحُجّاج والعلماء، وغيرهم من الرّحّالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية.

***

ختاماً، أُحيّي رَحّالة من طراز آخر، أولئك المثقّفين المبدعين القائمين على مشروع ارتياد الآفاق، والعاملين فيه، والمتحلّقين حوله من الباحثين الذين استكشفوا هذه المنطقة المطموسة والمغفلة من ثقافتنا العربية، بقدرات المغامرين من العلماء، ودأب المستكشفين، فالتمسوا المخطوطات والنصوص النادرة في مكتبات العالم ورجعوا بها، كما يرجع الغوّاصون باللآلئ، وسهروا على فَكّ رموزها، وتحقيقها، وإخراجها إلى النور، ليكون لنا من وراء جهودهم المضيئة مكتبة متعاظمة من أدب الرحلة، ما تزال عناوينها تتوالى، وسلاسلها تتعدّد، ليكون في وسع ثقافتنا العربية أن تُبرهِنَ، من خلال هذا اللون الممتع والخطير من الأدب، أنها ثقافة إنسانية، فتحت نوافذها على ثقافات العالم، وتجارب شعوبه، ودوّن رحّالتُها مشاهداتِهم وثائقَ أدبيةً وتاريخيةً، ترقى إلى ما يربو على ألف من السنين، فأنجزوا مع ريادتهم الآفاق ريادتهم في أدب السَّفَر.

فهنيئاً للقارئ العربي الجادّ بهذه المكتبة الجديدة، وللأجيال التي ستقرؤنا بعد مائة عام.

محمّد أحمد السويدي

مقدّمة

تأتي ترجمة هذا الكتاب، الذي يستطلع ملامحَ الاحتلال الفرنسي للجنوب المغربي، ضمن مشروع متميِّز، راهن فيه الباحث المغربي د. محمّد ناجي بن عمر على تبصير القارئ بجدوى إعادة قراءة الكتابات الكولونيالية: الإثنوغرافية والأنثربولوجية والسوسيولوجية والعسكرية والديبلوماسية ... من منطلق إعادة التحديق في ملامح الذات المنعكسة في مرآة الآخر، وولعاً بما يمكن أن تسديَه هذه الكتابات الصادرة عن عين أجنبية. بمَنْ فيها النسائية . من خدمات للمغرب المعاصر بمُدُنه وقُراه ومداشره وصحاريه وقبائله ونبض حياته الاجتماعية والسياسية والدِّيْنية ... وفي هذا السياق، يمكن أن نستوعب مجهوده الترجمي الجبّار لـ (زمن "لمحلّات" السلطانية)(*) و(مراكش)(**) و(الصلحاء)(***) و(رحلة إلى المغرب)(****) و(الحياة الاجتماعية والسياسية للبربر)(*****) و(في

---

*) زمن لمحلات السلطانية: الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب ما بين ١٨٦٠-١٩١٢م؛ للويس أرنو، أفريقيا الشرق، ٢٠٠١.

**) مراكش، قبائل الشاوية ودكالة والرحامنة سَنَتَي ١٩٠١-١٩٠٢؛ لإدموند دوتي، تقديم الدكتور محمّد المازوني، أنفو. بْرانت، فاس ٢٠١٠ (طُبع هذا الكتاب بدَعْم من المركز الوطني للبحث العلمي والتِّقْنِيّCNRST).

***) الصلحاء، مدوّنات عن الإسلام المغاربي خلال القرن التاسع عشر؛ لإدموند دوتي، أفريقيا الشرق٢٠١٤. (طُبع هذا الكتاب بدَعْم من وزارة الثقافة).

****) رحلة إلى المغرب ١٩١٠-١٩١١ خلال مسالك الشاوية وسوس والحوز وفاس. رينولد لادريت دو لاشارير، منشورات كُلّيّة الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، ٢٠١٦.

*****) الحياة الاجتماعية والسياسية للبربر؛ لروبيرت مونطاني، أفريقيا الشرق ٢٠١٤ (طُبع هذا الكتاب بدَعْم من وزارة الثقافة).

قلب الأطلس)[*].

راهن محمّد ناجي بن عمر على ترجمة أعلام: (منهم لويس أرنو، إدموند دوتي، رينولد لادريت دو لاشارير، روبيرت مونطاني، المركيز دو سي سيغونزاك) كتبوا عن المغرب من منطلقات معيّنة، تلوّنت بلون الاستعمار، لكن هذا لا يمنع من ضرورة مجادلتها ونَخْلها، واستدعائها للمشهد الثقافي الراهن، استجابة لمقتضيات الصيرورة التاريخية، وتطلّعات الأمّة. ولا شكّ أن هذه القناعة، وجدت لها صدى لدى المثقّفين المهتمّين بالمشهد المغربي في بحر القرنَيْن التاسع عشر ومطالع الألفية الثانية. ولربّما كان هذا هو سرّ الإقبال على إعادة طَبْع هذه الكُتُب مترجمةً، أما وقد وقعت تحت سلطان غواية السَّفَر على خطى مَنْ عبروا مسالك الشاوية ودكالة والرحامنة والحوز وسوس وفاس وأعماق الأطلس، واستوقفتْهم الزوايا والحصون والقصور والقصبات والأضرحة، كما استوقفتْهم غرائب الطقوس والممارسات والشعائر، وعجائب الطوائف الدِّيْنية: (عيساوة، درقاوة، احمادشة، هدّاوة، كناوة ...). وما كان لهذا كله أن يتأتّى لولا تداخل المحقِّق المدقِّق والمترجم النبيه تحت جُبّة واحدة، جعلت من العملية الترجمية لديه جهداً تحقيقياً، تُلفِت سلاستُهُ القرّاءَ، وتستدرجهم للتّفيُّئ تحت ظلال المعاني الوارفة، والمقاصد اللطيفة، دون صداع رأس، تتسبّب فيه العديد من الترجمات اليوم.

والكتاب الذي نسعد اليوم بتقديمه ووَضْع هوامشه وثَبْت أعلامه لا يخرج عن السِّرْب، اعتباراً لتوقّفه عند مرحلة حاسمة من تاريخ المغرب الحديث ١٩١٢-١٩١٣، عَمَد فيه صاحبه النقيب كورني، شارل. جوزيف.

---

*) في قلب الأطلس، بعثة إلى المغرب (١٩٠٤-١٩٠٥)؛ للمركيز دو سيغونزاك (ترجمة هذا الكتاب في طَوْر اللمسات الأخيرة).

أليكساندر Cornet، Charles-Joseph-Alexandre ١٨٧٩. ١٩١٤[*] إلى تتبّع التفاصيل الصغرى والدقيقة لغزو الجنوب المغربي[**] تحت قيادة الجنرال الشهير شارل مانجانCharles Mangin [***]، الذي قدّم لهذا العمل. المُهدى له. دون أن يُخفي إعجابه الكبير بصاحبه.

ومعلوم أن الجنرال مانجان أسهم في احتلال المغرب تحت قيادة الماريشال الذائع الصيت: ليوطي Louis Hubert Gonzalve Lyautey. وقد تميّز الرجل بالاستيلاء على مراكش. وهو من الفاعلين الرئيسين في

---

*) في العشرين من آب / أغسطس سنة ١٩١٤، قُتِل بقذيفة مدفع على جبهة بورلايانكور Burlioncourt.

**) صدر هذا الكتاب في عدّة طبعات، منها:
Capitaine Cornet, Charles-Joseph-Alexandre: À la conquête du Maroc Sud avec la colonne Mangin, 1912-1913; Édition : Paris : Plon-Nourrit, 1914.
A la Conquête Du Maroc Sud Avec La Colonne Mangin, 1912-1913: Lettre-Préface Du General Charles Mangin. 2011.
A la conquête du Maroc Sud avec la colonne Mangin, 1912-1913 – 1 juillet 2013.

***) الجنرال شارل مانجان Charles Mangin (١٨٦٦ . ١٩٢٥)، تخرّج ملازماً في مشاة البَحْريّة من المدرسة العسكرية الخاصّة بسان سير Saint-Cyr. وفي سنة ١٨٨٩ عُيّن بالسودان الفرنسية (مالي)، وأتقن لغة البامبارا bambara. ما بين ١٩٠٦ و١٩٠٨ عيِّن بمالي رئيس أركان القيادة العليا بإفريقيا الغربية الفرنسية (AOF).

قال كليمانصو M. Clemenceau عن مانجان: "لقد وهبتْنا المستعمرات مانجان. إنه رجل خطير! قام بالحرب كجندي، لا كموظّف، كما هو صنيع العديد .. لم يُخلَق الخضوع من أجله ... لأنه يتمتّع بالأنفة أينما حلّ وارتحل".

من إعجاب جنود المستعمرات به أن أطلقوا عليه لقب: "شارب الدماء". "le buveur de sang"

أطلق عليه أحد البرلمانيّيْن الفرنسيّيْن لقب: "جزّار السود""boucher des Noirs".

يوجد في روايَتَي: (بحثاً عن الزمن الضائع) لمارسيل بْروست، و(صُلبان الخشب) لرولان دورجُليس، وصف لمانجان.

الحملة على المغرب ما بين سَنَتَي ١٩٠٧ . ١٩١٤. وحَريٌّ بالذِّكْر هنا أنه صاحب كتاب: (القُوّة السوداء)(*)، وهو كتاب يوصي فيه بأهمّيّة الاستخدام العسكري للموارد البشرية لإفريقيا السوداء لاحتلال إفريقيا الشمالية. كما دعا فيه إلى الاستخدام العاجل على نطاق واسع للقُوّات الاستعمارية المسمّاة "قُوّة سوداء"، في حالة نشوب حرب بأوروبا. ولا عجب في أن يتمّ إهداء الكتاب المترجَم اليوم إلى شخصية، كان لها باع طويل في الحروب الكولونيالية، وتجييش الجيوش لها، والكعب المعلّى في التأليف حولها(**).

كان النقيب كورني يراقب رَحَى المعركة، دون أن يُخفي إعجابه ببعض زعماء المقاومة، وبجمال المغرب، فنقل بورتريهات رائعة عن هؤلاء الزعماء، ووقف وصفه عند لوحات شاعرية لمناظر البلاد: (حقول، حدائق وبساتين قصور، قصبات، أودية ووديان ...)، ممّا أكسب نصّه حيوية، أبعدتْه عن التقرير العسكري الجافّ. وتسلّل ماء الأدبية غَدِقاً إلى الكثير من مقاطع النّصّ، فجاءت نديّة، تضجّ ببهاء الأمكنة ورونقها.

---

*) *Charles Mangin: La force noire / Lieutenant-colonel Mangin, Hachette (Paris), 1910*.

**) يكفي أن نشير هنا إلى أهمّها:

Ø Charles Mangin: *La mission des Troupes noires: compte-rendu fait devant le Comité de l'Afrique française*, Paris, Comité de l'Afrique française, 1911.

Ø Charles Mangin: *Comment finit la guerre / Général Mangin*, Paris, Plon-Nourrit, 1920, XIII-330 p.

Ø Charles Mangin: *Autour du continent latin avec le "Jules-Michelet" / Général Mangin*, Paris, J. Dumoulin. 1923.

Ø Charles Mangin: *Regards sur la France d'Afrique. Avec quatre cartes*, Paris, Impr. -libr. -éditeurs Plon-Nourrit et Cie, 1924.

Ø Charles Mangin: Lettres du Soudan, Les Éditions des portiques, Paris, 1930.

Ø Charles Mangin: Souvenirs d'Afrique : Lettres et carnets de route, Denoël et Steele, Paris, 1936.

Ø Charles Mangin: Les Chasseurs dans la bataille de France. 47e division (juillet-novembre 1918), Floch, Mayenne ; Payot, Paris, 1935.

Ø Charles Mangin: Histoire de la nation française (publ. sous la direction de Gabriel Hanotaux), 8, Histoire militaire et navale, 2e partie, De la Constituante au Directoire, Plon, Paris, 1937

Ø Charles Mangin: Lettres de guerre : [à sa femme] 1914-1918, Fayard, 1950.

وبقدر ما كانت السخرية والغرائبية استراتيجيّتان خطابيّتان لتأكيد تفوّق الذات، وتكريس دونية المغربي. وهو ما يفرضه السياق الاستعماري. جاءت بورتريهات زعماء المقاومة وكبار "القياد"، والوصف الباذخ لجمالية الفضاء لتذيب جليد خطاب حاقد، يأتي على الأخضر واليابس في العلاقات الإنسانية.

النّصّ المترجم دقيق وحاسم، يُسعف المؤرّخين اليوم في إعادة قراءة الظاهرة القيادية في مطالع القرن الماضي، وطرائق تدبيرها لأزمة الاحتلال، بمناوراتها ودسائسها وبطولاتها واستراتيجيّاتها ونجاحاتها وانتصاراتها وهزائمها، في معاقل الجنوب المغربي: الرحامنة، تادلة، زَيان، القصيبة، سوس، تيزنيت، تارودانت.

د. عبد النبي ذاكر

مقدّمة المترجم

مكتبة
t.me/soramnqraa

يندرج هذا الكتاب ضمن المشروع العلمي الطموح الذي نحاول تشييد صَرْحه منذ خمس عشرة سنة. ويكتسي موضوعه أهمّيّة بالغة لمحاولته تسليط مزيد من الضوء على حقبة دقيقة، ومفصلية، من تاريخ المغرب الحديث، إنها بداية الاحتلال الفرنسي وما سبقها ولحقها من أحداث وقضايا، كان، ولا زال، لها أكبر الأثر على وجودنا الخاصّ في هذا العالم الذي نقتسمه مع باقي الشعوب.

والغريب أن الباعث على الاهتمام بهذا الموضوع هو صدى عيطة حوزية استوقفتْني ردحاً من الزمن بعنوان: "خالي يا خويلي" أو "الشجعان"، كما يحلو لبعض المهتمّين بالعيطة الملالية تسميتها، بِغَضّ النَّظَر عمّا أُثير من نقاش حول منشئها، وأصلها، لا سيما في إحدى حبّاتها (مقاطعها) التي تقول:

بسم الله باش بديت
على النبي صليت
گالتها ليك النيرية
لابسة قفطان وتحتية
اللي تهرس ها لكرارس
اللي تحفى يبقى تمة
اللي بغا اللامة يتعامى

واللي بغا الجنة يدنى
واللي ترصص ها عبوني
فين يامك يابو عثمان
لمكاحل ترمي الدخان
الطرابش حمرا بلعمان
العسكر حابس البيبان
الدق فينا وفيهم
حتّى واحد فينا ما هاني
فين يامك يا بن گرير
الغبرا والكور يطير
فين يامك يا لاربعا
كان موسم ولاحركة
فين محمّد خو لهبالات؟
فين يامك يا وادي زم؟!
راه الزناقي تجري بالدم!
آش درنا واش عملنا؟
واش من خاطر خسرنا؟
واش گلنا لحد اعطينا؟
تحزموا كونوا رجالة
يا ودي كونوا عوالين
صايفط لعتابي لخوتو
تحزموا كونوا رجالة
ياودي كونوا عوالين
ياك صاگونا صاگونا

ياك صاگونا للزيتون
ياك تمة ناض الريتول
ياك سربيس على سربيس
من القصبة لمولاي ادريس
تكلم الرعد بلا بمجال
خرجوني نشوف بعيني
اللي بغا اللامة يتعامى
مشـــات الســـوگة
لجبـــل الحـــديـــد
راه فرنسا ما قدرت تزيد

إلى آخر ما جاء في القصيدة التي اجتزأتُ منها، فقط، ما له علاقة بموضوعنا، فترسّخت لديّ قناعة أن الثقافة الشعبية تمثّل رافداً رئيساً من روافد الثقافة والتاريخ المغربيَّيْن إلى جانب الثقافة العالمة، لا سيما أن المراجع التاريخية التي تناولت هذه الحقبة تنقصها الكثير من التفاصيل.

آثرتُ أن أشتغل على هذا النّصّ الفرنسي، تاركاً للمختصّين توثيق وتصحيح ما جاء فيه من إشارات ومعلومات. فأنا لستُ سوى مترجم بسيط لمعلومات عن قضية استهوتْني، ودفعتْني للإسهام في تسليط الضوء على هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ المغرب، حريصاً، قدر الإمكان، على تقديمه بأسلوب بعيد عن كل استغلاق أو غموض.

وأودّ في نهاية هذه المقدّمة الموجزة أن أتوجّه بالشُّكْر والعرفان لكل مَنْ أفادني في الموضوع(*)، خاصّة زميلي الدكتور عبد النبي ذاكر الذي

*) الدكتور شقيق ارفاك، الدكتورة ربيعة العربي، الدكتور أحمد الشيخي ، الأستاذ البشير بن الشريف.

شجّعني على نشره بين القرّاء، وهو العالم بالترجمة وأسرارها، وأخي شقيقي الأستاذ عبد العزيز ناجي الذي راجع النّصّ المترجَم حَذِراً من الوقوع في حبائل شباك الغواية التي ينصبها النّصّ الأصلي للمترجم. راجياً من الله أن يجعل ثواب هذا الجهد في ميزان حسنات الشهداء كلهم الذين سالت دماؤهم على هذه الأرض الطّيّبة، لتبقى عزيزة، وللشرفاء كلهم الذين لا يزالون مرابطين في ساحة الدفاع عن الهوية الأصيلة ضدّ تحدّيات أشدّ ضراوة، وتنكيلاً. كما أهدي ثواب هذا العمل لروحَيْ والدَيْ المشمولَيْن برحمة الله، وعفوه، الفقيه الحاجّ عمر بن محمّد الشيظمي، وسلامة بنت حمدي اليگوتية الرحمانية.

مقدّمة الجنرال مانجان

من الجنرال مانجان إلى النقيب كورني من الفيلق الثاني السنغالي بالمغرب عبر سوق أربعاء تيسا "طريق تازة" باريس في ١٠ نيسان/ أبريل ١٩١٤.

عزيزي كورني:

سألتَني أن أقدّم كتابكَ الجميل هذا إلى قرّائكَ، وإن كنتَ في غنى عن كل تقديم، لأنهم يعرفونكَ من خلال كتابك السابق عن التشاد(*) الذي تتحدّث فيه عن أوّل دخول لعين گالاكا، وعن المعارك البطولية في أفريقيا الوسطى التي أبليتُم فيها البلاء الحسن.

إن كتابكَم خير مَنْ يتحدّث عن جنوب المغرب المزهو بسهوله المفروشة بالزرابي الخضراء الوردية، وتنوّع جباله، وصخوره العارية، وأشجار نخيل مراكش المتطلّعة أعناقها إلى قِمَم الأطلس المكسوّة بالثلوج. وكنّا نرى وسط هذا التّنوّع تقدّم التّحرّكات العسكرية بالبرانيس الحمراء للسبايسية(**)،

---

*) يقصد كتابه الذي طُبع عدّة مرّات، بفضل انتشاره الواسع، وتتويج الأكاديمية الفرنسية له بجائزة مونتيون (Montyon):

Capitaine Cornet, ... Au Tchad, trois ans chez les Senoussistes, les Ouaddaïens et les Kirdis : Préface de Paul Adam 2e édition, 1910.

وهو صاحب كتاب هامّ آخر عن احتلال الكوت ديفوار، يحمل عنوان:

Capitaine Cornet, Charles-Joseph-Alexandre: Notes sur la côte d'Ivoire, 1904.

**) السبايسية أو الصبايحية spahis فرقة عسكرية للخيّالة، أسّستها فرنسا في معسكراتها في شمال أفريقيا، لتكون وسيطاً بينها وبين الأهالي. والأصل التركي للّفظ هو سپاهي، ويعني جندي. والصبايحية فرسان من قبائل الإمبراطورية العثمانية ، عزّزوا دور الجنود المماليك. وتُدفع

والمعاطف الزرقاء للقنّاصة، ومرح الجنود الأفارقة السود السنغاليّيْن(*) "ببردعتهم"(**) الغريبة، والشباب "الزواف"(***) و"المارسوان"(****)

رواتبهم على أرض الواقع بنَهْب الأماكن التي تقع فيها الحرب. وقبل دخول فرنسا إلى الجزائر كان داي الجزائر يتوفّر على زواف (وهم مرتزقة من القبايل) وصبايحية أتراك.

وتقول رواية أخرى إنهم كانوا يستعملون فيما بينهم كلمة السّرّ (صباحكم بالخير) إلى أن تمّ التّفطّن إليهم، فسُمّوا: صباحية. وقد تمّ تجنيدهم من الشباب الجزائريّيْن والمغاربة والسنغاليّيْن، من أجل محاربة أعداء فرنسا، ابتداء من سنّ السادسة عشر، على أساس أن يكون في ملك الصبايحي حصان صالح للمعركة، ويُقسم على القرآن لولائه أمام الضابط بحضور شاهدَيْن. وكان لباس الصبايحية عَلَم فرنسا: برنوسان أبيض وأحمر مع سروال أزرق.

*) القنّاصة السينغاليون Les tirailleurs sénégalais. أحد مُكوّنات الجيش الاستعماري الفرنسي، أُسّس عام ١٨٥٧. أهمّ عنصر في "القُوّة السوداء" la " Force noire ". وسرعان ما أُطلق هذا الاسم الذي ارتبط بإحدات المشاة السينغاليّيْن، ليشمل الجنود الأفارقة الملوّنين كلهم، تمييزاً لهم عن وحدات إفريقيا الشمالية، ومنهم القنّاصة الجزائريون. أطلق عليهم ليوبّولد سيدار سنغور اسم "الكلاب السوداء للإمبراطورية" Dogues noirs de l'Empire ولا يتكوّن "القنّاصة السينغاليون" من السينغاليّيْن فقط، بل أيضاً من سود إفريقيا الشرقية والغربية والوسطى. وأُطلق عليهم جميعاً لفظ "سينغالي" لأن أوّل كتيبة من القنّاصة أُنشئت في السينغال. وقد تمّ توظيفهم ما بين سَنَتَي ١٩٠٦ و١٩١٤ في الحملة على المغرب حسب مشروع شارل مانجان.

**) البردعة: تعني في اللغة العامّيّة العسكرية ما يتزوّد به الجندي.

***) الزواف Zouaves أو الزواويون فيُلق كوّنه الجيش الفرنسي بعد احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠. وتعود فكرة إنشاء الفيلق للجنرال الفرنسي فوجين كلوزال. ويُطلق هذا الاسم على القُوّات التي يتمّ تجنيدها محلّيّاً للقتال مع العدوّ ضدّ الأهالي. وأصل التسمية يرجع إلى قبيلة زواوا Zouaoua الأمازيغية الجزائرية التي كانت تمدّ القُوّات العثمانية بالجنود. وقد تميّزت هذه القُوّة العسكرية (الزواف أو الزوافا)، المكوّنة من المشاة والخيّالة بعد ذلك، بارتدائها اللون الأحمر تحت إمرة قائد عسكري بسترة زرقاء. وهم المعروفون باسم: "القنّاصة الجزائريون" Les chasseurs algériens. وعندما احتلّت فرنسا الجزائر، أسّس الماريشال دي بورمون Bourmont في ١٥ آب / أغسطس عام ١٨٣٠ تشكيلات عسكرية، من أفراد هذه القبيلة امتداداً للتشكيلات العثمانية. وذلك بعد شهر واحد فقط من سقوط العاصمة بيد الفرنسيّيْن. حارب الزواويون بجانب القُوّات الفرنسية في شمالي إفريقيا حتّى إبّان الحرب العالمية الثانية. انظرْ كتاب: Paul Laurencin: Nos zouaves; Paris, Rothschild,1888

****) المارسوان Marsouins : التسمية العامّيّة للمشاة البَحْريّة في الجيش الفرنسي، سبق أن أُطلقت على المشاة الاستعماريّيْن. وقد أُطلق عليهم جنود البَحْريّة هذا الاسم تهكّماً، وهو يعني خنازير البحر، لأنهم أصبحوا يتمتّعون بقسط أوفر من الراحة، كَتلك الحيتان التي ألفت أن تتبع السفن.

القدامى، بطبعهم الساخر، و"الألبينيّيْن" المتسلّقين للجبال(*)، والمدفعيّيْن (الرُّماة)، والطوابير المغربية، والعدد الكبير من الخيام والجمال، يقودها جنود، وإن بدوا "متواضعين"، فهم عسكريون بالفطرة، ويحاربون على الطريقة "الفرنسية" بمتعة، ومهارة، تماماً، كما أعدّهم المؤطّرون الفرنسيون. كانت تلك المعارك تقضّ مضاجعنا طيلة تحرّكنا لإنقاذ محاربينا سجناء الهيبة، فرغم أن عدد الرهائن لم يتجاوز سبعة إلا أن العالم المتحضّر كله كان وراء فرنسا في سعيها لفَكّ أسْرهم. ولعلّ كتابكَ هذا خير وثيقة تحكي للعالم عن هذه البطولات ...

ورغم دوركم البارز في تلك الحرب إلا أنكم كُنتُم تتوارون، متواضعين، عند سَرْد أحداثها ووقائعها، حبّذا لو أعدتُم وصفها، وبسط تفاصيلها. كنتُ أوجّه عبركم الأوامر إلى الفيالق المعسكرة، والمكلّفين بالخيّالة، وتسيير هجومات المشاة، وتنظيم التراجعات ضدّ هجمات الشلوح القوية ... فمن أين لكم الوقت لتدوين مثل هذه الملاحظات القيّمة ... وكُنتُم أوّل مَنْ يستيقظ وآخر مَنْ ينام؟!

وتحدّثتُم، أيضاً، عن الأيّام اللاحقة للاحتلال، وعن سهولة رَبْط العلاقات مع الشعوب والعشائر التي تُحبّ القُوّة، والمُستعدّة للانضمام إلى المنتصر الذي يفهمهم، ويُقدّرهم، ويشقّ لهم الطُّرُقات، ويبني المستوصفات، والمدارس ... وتُظهر "القيّاد"(**) الكبار للبربر كالمهراجات الهنود وهم يحتفلون في قصورهم الفارهة، وترسم الجمال البربري الأنيق لعاصمة الجنوب الممزوج بالذهب والبهرجة ...

---

*) الألبّينيون (les Alpins): جنود من المشاة متخصّصون في حروب المناطق الجبلية.

**) الصواب في اللغة العربية : القوّاد جمع قائد، لكنني اخترتُ عن وعي كلمة قايد وقياد في المتن، لما لها من دلالة خاصّة في تاريخ المغرب. (المترجم).

ثمّ تأخذنا في جولة كأسياد بين موگادور، ودمنات على طول الأطلس الكبير الذي لم يكن لنا الحقّ في اختراقه، وبعد ذلك، يأتي الغزو النهائي لتادلة التي أخضعناها بعد المواجهات الصعبة مع سيدي علي بو إبراهيم والقصيبة.

وسيلاحظ قرّاؤك كم هو سهل احتلال بلدة مغربية، لكن الدفاع عنها أمر في غاية الصعوبة. وبينما يحقّق العسكريون تفوّقاً هجومياً، يقول العرب الذين عجزوا أمام قُوّتنا، واستسلموا لسلطاننا: إن القُوّة لله، يعطيها لمَنْ يشاء! لكنْ، كيف سنُقنع المغاربة بقُوّتنا إذا كُنّا نحن شاكّين في أنفسنا؟ وسيلاحظ المؤرّخون مرّة أخرى أن أمّة متحضّرة لا يمكنها أن تحتفظ بمسافة عن الشعوب البربرية، وأن عليها دائماً أن تمدّ لها اليد رغم الحواجز التي يصعب اختراقها من بحر، وصحراء، ووجود قوى أخرى منافسة، ذلك أننا نستحضر دائماً بوجو (*) Bugeaud عن لقبايل: "لا نحتلّ السفح إلا عبر الجبل".

وأخيراً فإن مسيرينا، وهم ينظرون إلى الخريطة، سيقيسون المسافات في الطُّرُق القديمة المعروفة، والممرّات الطبيعية، والروابط مع الجزائر تظهر لهم بسهولة: القصبة والمخزن من تافيلالت إلى تازة، ويستطيع الجنرال ليوطي (**) أن يقول من جديد: "هيّا إليها كلها". وحتّى نُحكم سيطرتنا على

---

*) الماريشال طوماس روبير بوجو Thomas Robert Bugeaud (١٧٨٤ ـ ١٨٤٩)، أصبح حاكماً عامّاً للجزائر ما بين سَنَتَي ١٨٤٠ ـ ١٨٤٧، سَلَكَ خلالها سياسة الأرض المحروقة والعنف والإبادة والخنق بالدخان enfumades وإحلال المقوّمات الفرنسية محلّ مقوّمات المجتمع الجزائري. انظر: Arthur Ponroy: le maréchal Bugeaud, Michel Lévy Frères, Editeurs , 1849

**) لويس هوبير گونزالف ليوطي (١٨٥٤ ـ ١٩٣٤): أوّل مقيم عامّ للمغرب منذ احتلاله سنة ١٩١٢ إلى غاية سنة ١٩٢٥. ومنذ سنة ١٩٢١ أصبح ماريشال فرنسا. تأثّر بهزيمة فرنسا في حربها مع ألمانيا سنة ١٨٧٠. عمل في الهند الصينية، ثمّ في الجزائر. وتحت إمرته تمّ إخضاع السهول الأطلسية وجبال الأطلس المتوسّط، ومواجهة قبائل الريف. وقد اعتمد سياسة استمالة كبار

كامل المغرب بشكل نهائي وجب القيام بحملتَيْن هجوميَّتَيْن متتاليَتَيْن بأقلّ عدد من الرجال والعتاد. فالمغرب منظّم بالفعل، ولديه موارد، يُمكّننا من استغلالها، كما فعلنا من قبل في الجزائر، وتونس، وأفريقيا السوداء.

وفي هذه اللحظة التي ظهر فيها كتابكم أنتم تتحرّكون الآن في اتّجاه تازة، تحت تعليمات الجنرال: غورو(*) Gouroud، إنني معجب بما تقوم به، وأتمنّى لكم مزيداً من النجاح في ساحة المعارك، ومجال الكتابة.

الجنرال مانجان

القوّاد لإخضاع المغرب، وتجنيب فرنسا خسائر ماديّة وبشرية. انظر:

Ø André Maurois: Lyautey; Plon, 1931.

Ø Wladimir d'Ormesson: Auprès de Lyautey; Flammarion, 1963

Ø Général de Boisboissel: Dans l'ombre de Lyautey; Bonne, 1953.

Ø Général Catroux: Lyautey Le Marocain; 1952.

Ø Alin Scham: Lyautey in Marocco; University of California Press, 1971.

Ø André Le Révérend: Un Lyautey inconnu; 1980.

Ø Daniel Rivet: Lyautey et l'institution du protectorat français au Maroc, 1912 - 1925 (3 volumes); 1988, L'Harmattan.

Ø Hervé de Charette: Lyautey; JC Lattès, 1997.

Ø André Le Révérend: Lyautey, Fayard, 1983, réed. 1990.

Ø William A. Hoisington: Lyautey and the French Conquest of Morocco; Palgrave Macmillan, 1995.

*) الجنرال هنري جوزيف أوجين غورو Henri Joseph Eugène Gouraud (١٨٦٧-١٩٤٦): من أنصار النظرية العسكرية الفرنسية: "الهجوم حتّى الإبادة". اشتهر في حروبه بالسودان (مالي الحالية) وموريتانيا والتشاد والمغرب. وهو أحد أبرز الوجوه في تاريخ الاستعمار الفرنسي على نهج الماريشالَيْن غاليني وليوطي. قاد حروباً في المغرب منذ ١٩١١، ثمّ عُهد إليه قيادة منطقة فاس. وفي سنة ١٩١٤ عيِّن قائداً على قُوّات الناحية الغربية للمغرب. وعند اندلاع الحرب العالمية سنة ١٩١٤ كان على رأس اللواء الرابع المغربي الذي تمّ إيفاده لتعزيز القُوّات الفرنسية على الجبهة.

انظر: Pierre Lyautey: Gouraud, Paris, R. Julliard, Editeur, 1949.

مقدّمة المؤلّف

كنتُ محظوظاً كثيراً في أثناء إقامتي الاستعمارية، وأنا أقتفي آثار العقيد مانجان في مختلف تحرّكاته العسكرية التي مكّنت فرنسا من احتلال المغرب، لاسيما جنوبه أقلّ من سنة. وهذا الكتاب عبارة عن يوميّات، ضمّنتُها أبرز الوقائع التي عشتُها خلال هذه المغامرة.

أُرسِل العقيد مانجان بعد أن رسا مع كتيبة من الجنود السود يوم ٢٢ حزيران/ يونيو ١٩١٢ بميناء الدار البيضاء، وبعد إقامة قصيرة ببرشيد، اتّجه صوب بلاد دكالة لتهدئة الأوضاع في الساحل، وللنّظر في قضية ترياي "اللّصّ" الذي استفاد من حماية إحدى الجهات الخارجية لبَثّ الرعب في مدينة مازگان على إثر زيارة لليهودي سيسكو.

واستفحلت قضية تخريب قصبة ترياي وهروبه الدرامي إلى مازگان، والتحاقه بصفوف عسكر الهيبة، وفرار اليهودي سيسكو في سفينة إسبانية، بعد أن عزلتْهُ دولته، واستبداله قنصلاً آخر.

تبدأ هذه الرحلة من مازگان في آب / أغسطس ١٩١٢ مروراً عبر مراكش، وستنتهي في حزيران/ يونيو ١٩١٢ لتحطّ الرحال في مدينة تادلة الرائعة.

Frontispice.

COLONEL MANGIN ET SON ÉTAT-MAJOR

Son fanion rouge. — L'étendard de Moha ou Saïd.

الفصل الأوّل
في الطريق نحو طابور الجنوب

مازگـان، ١١ آب / أغسطس ١٩١٢

تلقّينا بفرح كبير خبر أن الجنرال مانجان هو مَنْ سيقود الفِرَق المرابطة بدكالة ومشرع بن عبو في اتّجاه مراكش. ويبدو أن أحداثاً خطيرة ستقع قريباً بهذه المدينة، حيث يوجد عسكر محمّد الهيبة (*) الذي "بايعتْهُ" قبائل الجنوب، وتترقّبه الساكنة بحماس. كما أن المتوگي خيّب الآمال التي عُقدت عليه لإيقاف زحف "الرجال الزرق"(**) النازحين من الصحراء الموريتانية في اتّجاه الأطلس، بِبِذْلاتهم الزرقاء الغامقة على عكس المغاربة الذين يلبسون برانيس بيضاء.

على العقيد، إذنْ، أن يصل إلى أزمور غداً، ثمّ الانطلاق نحو الدار البيضاء، ليستقلّ سيّارات الرشّاشات، والالتحاق بمشرع بن عبو مساء يوم الخامس عشر من هذا الشهر.

---

*) أحمد الهيبة بن الشيخ ماء العينينْ (١٨٧٧ - ١٩١٩)، فقيه وشاعر ومجاهد في المغرب الأقصى وشنقيط. بايعتْهُ قبائل سوس والصحراء أميراً للجهاد ضدّ الاستعمارَيْن الإسباني والفرنسي. وبعد فرض فرنسا معاهدة فاس في ٣٠ آذار / مارس ١٩١٢ ، دخل الهيبة بقُوّاته مدينة مراكش، وأُعلن سلطاناً على المغرب. لم تعترف به حكومة فرنسا، وإنما عملتْ على إخضاعه، فكانت معركة سيدي بوعثمان الشهيرة. أنظر: William A. Hoisington, Lyautey and the French Conquest of Morocco, Palgrave Macmillan, 1995.

**) الرجال الزرق أوالطوارق: هو الاسم الذي يُطلق على قبائل الملثّمين في الصحراء الكبرى، المتحدّرين من قبائل "صنهاجة" البربرية في المغرب الأقصى، وهم المجموعات القاطنة في منطقة أزواد شمالي مالي، وآير شمال النيجر، والهجار جنوب شرقي الجزائر، وآزجر جنوب غربي ليبيا. انظرْ: عمر الأنصاري: الرجال الزرق: الطوارق، الأسطورة والواقع، دار الساقي للطباعة والنشر، ٢٠٠٥.

١٢ آب / أغسطس

وَصَلْنَا البارحة مساء إلى أزمور، عرّ علينا - بعد الاستراحة - أن نغادر هذا المنزل العربي الجميل بفسيفسائه الناصعة، وزليجه الأزرق الذي يغطّي الجدران، وشرفاته من خشب "الأرابيسك"، وساحة فنائه المفتوحة على السماء تستقبل الهواء وأشعّة الشمس. صعدتُ إلى السطح، لأتمتّع بجمال أزمور، وشرفات منازله الموحّدة تزيّن المداخن الغريبة ذات الشكل المستطيل، والأسوار الحمراء العتيقة، والتلال الجرداء المطلّة على البحر تتابع التطامَ أمواج أمّ الربيع الغاضبة بأسوار المدينة الصامدة، ويمتدّ الوادي الأخضر الذي يسقي حقول الحنّاء عبر نواعير المياه، وقد راعني جملٌ بمشيته المتثاقلة، وعينَيْه الزائغَتَيْن.

١٣ آب / أغسطس

أرسلْنا أمتعتنا المُكوّنة من حقيبَتَيْن مع الخيول في طريق أمّ الربيع مباشرة إلى مشرع بن عبو في انتظار أن تصل بعد أربعة أيّام. امتطيتُ والعقيد مانجان فَرَسَيْن، اكتراهما رفاقنا للخروج لاستقبال حاملة الرشّاشات المبعوثة من الدار البيضاء. وعلى الساعة الثانية صباحاً غادرتْ حقائبنا أزمور على ظهر بغلة، يقودها أحد الگوميين(*) الكسالى الذي كان يستسلم للنوم بين الفينة والأخرى، فقد لحقناه على بُعْد خمس محطّات فقط من أزمور، وكنّا نعتقد أنه قَطَعَ أضعاف تلك المسافة. ولمّا وَصَلْنَا منتصف الطريق المؤدّية للدار البيضاء، وجدنا حاملة الرشّاشات في انتظارنا بمعسكر

---

*) گوم: بالفرنسية "goumiers": مصطلح أطلقه الجيش الفرنسي الاستعماري على وحدات الدّعْم والإسناد المُكوّنة من الأهالي في مستعمراته شمال إفريقيا. والكلمة من الدارجة المغربية والجزائرية، وهي نطق غير سليم للكلمة العربية "قومي"، أي الوطنيّ المُحبّ لقوميّته ووطنه.

دار بن عبيد. وكان علينا أن نصل قبل وصول الأمتعة، لنبعث بسيّارة تأتينا بالحقائب. واستغللْنا هذا التّوقّف الإجباري لتناوُل الغداء بدار بن عبيد وسط سهل مغبر، بالقرب من الغابة الجميلة، حيث مسالك الجمّالة تخترق أشجار المستك "البزار" التي لم تغنِ عنّا من لهيب الشمس شيئاً، لأنها كانت مشذّبة بعناية وإتقان، إلا أن الحرارة المرتفعة لم تنلْ من شهيّتنا القوية، فأتيْنا على البيض المسلوق، والتين الشوكي، والشاي المنعنع المنعش .. عادت السّيّارة، لتحملَنا إلى الدار البيضاء زوالاً في انتظار أن ننطلق غداً إلى مشرع بن عبو.

١٤ آب / أغسطس

رافقَنا أحد "قياد"(*) القصر الموثوقين بهم، وهو زنجي بلحية بيضاء قصيرة، سيذهب إلى مراكش لمبايعة السلطان الجديد مولاي يُوسُف في أقرب الآجال قبل وصول "المنازع في الحكم" محمّد الهيبة الذي كان على الأبواب.

في الزوال، وَصَلْنَا إلى مركز مشرع بن عبو القابع بين ضفَّتَي أمّ الربيع، حيث المياه تجري صافية فوق الحجارة الملساء، ولا أثر لشجرة على ضفَّتَي النهر.

الجفاف هو المهيمن، والحرارة لا تُطاق نهاراً، وتخفّ حدّتها بعض الشيء ليلاً، وضُربت خيام المعسكر البيضاء فوق أرضية صخرية حمراء، ضايقت السبايسية والرماة الجزائريّيْن، والسنغاليّيْن، والقنّاصة الأفارقة، والگوميّيْن، ورماة الطابور، والمشاة، الذين زادت أعدادهم عن ألف وخمسمائة فرد،

*) تنحصر مهمّته في تقديم خدمات داخلية بالقصر، ولا نفوذ خارجي له.

يحدوهم الشوق للوصول إلى مراكش. وقال الرّقّاص(*) إنه يصعب التّحرّك وسط حراسة الگوميّيْن، لأن ثيابهم المُلوّنة تُسهّل على قطّاع الطُّرُق رَصْدَنا ورؤيتنا، لذا نَصَحَنَا بالتّحرّك تحت ستار الظلام ليلاً بحراسة اثنَيْن من الأهالي المُسلّحين ببُنْدُقيّات عتيقة، وملابس محلّيّة، ووعد بأن نقطع المائة والعشرين كيلومتراً الفاصلة بين مراكش والمشرع في الليلة نفسها.

١٥ آب / أغسطس

تلقّيْنا الأمر في منتصف الليل بالالتحاق بالإدارة في مراكش على بعد مسيرة يوم من المشرع في اتّجاه سوق الأربعا. الأخبار في المدينة سيّئة، فقد بقي قنصل فرنسا السّيّد Maigret وحيداً هناك مع بعض الفرنسيّيْن، بمَنْ فيهم الرائد: Hanus-Verlet(**) الذي وصل مُؤخّراً في بعثة سياسية. فنحن نخاف أن يحتلّ الهيبة عاصمة الحوز. وبعد الانطلاقة في الصباح الباكر، وَصَلْنَا سوق الأربعا زوالاً. وهي عبارة عن وادي "كبير" عار، و"جاف" تميّزه ثلاث نخلات "بئيسات" مفتوح في اتّجاه الجنوب، ومحاط بتلال صخرية، تغطّيها بعض الدواوير من النوايل "السوداء"، تسترها جدران من الحجارة الجافّة، تعلوها أشجار السدر اليابسة، وتتوسّطها ثلاثة أضرحة، بقبب بيضاء محاطة بأشجار النخيل والزيتون، تسقيها آبار كثيرة

---

*) الرّقّاص: هي التسمية القديمة لساعي البريد. كان يتنقّل من «نزالة» إلى أخرى، ليتولّى رقّاص آخر نَقْل الرسائل إلى نقطة ثالثة، وهكذا .

**) الرائد إدمون فيرلي. هانوس Edmond Verlet-Hanus(١٨٧٤ . ١٩١٤)، اشتُهر بالمغرب، وعُرف بنشاطه الملحوظ في تنظيم "لمحلّة" الموجّهة إلى الحوز.

Henri Simon dans son ouvrage, " Un officier d'Afrique Le commandant Verlet-Hanus, Mission saharienne Pacification marocaine (1898-1912). Lettres et souvenirs inédits "; Paris, Peyronnet, éditeurs-imprimeurs, 1930.

الماء، وغير عميقة، وعند وصولنا كان الأهالي يلتفُّون حولها "يسقون" قطعانهم من الأغنام والأبقار ..

مرّت المرحلة بسلام تحت أعين السّكّان الذين اكتفوا بمراقبتنا من عَلٍ دون معارضة، بل اقترب بعضهم من المعسكر، ليبيعونا الشعير، والأطعمة، لاسيما الخشب الذي كان نادراً في هذه المنطقة، فجنودنا لم يكونوا يُشعلون سوى الأعشاب الجافّة.

وجاء الشيخ راجع الذي يحكم الدواوير القريبة من سوق الأربعاء، ليُطمئِننا عن التدابير الجيّدة التي اتّخذها أتباعه. كان كل شيء يبدو هادئاً إلى حدود المساء، لمّا سمعنا طلقات الرصاص شمالاً، كما علمْنا بمهاجمة المغاربة لقافلتِنا العسكرية التي انطلقت في إثرنا البارحة، فذهب بعض السنغاليّيْن لتعزيز صفوفها، ثمّ تبعها طابور من الرماة والمشاة والخيّالة. دخلوا كلهم ليلاً، وأُصيب سنغاليان، أحدهما إصابته بليغة في الساق، والآخر إصابته خفيفة في الفخذ. ولمّا دنا المغاربة كثيراً من القافلة، فاجأهم الحرّاس بالنيران، قتل منهم ثلاثة، وغنمْنا فرسيْن وبُندُقيّة سريعة الطلقات مع كيس جِلْدِيّ مَليء بالرصاص.

١٦ آب / أغسطس

كانت ليلة هادئة، لم نسمع سوى طلقَتَيْن للخفر على "طيفَيْن" كشفهما ضوء القمر. وتوجّهت السّريّة السنغالية للقبطان Aguillou صباح هذا اليوم إلى مشرع بن عبو لحراسة القافلة العسكرية المتوقّع وصولها يوم غد، فهُوجمت فجأة على بُعْد كيلومترات من هنا، فأسرع العقيد Savy لدَعْمها بفيلق، يضمّ بعض الرماة والسبايسية. استغرقت

المعركة ثماني ساعات، من الساعة السابعة صباحاً إلى الساعة الثالثة بعد الزوال، استطاع السنغاليون أن يسيطروا على المغاربة، وأولاد سلامة في مناسبات متعدّدة، وفَقَدْنا ثلاثة رجال، وجُرح ثلاثون آخرون، كما تلقّى الملازم Bertrand إصابة في رُكبته، لكن العدوّ اندحر فاتحاً المجال لـ "قافلة" Aguillou كي تصل إلى مشرع بن عبو.

ولم يكن يمرّ يوم في المعسكر دون حادث. ولمّا أخبرنا الحرّاس الذين بعثناهم فجراً لاستطلاع الأخبار بتعرّض المعسكر لهجوم، اتّجهنا نحو العدوّ لاتّخاذ التدابير اللازمة ...

حوالي الساعة السابعة وصل السّيّد: MM. Genety وهو مهندس فرنسيّ صحبة Nier التاجر الألماني و"مُوظّف" بالقنصلية الفرنسية فراراً من التهديد الذي يُشكّله مناصرو الهيبة. وتسرّع حُرّاس المراكز الأمامية بإطلاق النار على الوافدين دون التّأكّد من هويّتهما، وعبّر السّيّد نيير عن إعجابه بوفاء وشجاعة الجنود السينغاليّيْن رغم أنه كان سيلقى حتفه على يد أحدهم.

وما هي إلا دقائق معدودة بعد وصولهما حتّى اندلعت معركة ضارية، لأن مجموعة من الخيّالة والمشاة استغلّت انشغالنا بتحصين مراكزنا الخارجية للنزوح من فوق المرتفعات، والهجوم على خيامنا، كان صوت الرصاص مُدوّياً في المعسكر، فقُتلت بغلة السّيّد جينيتي، وأُصيب رقيب بالخندق في ساقه. كان المغاربة يهاجمون رجالاً وركباناً دفعة واحدة على الطريقة التقليدية، ومن الجهات جميعها بين الواحد منهم والآخر عدّة أمتار، تمنعنا من إصابة أكثر من هدف. لكن المدفع حالفه الحظّ في الزوال لمّا أطلق طلقَتَيْن من عيار ٧٥ على تجمّع فوق إحدى المرتفعات، فسقط

منهم عدد كبير، وتفرّق الباقي قبل أن تُدوّي الطلقة الثانية في منحدر، كان يختبئ فيه بعضهم، فقُتل منهم سبعة، وفَرَس.

أخذنا قسطاً من الراحة، وأطلقْنا الأعنّة للجِمال، كي ترعى في الحقول، وصُرف الرجال لجَلْب الماء، والقيام ببعض الأشغال الشّاقّة. وسرعان ما آتت جهودنا أُكُلَهَا، إذ أسرعت جماعات متتالية للاستسلام شاهرة الرايات البيضاء على رؤوس العصي أو البنادق.

١٧ آب / أغسطس

ذهب المقدّم Savy سافي للتّوّ في مقدّمة مجموعة "مشرع" بن عبو رُفقة قسم من وحداته. وبقينا نحرس المعسكر مع الباقي. وجاء مبعوث ليُنذرنا أن حركات من دكالة والرحامنة تتّجه نحونا، لكنها لم تصلْ إلينا، وإنما بقيت مجتمعة على بُعْد ساعة من هنا عند البيادنة التي لم نبادر إلى الهجوم عليها قبل أن يصل طابور المراقب سافي عند الزوال المُكوّن من مئات المشاة والفرسان المغاربة، ليُشكّلوا حاجزاً وقائيا ضدّ الهجمات الآتية من المرتفعات.

لمّا حان وقت التّحرّك ضدّ حركة البيادنة، تلقّى العقيد سافي الأمر على رأس المرتفع، فذهب قرب الرماة، وخلف خطوط المشاة الذين ينتشرون فوق السهل المحدودب مقابل "القِمَم" المَكسوّة بالجلابيب البيضاء.

وحين رأى المغاربه فِرَقَنا تغادر مراكزها، وتتّجه نحو الغرب، لا للرجوع إلى المعسكر دُهشوا، ثمّ التحق بنا الگوميون المغاربة المبعوثون من طَرَف العقيد مانجان لمؤازرتنا ضدّ البيادنة، تظاهروا بأنهم أُمروا بالتراجع، فانطلت الحيلة على الخصوم، وفُوجئوا بهجوم مباغت لطابور كبير، كان

يكمن بشعبة البيادنة. فأسرعوا بدورهم إلى ممرّ عريض، تسكنه عدّة دواوير، وتمركزوا في منحدر أحمر وسط الشعبة، وبدؤوا يرموننا بوابل من الطلقات، إلا أن الگوميّيْن المغاربة، والرماة السنغاليّيْن، وجنود المستعمرات والرماة الجزائريّيْن صمدوا ببسالة. وصدّت الطلقات المدفعية الخيّالة والمشاة، وفَلّتْ صفوفهم، فارتبكوا، وتراجعوا خلف "القِمَم" البعيدة بعد أن فَقَدْنا خمسة مصابين.

كان اليوم شاقّاً، إذ انطلق الجنود عند تباشير الفجر، ولم يدخلوا المعسكر إلا ليلاً بعد أن كانوا يظنّون أنهم سيصلون زوالاً، فعانوا الجوع وشدّة العطش، وما إن رأوا أواني الماء حتّى أسرعوا إليها، وأتوا على ما فيها، وإن لم تكن صالحة للشُّرب، في حين أَنِفَ زملاؤهم الذين لم يغادروا المعسكر من استعمالها.

١٨ آب / أغسطس

فاجأ طابور في الصباح الباكر الدواوير التي آوت العصابات القادمة من الجنوب، وحالفتْها لمهاجمة معسكرنا. لم نلقَ مقاومة ذات بال، لأن معنويات العدوّ كانت قد كُسرَت جرّاء الخسائر التي تكبّدها من ضربات مدفعيّتنا. ولم يتحمّل المغاربة أن يروا فريقاً من قُوّاتنا النظامية يسطون على أبقارهم، ويصادرون أملاكهم، ممّا أثار حفيظة السّيّد نيير القنصل الألماني بمراكش، واحتجّ قائلاً: "وما يدريكم أن يكون أصحاب هذه القطعان من المَحميّيْن الألمان؟"، فأجاب العقيد مانجان جواباً ذكياً ومُقنِعاً: "نستغرب أن يكون أعداؤنا من المَحميّيْن الألمان".

وبدأ مسلسل عمليات الاستسلام منذ اليوم، إذ توالى قدوم المغاربة رافعين رايات بيضاء، وسائقين ثوراً، يلتمسون بتقديمه السِّلْمَ، ويرجون العفو.

كُنّا قلقين كثيراً عن مصير السّيّد ميگري قنصل فرنسا، ومعاونيه بمراكش، لأن الهيبة سلطان الجنوب تمكّن، أمس، من هَزْم فِرَق الگلاوي التي كُنّا نراهن عليها لإنقاذ المدينة، كما أن الطريق المؤدّية لمراكش تموج بقطّاع الطُّرُق، وخاطفي الرهائن من القبائل، وانقطعتْ عنّا الأخبار كلها، لاسيما بعد أن تمّ اعتراضُ طريق البريد الذي أرسلناه هذا المساء، ونَهْبُهُ على بعد مرحلَتَيْن من هنا عند أولاد گرّارة، وعاد أحد الرجال عارياً، ومُلطّخاً بالدم. أمّا ما تبقّى من القبائل التي كانت تقطع الطريق، وتعترض سبيل قوافلنا في مشرع بن عبو، فقد أعلنت استسلامها.

١٩ آب / أغسطس

قرّر الرائد "الكومندان" Ruef الانتقام من الدواوير التي سرقت بريدنا، فانطلق ليلة البارحة مع نصف الفِرَق العسكرية، وشنّ عليها هجوماً مباغتاً، سمعنا دَويّ مدافعه عند مطلع الفجر، ثمّ عاد أدراجه عند الزوال بجريحَيْن فقط، لكن إصابة الملازم Frossard كانت خطيرة، لأنه تلقّى إصابة في الكبد. وفي يوم الثامن عشر، خرج الرائد من مراكش مصحوباً بأحد الرجال.

احتلّ الهيبة المدينة، وبينما فتح له أبوابها كل من المتوگي(*) والباشا

---

*) عبد المالك المتوگي: من قبيلة متوگة المصمودية، أحد أشهر قوّاد المغرب، خاصّة في الجنوب. امتدّت فترة قيادته من سنة ١٨٨٦ إلى غاية ١٩٢٧. شمل حكمه منطقة الهضاب والسهول: (أولاد أبي السباع، لكريمات، مجاط، فروكة، أولاد مطاع، أولاد يعلا، العروسيّيْن)، ومنطقة الجبل: (متوكة، نفيفة، دمسيرة، إداو زيكي، مزكيطة، مزوضة). انظرْ:

إدريس ولد منو [*]، بقي الگلاوي[**] وفيا يأوي بعض الفرنسيّيْن الذين بقوا محتجزين عنده. فكنا مُلزَمين بالتّحرّك سريعاً نحو مراكش، للإفراج عنهم قبل أن يصيبهم مكروه.

٢١ آب / أغسطس

غداً هو موعد انطلاقنا إلى مشرع بن عبو لملاقاة العقيد مانجان مع الجنرال ليوطي. وَصَلْنَا قبل الجنرال ببضع ساعات، وتلقّى العقيد الأوامر بأن يكون أكثر حزماً ويقظة قرب سوق الأربعا، وبعدم التّحرّك نحو مراكش قبل أن تدعمَهُ الفِرَق التي ستأتي من سيدي بنور بدكالة بقيادة "المقدّم" Josef.

عانيْنا خلال النهار من طقس سيِّئ ومُتقلّب، فقد كانت الرياح قوية،

Marthe et Edmond Gouvion, Hubert Lyautey: Kitab Aâyane al Marhib' l'Akca; Paris-Casablanca, Coédition Geuthner-Frontispice, 2001.

*) - إدريس ولد منو: من أسرة وزّانية، استقرّت بسوس. بعد وفاة والده الذي كان في خدمة ثلاثة ملوك، كبر رُفقة أنجال السلطان الحسن الأوّل: المولى عبد العزيز. حارب قبائل بني مطير والثائر الجيلالي الزرهوني، كما ساهم في مواجهة الثّوّار سنة ١٩١١. وبعد خضوع فاس للفرنسيّيْن، عُيِّن ولد منو قائداً على مناطق تادلة ومراكش وسوس.

انحاز لحركة الهيبة، إلا أن إحساسه باندحارها دفعه إلى تحصين ممتلكاته، بواسطة الأجانب واليهود، وخاصّة شركائه كالألماني Marx والقنصل الألماني Neyer ونائب القنصل الهولندي Nessim Corriat وامحمّد الغالي السّبْتي. انظرْ:

Hippolyte Bardon A Travers le Maroc: de Tanger à Fès, Meknès et Rabat, de Casablanca à Merrakech ; Marseille : Secrétariat de la Société de géographie , 1912.

**) - الحَاجّ التهامي المزواري الكلاوي (١٨٧٨ـ١٩٥٦): باشا مراكش وزعيم قبيلة كلاوة بجبال الأطلس الكبير. انحياز إلى صفّ القوى الاستعمارية المحافظة، وتسهيله مهمّة عَزْل السلطان محمّد الخامس.

تثير زوابع غبارية طيلة النهار، أمّا الليل، فكان أدهى وأمَرّ، لأننا عانيْنا شدّة الحَرّ الخانق ولسعات البراغيث التي طوّقت المخيّم، ومَنَعَتْنا من النوم.

٢٢ آب / أغسطس

كُنتُ مشتاقاً كثيراً للذهاب لسوق الأربعا، ثمّ العودة لتناوُل وجبة الغداء، وجاءنا رقّاصان، على الساعة الثالثة بعد الزوال، بخبرَيْن سيِّئَيْن، أكّدهما لنا صديقنا راجع شيخ سوق الأربعا الذي كان مصدراً موثوقاً به، وهما أن خليفة الهيبة موجود غرب المركز بوهّام(*) لاتفصلنا عنه سوى ثلاث محطّات، كما أن الهيبة اعتقل الأوربيّيْن المقيمين بمراكش. لم يبقَ هناك مجال لإضاعة الوقت، إذ علينا أخذ التدابير اللازمة لمَنْع الحركة من الهجوم على الطابور الضعيف "للمقدّم" جوزيف، واستغلال فرصة مرور الهيبة بالقرب منّا لمهاجمته، ومنْعه من مواصلة زحفه نحو الشاوية، وإرغامه على التراجع نحو الجنوب، متناسين تبعات العملية الليلية، فأرسلت برقيات كثيرة من طُرُق مختلفة إلى "المقدّم" جوزيف، كي يوافينا عند وادي فران.

على الساعة الخامسة مساء، بعد أن تركْنا أمتعتنا، تحرسها فرقة عسكرية، وبينما كُنّا نستعدّ للانطلاق صوب وهّام، وَقَعَ حَدَثٌ طريفٌ، ذلك أن الشيخ راجع لمّا رآنا "نرفع" المُخيّم ظنّ أننا سنتراجع أمام العدوّ، فصرخ بأعلى صوته "هل ستتركونني فريسة سهلة للخليفة يهجم على دواويري،

---

*) - بئر وهّام: من بين المناطق الثلاث التي خاض فيها أحمد الهيبة معاركه ضدّ الجيش الفرنسي يوم ٢٢ آب / أغسطس ١٩١٢. انظر:

Jérôme et Jean Tharaud: Marrakech ou les Seigneurs de l'Atlas, Plon, Paris, 1920 .

Abdelssadeq El Glaoui: Le Ralliement: Le Glaoui, mon père (récit et témoignage), Rabat, Marsam, 2004.

ويقطع رأسي، بعد أن كُنتُ مضيفكم ودليلكم؟!" لكننا طَمْأَنّاهُ، وهدّأنا من روعه، وطلبْنا منه أن يتقدّم الطابور، ليستمرّ في دور الدليل. وبحلول الظلام، بدأت أوّل طلقات الرصاص تتبادل بالمقربة من سوق الأربعا.

حاول العدوّ، عَبَثاً، أن يحدّ من تقدّمنا الحيوي والسريع في اتّجاه وهامّ، لكنه فشل وعجز أمام الحمم النارية التي كانت تقذفه بها مدافعُنا، فأُصيب بالذعر والاضطراب، وفي حدود في الساعة العاشرة ليلاً، انقضضْنا على معسكر الخليفة، فامتلأتْ جوانب الوادي كلها بصراخ السنغاليّيْن، وغنمْنا في هذه المواجهة أكياساً من الرصاص وخياماً ومؤناً، تركتْها الحركة وراءها.

وجدْنا صعوبة في إقامة المعسكر وسط الظلام في ميدان المواجهة، لكننا كُنّا مسرورين، لأننا لم نفقدْ أيّ عنصر من الطابور، ولم يكن بيننا إلا قليل من المصابين. وعادت لراجع ابتسامته وطمأنينته.

٢٣ آب / أغسطس

صرفْنا النظر عن ملاحقة عدوّنا المتراجع نحو الجنوب، وقرّرْنا الانطلاق فجر الغد في اتّجاه الغرب عند الحاجّ المكيّ لتفقّد "المقدّم" جوزيف.

أشرقت شمس هذا الصباح على المعسكر المهجور بعد هجوم الحركة، لأكتشف كم كان يوم أمس عسيراً وطويلاً، وأن قُوّة العدوّ هي التي ألهمتْنا التّحدّي والإصرار على تحقيق النصر، كما أن توقيت الهجوم وعامل المفاجأة كانا حاسمَيْن، وبمُجرّد أن تحرّكْنا فُوجئْنا بهجوم عنيف يشنه العدوّ من فوق الجبال الصعبة وبين الصخور، والشِّعَاب الضّيّقة. بدت المنطقة جرداء والمنحدرات مزدحمة بالدواوير المشكلة من النوايل داخل أسوار مَبْنِيّة بالحجارة الجافّة ... لم ننجُ من هذه الورطة إلا بفَضْل

مجموعة من السنغاليّيْن الذين تمكّنوا من الوصول، والسيطرة على موقع استراتيجي، كان يحتمي به العدوّ، ويُوجّه منه إلينا ضرباته المتتالية.

ولم نخرجْ من الممرّ الضّيّق لجبل لخضر، وننزل في منبسط، تسكنه قُرى غنية وعَرَصَات رائعة إلا في حدود الساعة الحادية عشرة، بعد أن كلّفَنا المرور ثلاثة قتلى وسبعة عشر جريحاً. كانت المعركة صعبة، والمغاربة الأشدّاء ينتشرون مثل الدبابير التي تحاصر عدوّها متّخذين من قِمَم الجبال حصوناً لقصف طابورنا مِنْ علٍ، فكنّا عاجزين تماماً عن رَدّ هجماتهم، فلم نجد بُدّاً من السَّطْو على ممتلكاتهم، ومصادرة قطعانهم، وحَرْق دواويرهم.

وبذل رجالنا جهداً رائعاً لتثبيت السّيّارات والمدافع سواء في المرتفعات أو المنحدرات، وبناء المعسكر على ضفّتي وادي الفران في اتّجاه زاوية الحاجّ المكّي ... التحق بنا طابور "المقدّم" جوزيف مساء بعد أن اتّفقْنا، بتنسيق مع الشريف العمراني المُكلّف من السلطان بمهمّة "تهدئة" دكالة، على زمان اللقاء ومكانه.

٢٤ آب / أغسطس

رُفع المُخيّم في الساعة الخامسة، وغادرْنا المنطقة المحدودبة والمَكسوّة بالأشواك والحصى بعد أن نمْنا البارحة ملفوفين في معاطفنا. زاد عدد أفراد الطابور بعد مجيء فِرَق "المقدّم" جوزيف لمشاركتنا في التّحرّك نحو مراكش. كما التحق الرجل المهمّ خليفة السلطان بالدار البيضاء: المبعوث العمراني الذي كانت مهمّته إقناع الرحامنة ودكالة بالاستسلام. كان فعلاً رجلاً محترماً ورائعاً بنظّارتَيْه الذهبيَّتَيْن ولحيته البيضاء، مرفوقاً بشخصيات، تركب بغالاً في مثل سَمْتِهِ واحترامِهِ. وخلفه خيّال / فارس

ضخم بملامح حربية، وشَعْر أشعث، يدسّ بُندُقيّته أسفل السرج. وهنا أكثر من أيّ مكان آخر لا تجدي الدبلوماسية شيئاً، ما لم تدعمها القُوّة. ثمّ قدم حاملو الخيام والخَدَم والنساء ملفوفات في حيوك بيضاء طويلة ومُزيّنة بجواهر حمراء.

جاءَنا البارحة وفد من السّكّان، يستطلع نوايانا بعد أن أُخبروا أنّا سنحرق دواويرهم، ونسطو على قطعانهم، لأن أحدهم تجرّأ وأطلق رصاصة على مُخيّمنا ... وقال لنا ممثّلو القبائل الذين كانوا مستعدّين للخضوع والاستسلام إنهم لا يتحمّلون تصرّفات الحمقى والمتهوّرين. يبدو أن تهديداتنا قد أثمرتْ، إذ لم يتعرّض زحفُنا في اتّجاه سوق الأربعا لأيّ عرقلة.

في أثناء غيابنا، هُوجِمَ المعسكر، ورغم محاولة الحامية العسكرية الصغيرة التّصدّي للمهاجمين، فقد ضاعت بعض الأكياس من السّكّر والقهوة وسط الزحام، ولمّا عدْنا، أخذ فرسان / خيّالة الهيبة الْمعسكرين ببن گرير على بُعْد ستّة مراحل من هنا يدورون كالدوّامة حول خيامنا ويُطلقون النيران، إلا أن طلقات المدفع كانت كافية لإجلاء هؤلاء المتهوّرين ....

سألنا العمراني عن إمكانية التفاوض مع الهيبة لإطلاق سراح مواطنينا، فأجاب بطريقة دبلوماسية، بأنْ لا سبيل لتحقيق ذلك سوى بشَنّ هجوم شامل وقوي.

في الوقت الذي كان فيه الهيبة بمراكش، كان خليفته معسكراً بفرقه ببن گرير محاطاً بآلاف الفرسان والمشاة من الرحامنة، والحوز، وسوس، ودرعة، وكانوا مندهشين من الفِرَق العسكرية الوافدة من الصحراء الموريتانية برجالها الزُّرق الملثّمين بشُعُورهم الطويلة، يحاربون فوق الجمال. بينما اعتادوا هم ارتداء الملابس البيضاء، وحَلْق رؤوسهم، والقتال فوق صهوات الخيول.

٢٥ آب / أغسطس

لم يعكّر صفوَ يومنا إلا نبأ تقدّم العدوّ الذي ظهرت طلائعه الأولى من الخيّالة فوق القِمَم، لكنها فشلتْ في اعتراض البريد الذي تمكّن أحد رجال الگلاوي من حَمْله إلينا بعد أن لفّه في "أنبوب رصاصة" عرفْنا من خلاله أن هناك ترتيبات لإجراء مفاوضات مع الهيبة بشأن رعايانا المعتقلين، وذلك بتنسيق مع العقيد مانجان الذي استدعاه الجنرال ليوطي للقاء به بمشرع بن عبو هذا المساء.

٢٦ آب / أغسطس

مع تباشير الصباح، لاحظْنا أن جنود العدوّ لا يزالون مرابطين فوق القِمَم الصخرية أمام الخنادق، يرموننا بوابل من الرصاص، أثار كثيراً من الغبار دون أن يتمكّنوا من إحداث إصابات ... وبعثْنا فرقة عسكرية إلى مشرع بن عبو للاستنجاد بالعقيد مانجان، لكنْ، لم يكن معه سوى عدد قليل من الخيّالة.

ازدادت ضراوة الهجوم، كما لم نتوقّع، وأخذت مجموعات كبيرة من الخيّالة تدور بالمعسكر، ليتمركزوا أخيراً غرب المعسكر، بينما المشاة يهاجمون من الجنوب الصفوف الأمامية لفيلق Cornu، ثمّ نشبت مواجهة "سريعة" بين الصخور، أسفرتْ عن مقتل بعض المغاربة، واستمرّ القتال إلى الزوال.

كان المئات من المغاربة يتجمّعون في الصفوف الأمامية فوق الصخور أمام دوار في متناول بنادق قُوّات المشاة الفرنسية، والرماة الجزائريّيْن المراقبين. أرانا أحد المشاة الفرنسيّيْن، مفتخراً خوذته، وقد اخترقتْها

رصاصة، كما أُصيب النقيب Dessaint في ذراعه، مع خمسة جنود. تبعْنا ممرّاً للبغال بين الصخور، لنَقْل المدفعية التي قَصَفَتْ جموع العدوّ، فَشَتَّتْ شملهم بسرعة خاطفة، وكبَّدتْهم خسائر فادحة.

استغرقت المعركة ساعَتَيْن، عادت المجموعات بعدها إلى المعسكر، لتنعمَ بفترة راحة مُستَحَقّة، لكنْ، وسط أجواء حارّة جدّاً.

عاد العقيد مانجان من مشرع بن عبو زوالاً بعد أن أقنع الجنرال ليوطي بعدم التّحرّك نحو مراكش صيانة لأرواح مواطنينا المسجونين، بينما استمرّ الوسطاء في محاولة التّوصّل إلى اتّفاق، يقضي بإطلاق سراح السجناء مقابل مبلغ مالي. ولمزيد من الضغط على الهيبة، تلقّت الحاميات الأمر باحتلال آسفي وموگادور.

كُنّا نعرف أننا في وضعية صعبة، لأن مواجهة العدوّ المتعصّب من هنا إلى سوق الأربعا، ستستنزف كثيراً من المؤونة والرجال. علمْنا بإقدام الهيبة على تغيير خليفته الذي انهزم بوهّام، وواد الفران بعد أن عبّر له عن سخطه، وغضبه.

هل بدأت معنويات العدوّ تضعف أمام الخسائر المتلاحقة بين صفوفه؟ رأيتُ شخصيّاً أحد المغاربة مقتولاً عارياً تحت أشعّة الشمس الحارقة ممدّداً على الأرض بعد أن اخترقت رصاصة رأسه. كانت جموع العدوّ مشغولة طيلة اليوم ليلاً ونهارا بإطلاق النار، وجمع جثث ضحاياها، وإسعاف المصابين في القصف.

أصبح كل شيء هادئاً، ولم نعدْ نسمع سوى نباح كلاب في الدواوير المجاورة، أخذ العرب المستقرّون تحت خيامهم يبيعون الشاي، والدخان، والمؤن للجنود، ممّا شجّع بعض الأوربيّيْن على نَصْب خيامهم بدورهم للبيع والشراء. ولم يعد الجنود مكترثين بطلقات الرصاص

المنطلقة من هنا وهناك، وإنما أخذوا يتجوّلون في أرجاء المُخيّم، و"يستمتعون" إلى أن يحلّ الليل. إن الحياة الحربية تُكسِبُ المرءَ قُوّة في البَدَن والروح معاً، وقدرةً على التّحمّل، لكننا أصبحنا نكره المغاربة، لأنهم لم يكونوا يتردّدون في الهجوم علينا، وقَتْل الجنود، وإصابتهم.

كانت الليلة في المعسكر هادئة إلا من صوت الكروان (كورزيت)، و"تهارش" الكلاب في الدواوير البعيدة، ونهيق الحمير، وصهيل الخيل، و"صوت" الرجال الملفوفين في أغطيتهم الرقيقة، والمفترشين الأرض .. كان العدوّ يلاحقنا حتّى في أحلامنا بوحشية، وبلا كلل أو ملل، نراه يخترق الخنادق، ويُباغتنا بالبنادق والخناجر ...

توجّسْنا خيفة من تصاعد نباح الكلاب، فقد يكون العدوّ يتسلّل خلسة تحت ضوء القمر، في الأودية بين الصخور، أو خلف حدائق الكروم، وأشجار الصّبّار، وينساب في المنحدرات استعداداً لشَنّ هجوم جديد ... استيقظْنا فجأة على دَويّ طلقات الرصاص، لكنْ، لا أحد تحرّك في المعسكر، لأن نصف الخَفَر كانوا نائمين.

٢٨ آب / أغسطس

قدم إلى المعسكر، منذ يومَيْن، رجلان يحملان بريداً من مراكش، يفيد أن سي المَدَني تمكّن من تحرير مواطنينا، وهم الآن يعيشون آمنين في كنفه. بدا أن هذَيْن الرقّاصَيْن كانا صادقَيْن فيما حملا من أخبار، فبشرتُهُم السوداء تؤكّد انتماءهما لقبيلة گلاوة، كافأناهما بخمسين فرنكاً، ووعدناهما بالضِّعْف، إنْ هما أتيا برسالة من أحد الفرنسيّيْن.

قرّرْنا اليوم الانطلاق على الساعة الثانية لملاقاة العدوّ الذي تجمّع تحت

قيادة الخليفة جنوب مدينة بن گرير. أفادت المعلومات التي بلغتْنا أن عددهم الآف من الخيّالة والمشاة، وأنهم سيزحفون في اتّجاهنا، فوجدناها فرصة سانحة للقيام بهجوم، يُمكِّننا من تحرير مواطنينا.

٢٩ آب / أغسطس

تركْنا فيلقاً لحراسة مُؤننا، وقليلاً من الرماة بسوق الأربعا، وانطلقْنا على الساعة الثانية صباحا من أجل "خطف" المراكز الأمامية للأعداء بدوار بابا عيسى، وما هي إلا ساعة بعد الانطلاق حتّى كانت طلقات الرصاص تُضيء القِمَم أمام الطابور.

أنجزْنا مهمَّتَنا بنجاح، وأصبحت الحركة تحت سيطرتنا، فأعطى العقيد مانجان أوامره بمغادرة بابا عيسى، والاتّجاه مباشرة نحو بن گرير، حيث يُعسكِرُ الخليفة مع مجموعاته الكبيرة. طلع الفجر والخيّالة والمشاة يجرون في كل اتّجاه، وينزلون من المنحدرات، تلاحقهم طلقات الرصاص. كانوا في حركة دائبة، واستنفار مُستمرّ. ودون تردّد قمْنا بهجوم كاسح بطلقات المدافع التي كان الخيّالة يشحنونها باستمرار .. وكانت عملية مُحكَمَة ورائعة، أدّت إلى بَثّ الرعب في صفوف العدوّ، وتشتيت فلوله، وتقدَّمَنا الجنود برشّاشاتهم، يفتحون أمامنا المسالك.

وبحلول الزوال اتّجه الخيّالة، والسنغاليون الراكبون بعمائمهم مهرولين في اتّجاه آبار بنگرير التي لاحتْ في الأفق من بعيد.

إنه منخفض فسيح، يضمّ قُرى نصفها نوايل، ونصفها من تراب، رأينا أربعة أضرحة تحت قبب بيضاء وسط مقبرة، لا تكاد مقابرها تظهر بين الأعشاب، لا يُؤنِس وحشتها إلا يمامات، تُحلِّق في الجوّ، وقُبّرات تدبُّ على الأرض. .

انسحب العدوّ، ولم يُخلِّف وراءه سوى أكوام من التبن والشعير في مرابط الخيل وحول الآبار، وأحد السبايسية الذي تظاهر بالهدوء، وعدم الخوف، قال لنا: "أنا من الدوار المجاور، والحركة بعيدة، قد غادروا الآبار منذ الصباح"، كان لدينا شعور بأنه يكذب، فاندفع عدد من الجنود في تعقّب آثار العدوّ، وفرّ بعض الخيّالة المنعزلين أمامنا دون إطلاق رصاصة ...

وعلى بُعْد مرحلة من بن گرير تراءتْ لنا الحركة الهاربة وسط زوبعة من غبار كثيف، تُثيره رياح جافّة، تلفح الوجوه، كما كانت الحرارة خانقة، لا تُطاق، تسبّبتْ في عطش شديد، لم يطفْهُ إنسان، ولا حيوان، وأقرب نقطة للماء على بُعْد عدّة مراحل جنوباً، فلم يقوَ المشاة المُنهَكُون على تجاوُز بن‌گرير، أما الخيّالة، فتوقّفوا عن مطاردة العدوّ، لأنهم وجدوها مهمّة مستحيلة في مثل تلك الظروف. ونصب الطابورُ الخيامَ، وحَفَرَ الخنادق، كما جرت العادة في المُربّع، وأسرع المُكلّفون بالسّخرة لجَلْب الماء من الآبار. كان الأوروبيون والجزائريون والمغاربة والسنغاليون جميعهم يتصبَّبون عَرَقاً، ويتسابقون على كل قطرة ماء، يشربونها، أو يُبلّلُون بها ثيابهم.

كانت تبعاتُ الحرب قاسية، لاسيما لمنافسينا، فقد قتَلتِ المدفعيةُ جماعة منهم، لجأت لأحد الأضرحة طَلَباً للظّلّ، كما تركوا وراءهم في الساحة خيولاً تحتضر. وفرّ المغاربة حاملين جرحاهم فوق السروج في اتّجاه مراكش. أمّا في صفوفنا، فقد أُصيب أحد عشر رجلاً، اثنان منهم إصابتهما خطيرة، وسنغالي مصاب في صدره، كما فَقَدَ أحدُ الجنود المشاة الفرنسيين عينَهُ.

يبدو البلد أجردَ صحراوياً، فلم يكن ثمّة أثر لخضرة، باستثناء أشجار الصّبّار محاطة بأسوار من الحجارة بمحاذاة الدوار، يبدو أن هذه السنة سنة جدب مع أن الأرض الحمراء جدّ خصبة وصالحة للزراعة، وكان بالدواوير خزّانات الحبوب، وأكوام التبن. وفي المساء، جيء بعشرين من السجناء

الذين أُسروا في الحرب، بعد أن استُجوِبُوا لآخر مرّة أمام العقيد مانجان عند الزوال. ورغم أننا لم نبخلْ عليهم، لا بماء أوطعام، فإن نظراتهم كانت تنطق بالغدر والغضب. إنه إحساس الأسير، معظمهم شبّان في مقتبل العمر، وبوجوه ذات تقاسيم واضحة، يتحدّرون من بربر قبائل الأطلس جنوب مراكش، وقال لهم مانجان عبر مترجم: "اذهبوا لقبائلكم، وأخبِرُوهم أننا لسنا أعداءَكم، لكن الهيبة أَسَرَ إخواننا، فنحن طيّبون، لا نريد سوى الخير للبلاد، وإعادة النظام للمغرب تحت حكم السلطان مولاي يُوسُف". تفاجأ الأسرى، ولم يُصدِّقوا أنهم أصبحوا أحراراً ، فأكبُّوا على ملابس مَنْ أطلقَ سراحهم، يُقبّلونها. وأخبرونا أن زعماءَهم لم يتحرّكوا بمِلْكِهم، وإنما أرغمهم الهيبة، وهدَّدهم بمصادرة أملاكهم، إن هم لم يستجيبوا لأمره.

٣٠ آب / أغسطس

استسلمت البارحة مجموعةٌ من الدواوير، كما التحقت بنا صباح اليوم عدّة وفود، يرفعون أقمشة بيضاء على رؤوس العصي، يسوقون عجلاً هزيلاً مُعلنين استسلامهم وخضوعهم.

الدواوير هنا مزدحمة بسُكّان، يقيمون بنوايل أو بيوت طينية، تحفُّها أسوار مَبْنِيّة من الحجارة الجافّة، وتطلّ على أحزمة من أشجارالصّبّار والكرم التي لم يتردّد رجالنا في جَنْي الكثير من ثمارها ..

كلّفَنَا الوصول لوهّام، عند الزوال، سبع ساعات بعد أن هزمت محلّة الخليفة قبل أيّام. لم نجد أمامنا سوى واد شبه جافّ، وضايات متفرّقة ومُوحِلة، بمياه غير مستساغة الطَّعْم، تستعمرها السلاحف، والضفادع، وقليل من الأسماك. ما من نباتات هنا سوى أعشاب قليلة على جوانب

الضايات، وضفَّتَي الوادي، وبعض أشجار "العناب" قرب أحد الأضرحة الذي يتوسّط المقبرة، ونخلَتَيْن، ضربنا بالقُرب منهما خيامنا. المشهد في هذه الفترة من السنة عبارة عن سهل كبير أحمر بلون التراب، وفي الأفق هضاب زرقاء، ودوار يتراءى من بعيد يترنّح وسط السراب. على مَدّ البصر، لا أثر لعشب أو شجر، وإنما أحجار الرَّحَى، بلون التربة ومحاصيل هزيلة تزيد من كآبة المنظر وقسوته.

تحرّكْنا تحت أشعّة الشمس الحارقة في اتّجاه معسكرنا بوهام دون أن نُطلق رصاصة واحدة، وحيثما مررْنا كانت الأعلام البيضاء منصوبة فوق سطوح الدواوير المهجورة. بالأمس، كانت ترمينا، وتُعادينا، واليوم رحلت هاربة نحو مراكش، أوالتحقت فِرَقُها المهزومة بقبائلها.

٣١ آب / أغسطس

قرّر العقيد مانجان إخضاع فخذة يگوت التي بقيت مُتعنّتة ورافضة الاستسلام بالقُوّة، وإحداث خطّ رابط بين أمّ الربيع ومراكش، يسهل العبور، ويعفي من وَضْع الحاميات. علينا أن نكون أكثر قُوّة واستعداداً للدخول لمراكش، وتثبيت فِرَقنا وسطها بدل توزيعها على المراكز المختلفة. كلّفنا تأمين الطريق الكثير من الرجال الذين كُنّا في مساس الحاجة إليهم، للقضاء على آخر قبيلة معارضة، كما كُنّا مُلزَمين، أيضاً، بتمشيط الساحة.

لقيْنا مقاومة كبيرة من الشيخ صالح زعيم يگوت حليف الشيخ الهيبة وصهره الذي أصبحتْ أختُه زوجاً لأخيه، فقد حاربنا الشيخ صالح على رأس أربعمائة فارس ببنگرير. ومع تباشير الفجر، قدم مبعوث، يُخبرنا أنه تمّ إخضاع يگوت العنيدة. لكن العقيد مانجان بقي مُرتَاباً ويَقِظاً. وأكّدت

الأحداث مخاوفَهُ وحذرَهُ، فالخبر لا أساس له من الصّحّة، لأنه لم تأتِ وفود، تعلن استسلامها، كما هاجر الناس مساكنهم، واعتصموا بالمرتفعات، فغطّوها ببرانسهم البيضاء فوق خيولهم، يتحرّكون كما عهدناهم.

كل ما في المنطقة ينطق بالخصب والغنى، فالدواوير كثيرة وآهلة، والحقول تغطّيها سنابل القمح والشعير، وحدائق الكروم، والدوالي. قرية الشيخ صالح موقع هامّ جداً، يمثّل مسكنه المَبْنِيّ بالحجر والطين حصناً لعدّة ساحات، ويمكن لسلّم حجري من بلوغ السطح، وإلقاء نظرة بانورامية على المرتفعات. لاحظْنا وجود كمّيّات كبيرة من الشعير، والقمح، والتين، والصوف. وفوق السطوح التين المجفّف و"التّفّاح".

ولم يظهر العدوّ إلا في المراكز الأمامية، فتصدّى له مجموعة من السبايسية، ثمّ عدْنا عبر طريق جبلي، يقطع وادي "مبرد" كواد "فران" جافّ، لا تتخلّله إلا ضايات وسط نبات الدوم، تعيش فيها السلاحف والضفادع. كان يوماً شاقّاً، فرحلتنا انطلقت منذ الفجر، ولم نعدْ إلى سوق الأربعا إلا ليلاً.

٣ أيلول/ سبتمبر:

ها نحن منذ يومَيْن في معسكر الأربعا فريسة للذباب الذي جعل مقامنا جحيماً، كما كانت الرياح الجافّة تثير زوابع من الغبار، تقتحم خيامنا، أمّا الحرارة، فلا تُطاق نهاراً، بينما تكون الليالي باردة، ممّا تسبّب في إصابة الكثير من الرجال بنزلات برد شديدة، فيملؤون المعسكر سعالاً، يطرد النوم من الجفون، ورغم الاحتياطات كلها، فقد حدث ما كُنّا نخافه، وهو هجوم الحمّى القلاعية التي حصدت الكثير من الأرواح، لكن ذلك ما زادنا

إلا إصراراً، وبدا الاستسلام مرفوضاً، ورغم أن الأيّام اللاحقة كانت حزينة، فقد تكلّلتْ بالانتصار.

وَصَلَتْنا البارحة رسالةٌ من الحداد Fiori اللاجئ لمراكش عند الحاجّ التهامي الگلاوي على غفلة من الهيبة الذي ظنّ أنه أسرَ الفرنسيّيْنْ جميعهم في دار المخزن. وطلب منّا المسكين أن نُنقذه ورفاقه من الأسر. وكان مراسلونا يصفون الهيبة بالمغتصب الذي دخل مراكش، أدّى به الحماس إلى إعفاء الناس من الضرائب مُدّعياً أنه لا أصل لها شَرْعاً، ولامَ السلطانَ الذي عجز على مواجهة النصارى، وشكّك في "بركته"، كما أعلن أنه سيتحرّك بعد رمضان شخصياً للتّصدّي للكفّار ...

لكنه لم يفِ بوعده، ونُعِتَ بالكذّاب، وتناقص عدد أتباعه بالمدينة، ووَقَعَ انشقاق بين صفوفه، كُنّا نحن المستفيدين منه، كما أثار إلغاء الضرائب سخط "رجال السلطة"، لأنها كانت مصدر دخْلهم.

وأخبرنا الباشا إدّريس منو، والشريف مولاي رشيد، و"القايدان" سي المَدَني، والحاجّ التهامي الگلاوي بعدّة رسائل، أنهم مستعدّون لمؤازرتنا، إذا قرّرْنا التّحرّك في اتّجاه مراكش، للقضاء على الهيبة في قصره، مع ضمان سلامة رعايانا الفرنسيّيْنْ.

اتّهم المسلمون المخلصون رجالَ الهيبة بالإفساد في المدينة، فهم بدل أن يقاتلوا أعداء الدِّيْن، انهمكوا في اللهو، والمجون، والسُّكْر، وإكراه النساء على التّزوّج بهم، والإتيان بهنّ للقصر، لإرضاء نزوات رجال السلطان دون احترام قُدسية شهر رمضان.

"هيّا، فلتكن الانطلاقة النهائية". كان هذا نصّ البرقية التي وردتْنا هذا

المساء عبر اللاسلكي، من الجنرال ليوطي، يأذن لنا فيها بالتّحرّك نحو مراكش، لكننا أجّلْنا الأمر ليومَيْن بعد أن تتمّ عملية التموين كاملة.

أَكْسَبَنَا انتصارُنَا في وهّام، وبنگرير هيبةً في نفوس الأعداء، وصدىً قوياً في كل ربوع البلاد، كما توصَّلْنا ببرقية أخرى، تشير إلى وصول الجنرال ليوطي غداً رابع أيلول/ سبتمبر، لأَخْذ آخر الترتيبات، ورَفْع معنويات الفِرَق قبل الانطلاق.

الفصل الثاني
التّحرّك نحو مراكش

٤ أيلول/ سبتمبر

وصل اليوم الجنرال ليوطي، كما كان متوقّعاً، في أجواء، يلفّها التّرقّب والحَذَر، تقدّم العقيدُ مانجان مفتخراً أمام الجنرال وراءَهُ رجاله الخمسة آلاف المدرّبين جيّداً والمتحمّسين للتّحرّك لنجدة معتقلينا. أعطى بابا، طبّاخ العقيد مانجان، الأوامر بأن يلتفّ حول "موائد"، بثلاث أرجل قصيرة، وكراسي من صناديق خشبية، ثلاثة عشر رجلاً بدل أربعة، وعوض مَسْح الأيدي بالمناشف، استعملت المناديل الورقية المخصّصة لدورة المياه، أمّا منديل المائدة، فقصير لا يُغطّي جوانبها، واستعملت ملعقة كبيرة لشرب الحريرة لتحريك القهوة، وشُرِبَ النبيذ في أوانٍ حديدية مزلجة، واختتم المشهد بزوبعة من الغبار، دامت لساعات وساعات ...

غادرَنَا الجنرال، بعد الغداء على فَرَسه، راضياً عن حفاوة الاستقبال، ليلتحقَ بالسّيّارة التي تنتظره بأمّ الربيع، وكان بودّه أن يتقدّمنا في الزحف على العدوّ.

وقبل أن ننطلق هذه الليلة، في اتّجاه مراكش، جمع العقيد مانجان خمسين من ضبّاطه، ليشرح لهم خطّته، وكان يتكلّم بنبرة، فيها مزيج من الهدوء، والحماس، وحثّهم على بَذْل جهود مضاغفة لمباغتة العدوّ بسرعة، والتّقدّم نحو أسوار مراكش، وإطلاق سراح مواطنينا.

٥ أيلول/ سبتمبر

استفقْنا في منتصف الليل، ولم ننطلقْ إلا في حدود الثالثة صباحاً، لأنه كان علينا تحميل قافلة، تتكوّن من ألف وخمسمائة بغلة، وألفَي جمل، ولما كُنّا ننتقل ببطء، قرّرْنا تقسيم الوحدات إلى مجموعَتَيْن، تتكفّل الأولى بمهمّة حماية القافلة، بينما تتولّى الثانية مواجهة العدوّ. وصل الطابور إلى بنگرير على الساعة العاشرة دون مشاكل، واخترْنا التّوقّف قرب خمس قبب لأضرحة، زُيّنت جدرانها من الداخل بالألوان، فالفنّانون المغاربة يحبّون كثيراً الأخضر، والأزرق، واللون المأخوذ من أكسيد الحديد. لكن هذه الآثار العمرانية لم تكن لها القيمة نفسها للمكعّب من الحجارة البيضاء فوق سقف القبّة يعلو "جبانية"/جامور من حديد، وبوّابة مُزيّنة بالقرميد الأخضر، تفضي إلى الداخل، حيث تتمدّد في العتمة قبور لثلاثة أولياء، يقدّسها المسلمون أكثر من تقديسهم لله، وتميّز أحد الأضرحة بعناية خاصّة، إذ زيّن برسوم جميلة، ونُقشت أحجارة بدقّة، كما صُمّمت شبابيك النوافذ الحديدية بمهارة ...

كان الموقع ملائماً للاستراحة، وإن كُنّا نعلم أنه تنتظرنا تحدّيات كبيرة حتّى نصل للعدوّ، فأُعطيَت التعليمات للوحدات كافّة، لأَخْذ ما يكفي من الماء، ذلك أن أقرب الآبار لن نصل إليها إلا غداً بعد الزوال، بمنطقة سيدي بو عثمان، فمُلئَت الحاويات والبراميل، من الاحتياطي الثمين، و"شربت" الحيوانات بسرعة متناهية، وما إن دقّت عقارب الساعة الثانية حتّى كان الطابور مستعدّاً للانطلاق وسط جوّ شديد الحرارة، وَصَلْنَا إلى نزالة لعظم، على بُعْد ثلاث مراحل من بنگرير جنوباً، بعد أن أرخى الليل سدوله، فتعذّرتْ علينا الرؤيا وراء الحواجز الشوكية التي تسيج الدواوير، غابت الأعلام البيضاء، لأن السّكّان التحقوا للانضمام لصفوف العدوّ.

وباستثناء رَصْد الصفوف الأمامية لطلقات من فارسَيْن، لم نصادف أحداً في أثناء التّحرّك، فقد كان المشهد يبدو في الأفق رتيباً، والفضاء خالياً إلى الحدود الزرقاء للجبيلات، حيث تراءى لنا تمركُز معسكر العدوّ قرب ضريح سيدي بوعثمان بلونه الرمادي.

كانت البئر الوحيدة الموجودة بنزالة لعظم، يصل عمقها إلى مائة قَدَم، أمّا الضايات، فقد جفّتْ، وأرغم الرجال الذين لم يُحسنوا تدبير حصّتهم من الماء، على أخْذ القليل من المياه الممزوجة بالوحل.

لم تعد تفصلنا عن المواجهة الحاسمة سوى ساعات قليلة. كان جيش الهيبة مُكوّناً من أربعة مدافع، وخمس عشرة ألفاً من المشاة والخيّالة تحت قيادة الخليفة مربيه ربو الذي انتشر على الصخور الموجودة أمام الجبيلات. قرّرْنا الانطلاق في منتصف الليل، لأن حمولة طابورنا ثقيلة جدّاً، فقد قطعْنا مسيرة ستّين كلمتراً في أربع وعشرين ساعة.

٦ أيلول/ سبتمبر

تأخّرت الانطلاقة إلى حدود الساعة الثانية صباحاً، لشدّة الظلام، وتعب الوحدات التي لم تنلْ حظّها من النوم خلال الليلَتَيْن الأخيرَتَيْن.

تحرّك الطابور بهدوء وانتظام، نحو المجهول، لاصوت إلا صوت المدافع المجرورة فوق الأرض الكثيرة الحجارة، ورغم علْم العدوّ بتقدّمنا، فإنه لم يُطلق أيّ رصاصة. وعمّ صمت رهيب، بعث الشّكّ في نفوسنا، أيكون الهيبة قد انسحب؟ أم اختار ميداناً آخر للمعركة؟ أم أنه ينتظرنا أمام أسوار مراكش؟ أم أن المعركة ستُؤجّل لنهاية اليوم بعد رحلة شاقّة؟

استغلّ العقيد مانجان فرصةَ عدم ظهور العدوّ قرب البئر، فأعطي الأمر بالتّوقّف لملء الحاويات والبراميل، فقد نفد احتياطنا من الماء، صباح اليوم، لأن الوقت لم يكفنا البارحة لإمداد الوحدات بالماء الكافي، لاسيما أننا علمْنا أن لا فرصة أمامنا للتّزوّد بالماء إلا بعد الوصول إلى سيدي بوعثمان، حيث يُعسكر العدوّ. مُلِئَت البراميل و"السطول" بسرعة، لئلا يتأخّر تقدّم الطابور.

اتّخذ الطابور شكل مُربّع استعداداً للمواجهة، وكانت مهمّة حماية القافلة موكولة لمجموعة "المقدّم" سافي، بينما تكلّف "المقدّم" جوزيف بالمناورة في الصفوف الأمامية المُكوّنة من "شريط" رقيق من الرماة، ويليه العقيد مانجان يتقدّم المشاة والخيّالة. أخذ الرماة مواقعهم، ينتظرون إشارة إطلاق النار. وما إن تحرّكنا حتّى شاهدْنا أمامنا في السهل، حركة تتكوّن من آلاف الخيّالة والمشاة، فأعطى الضابط المُستطلع إشارة بالخطر المتقدّم، كانت فرقة مُكوّنة من خمس عشرة فارساً، ببرانيسهم البيضاء، ورايَاتهم الناصعة تُرفرِفُ على بُعْد مرحلة، تعلوهم سحابة من الغبار الكثيف ...

وأخيراً ظهر العدوّ! بدا مُتكتّلاً مُنظّماً، وفي أتمّ الاستعداد للمواجهة، وانتابَنا شعور بالزهو، لأننا كُنّا أكثر عتاداً وقُوّة ممزوجَتَيْن بالتّوجّس والخوف، لكثرة حشودهم قياساً لمُربّعنا المتواضع، لم يتوقّف قوّادهم عن التّحرّك بين الصفوف، وإصدار الأوامر. واستغربْنا كيف استطاعوا كَفّ هذه الحشود عن إطلاق ولو رصاصة واحدة؟! كشفت أشعّة شمس الصباح عن ساحة رمادية، وكتلة الحركة البيضاء، والحاجز الأزرق للجبل.

كان العقيد مانجان هادئاً، لم يعطَ أيّ أمر بإطلاق النار، وكان الفريقان يحدوهما الحماس والرغبة في النصر، لكنْ، لا أحد منهما بادر لإطلاق رصاصة واحدة حتّى انتابَنا شعور أنهما سيشتبكان بالأيدي والأجسام بدل

البنادق والمدافع، بل أصبحنا نشكّ في حدوث تصعيد أو توتّر، لاسيما أنهم كانوا على مَرمى حجرمنا. لكن هذا الإحساس تبدّد، لمّا سُمعتْ طلقات الرصاص فجأة من خطوط العدوّ على بُعْد ألف وخمسمائة متر، وعلمْنا حينئذ أن صبر العدوّ قد نفد، وأن معنوياته تحطّمتْ.

تقاطرت طلقات الرصاص على الطابور الذي لم يتوقّف عن التّحرّك دون إطلاق رصاصة، لكنْ، سرعان ما تلقّت المدفعية الأمر بالرّدّ مصحوبة بوابلٍ من رصاص الرشّاشات، وملأ دَويّ القصف الأجواء، وأحدثت القذائف الفوضى، والارتباك وسط صفوف العدوّ، لكنها لم تمنع الخطّ الأمامي من الزحف اتّجاهنا بشجاعة وإقدام، الفرسان على صهوات الخيول، والمشاة يركضون وراءهم، لكن طلقات الرماة الكثيفة حدّتْ من هذا الحماس الجامح، فاختلّ نظامهم، واضطربت صفوفهم، وتفرّقوا شَذَرَ مَذَرَ، بينما أخذ المشاة مواقعهم في الخلف، وأرسلوا جحيماً من النيران .. ولمّا شكّل الخيّالة طابورا عريضا، وتحرّكوا على الأطراف لمهاجمتنا، أصبحوا هدفاً سهلا للقذائف التي أسقطتْ كثيراً منهم، وكلّفتْهم خسائر فادحة، فولّت البرانس البيضاء هاربة. وسط سحابة من الغبار، وفرّ الفرسان في كل الاتّجاهات، لكنهم أبانوا عن شجاعة نادرة، لمّا رجعوا يجمعون قَتْلاهم وجَرْحَاهم.

اشتدّ أوار المعركة ساعَتَيْن، ومع أن العدوّ تراجع عن الهجوم، لكنه لم يغادر الميدان، ولم يفقد الأمل في النصر، واستمرّ في التّحرّك أمامنا، وعلى الأطراف تحت "ظلّ" القِمَم، فأصبح طابورنا مُحاصَراً من الجهات الأربع، ولمّا شرعوا في إطلاق النار في مختلف الاتّجاهات، انتظم الرُّماة من جديد، وأخذوا مواقعهم لاستئناف المعركة، ومن حُسن حظّنا أن قافلتَنا تمركزت قرب وحدات الاحتياط للمشاة، والخيّالة التي جعلت القصف

أقلّ حدّة وضراوة. تبيّن للضبّاط أن لا سبيل لرَدّ الهجوم الكاسح سوى اللجوء للمدفع الذي لم يُعَدَّ إلا لهذا الغرض، كما اضطرّت وحدات الجهة اليمنى إلى استعمال الأسلحة البيضاء لمواجهة الخيّالة الذين يدورون، ويقصفون عن بُعْد. أسرع ضُبّاط القيادة العليا فوق خيولهم للحفاظ على تماسك الوحدات، وتحمّل القصف، دون أن يُعطوا الأمر بالهجوم. وواصل مُربّعنا تحرّكه بحماس، والرماة يتقدّمون برشّاشاتهم وسط الخطوط، يَدعمون من الخلف المشاةَ الذين يمُشِّطون طريق الآبار مستغلّين طبيعة الساحة السهلية، وارتكب العدوّ خطأ فادحاً ببقائه مُتكتّلاً، أنه سهّل الأمر علينا، فقذيفة واحدة تُسقِط الكثير من القتلى، فَدَبَّ الرعبُ والهَلَعُ في صفوف خصومنا. أمّا قذائفهم التي أشرف عليها الإسباني "مرتد"، فلم تكن دقيقة في إصابة أهدافها، إمّا تصعد إلى الأعلى، أو تنزل في المُربّع دون أن تنفجر. رصاصهم وحده سبّب لنا في بعض الخسائر، كما أن المشاة المغاربة لم يكونوا مُدرّبين، وإن كانوا أشدّاء وأقوياء خلف المُربّع، فما كُنّا لنهزمهم، لولا الاستعانة بالمدافع.

وفي حدود الساعة التاسعة، ارتأى العقيد مانجان أن نقوم بشَنّ هجمة قوية، تستفزّ العدوّ، وتُضعِف معنوياته، وتعالت فوق رؤوسنا سُحُب غبارية، مَنَعَتْنا من تبيّن حقيقة ما يصنعون، أما زالت الخيام منصوبة؟أم أنهم يجمعون أمتعتهم استعداداً للانسحاب؟

تقدّم الخيّالة، الذين لم يشاركوا في المعركة بعد، مُكوِّنين ثلاثة صفوف أمام المعسكر والجميع يترقّب قراراً جريئاً، وحاسماً ينهي المسألة. فاجتمع الأتباع كلهم، من الگوميّيْن المغاربة، والسبايسية الجزائريّيْن، والقنّاصة من أفريقيا الفرنسية، كما لو أنهم في تمرين حاملين بنادق "الكارابين"، ينتظرون الأوامر من النقيب Picard للزحف نحو العدوّ المتمركز على

بُعْد مرحلة من هنا، اتّخذ الأربعمائة من الجند والخيّالة الذين يُلوّحون بحماس بسيوفهم التي تقطر دماء، والمشاة والمزوّدين بأكياس من القذائف والرصاص مدعومين بمدفَعْين، ورُفع عَلَمَان، يتقدّمه جمع من السنغاليّيْن لمؤازرة هذه الحركة الرائعة.

آتت المناورة أُكُلَهَا فاضطربت معنويات العدوّ، فتقهقر وراء الجبيلات المحادية للآبار، كما رأينا طوابيره العريضة تصعد المنحدرات، وتختفي عبر الفجاج نحو الجنوب، لكن المُربّع استمرّ في المطاردة للنَّيْل من مُؤخّرة الحركة.

لاحظْنا أن اليأس والوهن بدءا يدبّان للأعداء في حدود الساعة العاشرة وثلاثين دقيقة، وفي الساعة الحادية عشرة، التحق الطابور بالخيّالة لتقديم الدَّعْم، وبعثرت الخيام والمؤن، فما وجدنا سوى زرابي، و"مجامير" وأكياس من السّكّر والشاي. وعلب من الشمع والبسة وأطعمة متنوّعة ...

و رغم أشعّة الشمس الحارقة، والعرق المتصبّب من الملابس والحارق للعيون وزوابع الغبار المتطايرة فوق وحول الحركة، والإحساس بالإنهاك والتعب، فإن "المجموعات" عبّرت عن فرحها الكبير بهذا النصر .. لكنهم بقوا منهزمين أمام العطش الشديد، إلى أن أسعفهُم الحظّ، فوجدوا آبارا كثيرة، وقريبة الأغوار.

انتهت المعركة، ولم نخسر سوى رجلَيْن، وأُصيب ثلاثة وعشرون آخرون، وخمسون فَرَساً وبغلاً خارج ساحة المواجهة .. تأتّى ذلك بالخطّة المحكمة، وانضباط مجموعاتنا. أمّا العدوّ، فلم يُخفِ خسائرَهُ الكبيرة التي ناهزت الألفَيْن بين قتيل وجريح، بمَنْ في ذلك الرجال الذين ولّوا مُدبرين نحو مراكش. يا لمصير هؤلاء البؤساء!

أخبرَنَا الأسرى والمصابون أن الهيبة أكّد لهم أن بنادقَنا ستتعطّل، وأن المدافع ستصيح "الله أكبر"، فجاء الشيوخ والأطفال إلى المعركة حاملين العصي لجَلْد الكفّار، والحبال لسَحْبهم من أعناقهم، لأن غضب الله سينزل بهم، فيُسلِّمون نفوسهم للمسلمين دون مقاومة.

وعندما رأونا نتقدّم بادئ الأمر دون إطلاق أيّ رصاصة، اعتقدوا صحّة نبوءته، فتقدّموا يُردّدون: "لا إله إلا الله محمّد رسول الله" متيقّنين من النصر. وأنسَاهُم حماسُهم الزائدُ، وبُغضهم للنصارى، الالتزامَ بعَدَم فتح النيران، وحسبوا أنهم، بصنيعهم ذلك، يتقرّبون إلى الله، فانطلق الرصاص من الصّفّ الأمامي، فحذا حذوه الصّفّ الموالي، لكن "المحلّة" الفرنسية تريّثت أوّل الأمر، ثمّ أمطرتْهم بوابل من القذائف والطلقات التي شتّت شملَهم، وفَلَّتْ صفوفهم، فما كنت ترى سوى سُحُب غبارية، فَولّوا مُدبِرين، لا يَلوون على شيء.

بلغ التعب والإنهاك من فِرَق المشاة مَبلغه، بسبب قلّة النوم، فاضطررنا للتّوقّف لاسترجاع الأنفاس، وأخْذ قسط من الراحة، والتّزوّد بما يكفي من الماء، لاسيما أن المحلّة قد جفّفت آبار سيدي بوعثمان، وأعاق الحَرّ الشديد مواصلة المطاردة، لكنْ، لا مناصَ من إتمام ما بدأناه، ومَنْع العدوّ من التقاط أنفاسه، وإعادة تجميع صفوفه. لهذا شكّل العقيد فرقة طوارئ خفيفة، تتكوّن من سِريّة السبايسية، والقنّاصة الأفارقة و"فرقة" سنغالية، و"قسم" من الرماة، يحملون بنادق من عيار خمسة وسبعين، وگوميّيْن مغربيّيْن من الخيّالة، فكان مجموعهم ستمائة فارس إضافة لسيّارة إسعاف، وأخرى تحت إمرة الرائد Simon لمطاردة الأعداء حتّى مراكش، لئلا يتمكّن من إعادة ترتيب صفوفه من جهة، وتأليب المدينة ضدّ الهيبة تمهيداً لإطلاق سراح رعايانا الفرنسيّيْن، من جهة أخرى.

كانت الخطّة تقضي، أوّلاً، بتوجيه رسائل تهديد، تسبقنا إلى ساكنة مراكش، تُحذّرهم من إلحاق أيّ أذى بمعتقلينا لديهم، لأنهم إن تجرّؤوا على ذلك، أعملنا سيوفنا في رقاب الناس كلهم: صغيرهم قبل كبيرهم، وضعيفهم قبل قويّهم، ونسائهم قبل رجالهم، بل إننا سنهدم المدينة على رؤوس أصحابها، ثمّ سنتبع ذلك كله بإشعال نار الفتنة في ربوع المغرب كلها، تأتي على الأخضر واليابس، كما لم ننسَ الوعود بإغراءات ومكافآت لمَنْ سيُقدّم لنا يد العون ..

كان علينا عبور طريق وسط قِمَم صخرية مَلأى بمخلّفات العدوّ المستعجل في أثناء هروبه، فقد رمى بالخيام والفنارات، والألبسة والحصائر، والأكياس المملوءة عن آخرها بالخبز، والدقيق، والشعير والقمح، أمّا الحيوانات المصابة، فقُتلَتْ، فكُنت ترى جيف الخيول المنتفخة على طول الطريق.

عكس ما كُنّا نتوقّع، جزْنا معبر الجبيلات دون حوادث تُذكَر، ومَسَحْنا كل شبر من أرضه، وفتّشنا بين الصخور، فلم نرَ للعدوّ أثراً، لكنْ، عند مخرج المعبر، استقبلَنا مائة من الخيّالة، حسبناهم أوّل وهلة فرقة من الأصدقاء، لكنهم فتحوا النيران في وجوهنا من فوق صهوات خيولهم، فأصابوا گوميّيْن مرافقين للملازم Britsch. فبقينا ننتظر الأسوأ، وهم جمع من قطّاع الطُّرُق ... يبدو أنهم هم الذين رمونا بطلقات نارية في أثناء هبوطنا من منحدرات الجبل، وقتلوا ثلاثة خيول، لكنْ، سرعان ما استعدْنا رباطة الجأش والحماس من جديد، لنبعث فرقة من الخيّالة، يدعمها من الخلف مدفع لصعود المرتفعات، وإجلاء العدوّ عن الأماكن التي كان يرابط فيها.

فُصلنا عن الطابور بالجبل الذي يحتلّه العدوّ، فلم نجدْ بُدّاً من التّحرّك قُدُمَاً. تراءت لنا الكتبية بين أشجار النخيل، عن بُعْد، تُطاوِل السحاب.

إنها مراكش عاصمة الجنوب، ترى هل سيكون دخولها سهلاً؟ أم أن الحركة ستُلَمْلِمُ صفوفها من جديد، وتعود للمواجهة؟.

أعاق تقدُّمَنَا حدثان: أوّلهما إصابة رقيب بضربة شمس، فقدّمنا له ما يلزم من العلاج، وحملناه فوق عربة ذخيرة، وثانيهما توقّف المدفعية ثلاث مرّات لتغيير العجلات المكسورة، ولمّا نفدت عجلات الاحتياط، اضطررنا للتّخلّي عنها.

تجنّد رجال مدفعية الملازم (Duhautois) لتدارك هذا التأخير غير المتوقّع، فأسرع سنغاليو "الحزمة" Peloton، إلى حمل القذائف على أكتافهم، في حين ساق رفاقهم الخيول، وسط سهل قاحل، لم نصادف فيه إلا أحد الأهالي الذي أخبرنا أن "فِرَق" الهيبة تحتلّ قنطرة تانسيفت.

بدأ الليل يُسدِلُ أستارَهُ، فلم تظهر سوى نيران، علقتْ على رؤوس أشجار النخيل في الضّفّة الأخرى للوادي، وبحيرة ماء صغيرة قريبة من وادي تانسيفت، لم يتردّد الكل رجالاً وخيولاً في الارتماء وسطها وشرب مياهها المُوحِلة ...

جاءنا مبعوث من أعيان مراكش: الباشا إدريس منو، و"القايد" العيادي، و"القايدان" الحاجّ التهامي والمَدَني الگلاوي يُخبروننا أنهم بمُجرّد ظهور طلائع طابورنا سينقضّون على الهيبة، وسيمنعونه من قَتْل رعايانا، وأسْره.

وَصَلْنَا إلى وادي تانسيفت على الساعة الثامنة مساء بدل الساعة الخامسة، كما كان متوقّعاً، ورأينا أن الوقت قد فات للتشاور مع حلفائنا، وأيّ محاولة للاتّصال بهم ستبوء بالفشل. وقرّر "الرائد" سيمون أن "يهاجم قصر دار المخزن الذي يتحصّن فيه الهيبة، وبعث بريداً في الموضوع إلى مراكش، ليستعدّ أصدقاؤنا للمشاركة في هذه الحركة، وألحّ على حامله أن

يرجع بالجواب فجر يوم غد، ولم يُشكِّل المُربّع إلا بصعوبة تحت جنح الليل. افترشْنا الأرضَ، والتحفْنا بالسماء، واتّخذْنا من السروج وسائد، لأنه ليس لدينا مؤونة ولا أمتعة، ولا طعام. وكيف يجد النوم إلى عيوننا سبيلاً ونحن نتضوّر جوعاً، وبرودة الليل تلسعُنا في هذا الوادي المُقفِر، والخوف على مصير مواطنينا يقضّ مضاجعنا؟! والخيول، بدورها، شاركتْنا هذا القلق، فَأَجْفَلَتْ جامحة، تجوب أرجاء المعسكر كله ...

٧ أيلول/ سبتمبر

عاد الرّقّاص مساء ومعه رسالتان، يعدنا فيهما الباشا منو بمساعدتنا متى سمعوا قذيفة، تُعلمهم عن وصولنا، ويُحذّرنا من الدخول عبر باب الخميس، لأن رجال الهيبة سيكون في انتظارنا، ويشير علينا بالتّقدّم في اتّجاه باب دكالة حتّى نلقى الدّعْم، فيسهل علينا احتلال المدينة ..

حلّ الفجر المُرتَقَب، والطابور على أتمّ الاستعداد للهجوم، لكنْ، قبل ذلك، ألقيْنا قذيفَتَيْن، كما اتّفق، يتقدّمنا الرّقّاص نفسه الذي تحوّل إلى مُرشِد، ليدلّنا على باب دكالة.

ما إن تلقّيْنا هذه البشرى حتّى ارتفعَت معنوياتنا، وازداد حماسنا، فعبرْنا وادي تانسيفت بحبور في اتّجاه المدينة متحاشين ممرّات النخيل الكثيفة، لئلا نُفاجَأ بكمين، ينصبه لنا العدوّ خلف الأشجار الكثيفة، كما لم تكن لدينا ثقة في القنطرة الهشّة التي قد لا تتحمّل ثقل مدافعنا، وتوجّسنا أيضاً خيفة من جنباتها التي يشرف عليها العدوّ، لاسيما أنها كانت ملأى بحواجز من أشجار الصّبّار، أما الأسوار، فقصيرة، لأنها من جذوع النخيل، ستُمكّن العدوّ من حَبْسنا لوقت طويل، نحن في مساس الحاجة إليه.

وسلكْنا، إذنْ، الطريقَ التي اقترحَها علينا المرشد، رغم أن المدفعية تتقدّم بصعوبة في الساحة المتشعّبة، وتصادفها الحواجز الشديدة الانحدار لوادي تانسيفت، أما الخيول، فلم تكن تصل للماء الصافي - نسبياً - وسط الحجارة اللمساء إلا بصعوبة، لأنه في منخفض أشبه بالحفرة. وممّا زاد الوضع خطورة أننا رصدْنا المئات من الخيّالة والمشاة يتعقّبوننا، لكنهم لم يستطيعوا اللحاق بنا ..

وها نحن وَصَلْنَا إلى"منطقة" النخيل، وتوقّفْنا بجوار عَرَصَات مسوّرة مليئة بأشجار الرّمّان، والزيتون، والليمون، والكروم. وكانت العَرَصَات كلها مَسقية بعناية، والماء يجري بين المُربّعات "الأحواض" المخصّصة للخُضر المُكوَّنة من الفلفل، والبادنجان، والقَرْع، والبصل، والبطيخ والقَرْع الأحمرَيْن. وكانت الروائح العطرة تفوح من أحواض النعناع.

وبلغ إلى مسامعنا دَويّ الرصاص في اتّجاه المدينة، إنها، دون شكّ، مواجهة أخرى بين حلفائنا وقسم من رجال الهيبة! فرميْنا قذيفَتَيْنْ جديدَتيْنْ لمُؤازرة أصدقائنا، على بُعْد ستمائة متر، فتجاوزت الأسوار بعد أن دوّت فوق الشرفات ... وفجأة عمَّ صمت رهيب، هل يكون حلفاؤنا قد انهزموا؟ كُنّا نترقّب المعلومات بخوف وقلق عن مصير أسرانا!

ها نحن، أخيراً، تحت الأسوار التي كانت مُحصّنة بعدد كبير من الأهالي، لكنْ، لم تُصوِّب نحونا أيّ رصاصة، ربمّا رهبة من قُوَّهات المدافع العملاقة، فارتاحتْ نفوسنا، وإذا بمجموعة تظهر فوق تلّة من التراب الأسود، تتّجه نحونا يتقدّمها الرائد:Verlet-Hanus، وأخيراً! تنفّسْنا بملء رئاتنا، إنهم رعايانا الفرنسيون، لم يلحقهم سوء، يبدو أن طلقات مدفعيّتنا عند الفجر قد آتت أُكُلَهَا، لأنها بعثت الهَلَعَ في نفوس أتباع الهيبة، فولّوا هاربين بعدما هاجمهم أتباع "القياد" الذين وعدونا بالدَّعْم.

نفّذْنا نصيحة الرائد فيرلي – هانوس، فدخلْنا عبر باب الرّبّ عوض باب دكالة المحفوف بالمخاطر تحت حراسة الطابور الذي أحاط بالأسوار. وتمركزت الفِرَق في ساحة دار المخزن، ثمّ لحق بنا الباشا إدريس منو، وأخبرنا أن مواطنينا يوجدون بقصر الگلاوي. فذهبْنا راكضين فوق الخيول، نعبر السواقي والبِرَك المائية نحو إقامة الحاجّ التهامي، كان اللقاء جدياً، إذ شعرْنا بالفرح لنجاة مواطنينا من جهة، وبالأسى لما كانوا عليه من حالة مزرية، من جهة أخرى، لكنهم بعد أن استحمّوا وحلقوا لحاهم بعد أكثر من خمسة عشر يوماً من الاعتقال، غمرتْهم فرحة عارمة، وعادت البسمة لوجوههم من جديد.

توالت الأخبار والروايات: فالفرنسيون بعد خروج "المستعمرين" نظّموا حركة بدَعْم من الطابور والتجريدات التابعة "للقياد" الكبار: المتوگي والگلاوي والباشا إدريس منو ... لمَنْع الهيبة من الدخول إلى المدينة قد تراجعوا وارتدّوا بعد وصول كتائبه وعَجْز حُرّاسهم الضعاف عن المواجهة. ففكّروا في الالتحاق بالساحل، لكنهم مُنعوا بوابل من الرصاص عند مخرج النخيل، ، فرجعوا إلى المدينة، ليحتموا بالمتوگي.

ولمّا دخل الهيبة مراكش في اليوم الموالي، اختار مواطنونا أوّل الأمر ضيافة المتوگي، ثمّ لبّوا دعوة الهيبة بعد ذلك في دار المخزن ظنّاً منهم أن الگلاوي لن يصمدَ طويلاً، فما كان من الهيبة إلا أن اعتقلَهم كلهم، لكنه أطلق سراح الگلاوي في اليوم الموالي، ليبقى مصيرهم مجهولاً.

ظلّ الرهائن لمُدّة عشرين يوماً، لا يعرفون أيّ شيء عمّا يدور حولهم، بل لم تتحْ لهم فرصة لقاء الهيبة الذي أبى أن يستقبلهم، وكانت صلة الوصل الوحيدة بينهم وبين العالم الخارجي هو أحد رجال الگلاوي الذي كان يمدّهم بالطعام كلّما سنحت له الفرصة خارج المعتقل، ويرسلون

معه رسائل قصيرة مخبّأة، ويحرصون على كتابتها بخطّ يوناني أو ألماني، وإن كان محتواها فرنسياً خوفاً من أن تقع في يد أحد اليهود أو الإسبان الموجودين بمحيط الهيبة، لأنهم كانوا يعرفون لغتنا.

إن مَنْ نظّم الهجوم على دار المخزن هو الحداد Logis Fiori الذي كان موالياً للحاجّ التهامي، وسي المَدَني الگلاوي، والعيادي، والمتوگي دون أن يفطن له الهيبة، بل إن الأسرى أنفسهم لم يكونوا على علْم بالخطة التي كانت تُحاك لتخليصهم من الأسر.

انتهز السّجّان فرصة دخوله السجن، بدعوى أنه يريد أخذ زربية، ليعطيها أحد المرضى، فانحنى، قبل أن يغادر، على القنصل، ليهمس له في أذنه: "ما كُنتَ لتفعل للسلطان إن أبقاكَ على قيد الحياة أنتَ ومَنْ معكَ؟" فخرج مسرعاً دون أن ينتظر جواباً. وما هي إلا لحظات حتّى سُمع ضجيج كبير، وفُتح الباب من جديد، ليقتحم فرسان/خيّالة الباشا إدريس منو الزنزانة صارخين في وجه الأسرى: "أنتُم أحرار".

لنعد للحاضر الأهمّ الآن. تركتُ الناجين في منازلهم، وخرجتُ حوالي الساعة العاشرة للقيام بجولة رُفقة أحد رجال الحاجّ التهامي، ولكي أتطلّع من فوق السور إلى اقتراب الطابور، لكني لم أرَ شيئاً، وإنما سمعتُ دَويّ البنادق، وطلقات المدفع قادمة من ضواحي تانسيفت.

بدت مراكش "خربة"، وشوارعها الضّيّقة خالية، تنوء بالأوساخ والقاذورات المغطّاة بأسراب الذباب، وتنبعث منها روائح كريهة، تزكم الأنفاس، أمّا أبواب المنازل والمحلات التجارية، فمُوصَدة، تبدو المدينة ميتة، لا تسكنها سوى الأشباح، أمّا السّكّان، فقد لاذوا بمنازلهم الترابية مذعورين ...

أسرعْنا بدورنا نحو الأبواب، وأخذنا نطرقها بقضبان حديدية عسى أن يفتحها الحُرّاس. ساد الظلام بعض الأزقّة المنكوبة المسقوفة بالتبن.

في اليوم الموالي، لم نرصد أيّ تحرّك أو غبار يتطاير، أو صوت يُسمَع عبر شرفة الشريف ولد مولاي رشيد الذي آوانا في "غابة" النخيل تحت حرارة الزوال ... ولمّا رجعنا عند الحاجّ التهامي، نلتمس عنده بعض الأخبار، علمْنا أن الرائدَيْن سيمون وفيرلي – هانوس ذهبا للقاء العقيد مانجان ... وسيطلّ علينا الطابور في غضون ساعَتَيْن من الحدائق الشمالية للمدينة، حيث سيُبنى المعسكر، فنلتحق بهم.

كان الرجال يتحرّكون منتشين بانتصارهم، وبالمجهود الذي بذلوه تحت أشعّة شمس أيلول/ سبتمبر الحارقة، وسط الغبار المتناثر، والعَرَق المُتصبّب، والإنهاك الكبير.

وصل أعيان مراكش أمام خيمة العقيد مانجان المَبْنيّة تحت أشجار النخيل والزيتون. وأخذ الكلمة الحاجّ التهامي الگلاوي - الوفيّ طيلة هذه المدّة - نيابة عن الجميع، وقال: "نشكر، أوّلا، الحكومة الفرنسية، ثمّ صاحب الجلالة، والعقيد مانجان الذي حرّرْنا من الهيبة الكذّاب"، وتبادل الأعيان عبارات المجاملة. وقال الكل إنهم فرحون بوصولنا، كما نقلوا لنا رضا الساكنة. ثمّ وصل آخر الملتحقين، وهم: كابّا باشا تارودانت، وحيدة أومويس(*) "قايد" سوس ووزير حرب الهيبة. ولم

---

*) القائد حيدا بن مايس (١٨٣٠-١٩١٧): محارب قوي الشكيمة، وهو من كبار القياد، أصله من الصحراء، ينتمي إلى أولاد برحيل من قبيلة المنابهة. آخر مَن التحق بأحمد الهيبة في استعداده لمحاربة المحتلّ. فأسند له تنظيم لمحلّة. غير أنه عدل عن الفكرة، واتّصل بالحماية، وراود الهيبة على الخضوع للدولة الحامية، ليصبح رأس رمحها ضدّ حركة الهيبة. في سنة ١٩٠٢ كان ضمن محلّة السلطان المتوجّهة إلى تازة لمحاربة الثائر الروكي بوحمارة. وفي معركة بوادي تيغانيمين، قُطع رأسه، وحُمل إلى الهيبة بكردوس. وما تزال الثقافة الشعبية تحتفظ بالحدث:

يكسر هدوء الليلة بالمدينة إلا طلقات رصاص يائسة، تُعلن عن احتضار ثورة.

٨ أيلول/ سبتمبر

تجوّلتُ صبيحة هذا اليوم في قسم من المدينة المهجورة، ولاحظتُ أن الحياة التجارية لم تُستأنفْ بعد. وأطلعَ الباشا الجديدُ الحاجَّ التهامي العقيد مانجان على بعض منازله الفارهة التي اغتصَبَها رجال الهيبة، وخرّبوا كل شيء جميل فيها. فورود الياسمين أضحت ذابلة وجُرّدت من أوراقها كلها، وآثار حوافر الحيوانات فوق "الزليج" الأرضي، وأشجار السرو، والبرتقال عبثتْ بها الخيول، أمّا الجبس المنقوش، فقد سوّدتْهُ آثار الدخان والأرضية، غطّتْها الأزبال، فأصبحت مرتعاً للذباب، ومن الغرف كلها، تنبعث الروائح الكريهة.

خرجْنا إلى حديقة أگدال، حيث يترقرق الماء في السواقي بين أشجار الزيتون والليمون ... كان قصر دار البيْضا تحفة من عالم ألف ليلة وليلة، يُزيّنه من داخل الخشب المصبوغ، والأسقف المُذهّبة، والأرضية المفروشة بالرخام، والفسيفساء، وتنتصب السواري بشموخ وكبرياء، أمّا الغرف، فواسعة، يتوسّطها حوض كبير، على جنباته عربات أنيقة، بواجهات زجاجية، يبدو أنها مُعدّة لحريم السلطان.

أسيف نْ تيغانيمين، أغْ إيبي لمنشار أساطور، في وادي تيغانيمين وقع الفاس فالراس

نْغان إيكضاض لباز، أور سول كصوضن يات قتل الجّاوج الباز بلا خوف

انظر:

Marthe et Edmond Gouvion, Hubert Lyautey: Kitab Aâyane al Marhib' l'Akca; Paris-Casablanca, Coédition Geuthner-Frontispice, 2001.

٩ أيلول/ سبتمبر

ذوى البوق الفرنسي في عاصمة الجنوب بنغماته المعتادة مُعلناً وصول الكتائب المُرَتَّبَة إلى المدينة، وكانت علامات التعب، والإنهاك بادية على وجوههم نَظَراً لشحّ الماء وطول السهر، وشدّة الحَرّ. دخلوا يتقدّمهم القائد خلفه السبايسية، والقنّاصة الأفارقة، والگوميون، والرماة الجزائريون على صهوات خيول ضامرة، لكنها أنيقة. وكان معظم الجنود الفرنسيّيْن في سنّ العشرين، ثمّ ظهر السنغاليون السود الأشدّاء الذين كان المغاربة يتطلّعون إليهم باستغراب، كيف سوّلتْ لهم نفوسهم أن يكونوا حلفاء النصارى الكَفَرَة.

تجوّلت الكتائب بين الدروب الضّيّقة والعَرَصَات، لكن الأسوار العالية حَجَبَتْ عنهم رؤية القصور الكبرى، بدوا فرحين وسعداء لتمكّنهم من إخضاع هذه العاصمة. تابعهم الأهالي بتحفّظ وترقّب، وكنتَ ترى نفراً منهم يتعقّبون آثارنا بحذر شديد أسفل أسوار المدينة.

وحده الحَيّ اليهودي عَمّهُ فرح عارم، فقد ملؤوا الشرفات يصرخون ويهتفون، والنساء يزغردنَ، واعتلى الآلاف من بؤسائهم الأسوار، ليتمكّنوا من متابعة وصول كتائبنا الذي صادف اليوم الذي كان السلطان "الهيبة" قد حدّده موعداً لقَتْلهم، وتحرّروا، وأسرعوا إلى فَتْح حَيّهم الذي بقي مُغلقاً لأسبوع كامل.

الفصل الثالث
الإقامة بمراكش

مكتبة
t.me/soramnqraa

١٠ أيلول/ سبتمبر

فرّتِ الكتائب من الساحة الملتهبة لگيليز، واحتمتْ بظلّ العَرَصَات المنعشة لأگدال تحت أشجار الزيتون، والبرتقال الذي لم ينضجْ بعد، تحفّهم أشجار السرو الطويلة، يستمتعون بخرير الماء في قنوات الرّيّ، والنافورات المبثوثة في أرجاء الحديقة كلها، كان المكان مريحاً فعلاً ... وممّا زاد المنظر بهاء وسِحْراً رؤيتهم لقصر دار البِّيْضا الذي أعدّه السلطان للترفيه عن الحريم مرّة في الأسبوع، ومن وراء الأسوار العالية، رأينا الغرف ذوات الزجاج الأخضر التي أخبرنا أننا سندخلها يوم غد، وإن كُنّا نُفضّل الإقامة في خيامنا المنصوبة قرب الماء الرقراق بين أحضان الطبيعة الساحرة.

١١ أيلول/ سبتمبر

لمّا أطلقت مدفعية الخليفة مولاي بوبكر القذائفَ إعلاناً على بيعة أخيه مولاي يُوسُف سلطاناً على المغرب سِيء فَهْمها، فتحرّك الناس في كل اتّجاه، وعمّ جوّ من الهلع، وتجمعت الحشود مشكّلة خطراً، لا يمكن تجاهله اعتقاداً منهم أن الهيبة قد عاد من جديد. فالناس مازالوا يؤمنون ببركة "المُطالِب بالعرش"، وأن نبوءته بطَرْد الفرنسيّيْنْ والتنكيل بهم واقعة

لا محالة. فأُعطيت الأوامر بتشديد الحراسة على دار البِّيْضا، كما عُهد إلى حمية صغيرة بحراسة المؤونة، بينما اتّجهت الكتائب صوب الجماهير المحتشدة للسيطرة على الوضع، وتلقّى الأوروبيون العائدون من الساحل الأمر بعدم الدخول إلى المدينة، والبقاء في معسكر أكدال. وجاءتْنا الأخبار بتعرّض بريدنا الذي يحمل رسائل إلى فرنسا قد سُرق البارحة بالرحامنة، فذهب طابور بقيادة العقيد سافي لاسترجاعه.

١٢ أيلول/ سبتمبر

ها نحن، الآن، مستقرّون في هذا القصر الجميل مثيرين حسد باقي الأوروبيّيْن. نستمتع تحت أسقفه الرائعة، وبين جدرانه المغطّاة بالزليج المزيّن بالفسيفساء، أمّا الأرضية، فأنيقة لبراعة هندستها ونظافتها، أما الغرف، فكانت فسيحة وقليلة الإضاءة، والتهوية، لأنها كانت بمحاذاة الأسوار العالية المُذهّبة، أبوابها عريضة، وأقفالها قوية، وبين الجدران العريضة "مقابر". واختارت اللقالقُ القرميدَ الأخضر، لتبني أعشاشها قرب الكرات المُذهّبة لأبراج الحَرَس. وبينما كُنتُ أكتشف مَرافق القصر، لاحظتُ شبكة ريّ مُحكَمة، تُغذّيها خزّانات ماء، بُنيت في الفترة التي عَرَفَتْ فيها مراكش ذلك الحصار الرهيب. وتفصل بين أطراف هذه الحديقة الكبيرة سطور من: الزيتون، والليمون، والمشمش، وعلى الجوانب أشجار السرو بلونها الأخضر المائل للسواد، ورأيتُ عجائز زنجيات يرعينَ الأبقار في الأعشاب بين السواقي العريضة، والحجل الأحمر، ونقّار البقر تحطّ فوق أزهار الرّمّان. يشرف على تسيير شؤون أكدال، وصيانته مغربيّ محطّ احترام وثقة، يسهر على حراسة الغرف العديدة المتباعدة، ومخازن السّكّر، والذخيرة "الرصاص"، والمطاحن، ودار البارود، والمحلات الصغيرة المُعدّة للاستراحة أو الصلاة ...

وكان قصر دار البيضا مهجوراً، حديقته مُعتنى بها أكثر من غرفه الخربة والمتّسخة بذرق الطيور الليلية، أمّا أحواض الساحات، فجافّة. وصرّح "لامين" وهو مُوظّف لطيف، ومتحمّس أننا إذا تمكّنّا من إحياءِ سبع سواقٍ فقط، يمكن إرجاع الحياة لكافّة المغروسات، كما كان الشأن في عهد مولاي الحسن ...

ترى متى سنصعد مرتفعات "الأطلس" الضخم؟ فرغم علْمنا أنه قريب إلا أنه بدا اليوم غريباً وسط هذا الحجاب من الغيوم التي تلفّه.

جلتُ على صهوة جوادي أرجاء المدينة كلها، ولاحظتُ أن الناس أقلّ تعصّباً، وعودة النشاط تدريجياً للأسواق، والأحياء جميعها منظّمة، فهذا: شارع الفخارة "الفخّارين"، شارع الحدادة "الحَدَّادين"، شارع النِّجارة "النّجّارين"، شارع صنّاع السروج والطواحين، شارع العِطَارة "العطّارين"، وبائعي الأعشاب "العشّابين" وبائعي الفواكه، وتجّار البلاغي "البلايغية". والممرّات التي تُباع بها قِطع النسيج، وخيوط الحرير، والأواني النحاسية ... ذلك كله بفضل النظام المُحكَم لرجال الباشا ومساعدي الأمين المُكلّفين بحراسة السوق وتسيير شؤونه. راقني استواء "الأرائك"، وزينة جوانبها النحاسية، أمّا الخناجر والأسلحة، فقد عُني بنَقْشها أيمّا عناية، كيف لا، ومراكش مشهورة بحذق صانعيها وجودة صناعتها؟! لا يمتلئ السوق عن آخره إلا في نهاية الفترة الزوالية بعد أن تصل السلع المتدفّقة كلها من ضواحي المدينة. وكم هو رائع وجميل رؤية التّجّار الممدّدين وسط أكوام اللوز، والجوز، والزيتون. ولا يفتح سوق النخاسة إلا عند غروب الشمس، وقيل لنا إنه يقام مرَّتَيْن في الأسبوع. يُشترَى الزنجي ذو العشر سنوات في هذه السوق بثمن يتراوح بين مائَتَيْن إلى ثلاثمائة فرنك.

١٤ أيلول/ سبتمبر

بدأت أوّل أمطار السنة في الهطول، وغمرت المياهُ حدائقَ أگدال، كما دخلتْ عبر شرفات القصر إلى الغرف المهجورة. بدأ موسم الحرث، فهل سيلتحق الأهالي بحقولهم، وينسون أحقادهم؟

كانت الأوضاع السياسية في الشمال هادئة. وشرع قسم من الرحامنة حلفاء الهيبة بسيدي بوعثمان الذين سبق أن واجهناهم بسوق الأربعا في الخضوع. لكن طائفة منهم مازالت تؤمن بقدرة الهيبة على إتيان الخوارق، والعودة من جديد، فواصلتْ تحرّكها بشيء من الحماس والاندفاع بالجنوب. فكُنّا بدورنا متيقّظين، وأخذنا الإجراءات الاحترازية اللازمة كافّة، بما في ذلك تعزيز وتحصين معسكرنا، وصيانة المدافع القديمة والعصرية، لجَعْلها قادرة على صَدّ هجمات الأعداء.

الأحد ١٦ أيلول/ سبتمبر

استبشرْنا بتمكّن العقيد سافي من السيطرة النهائية على الرحامنة كلها ببنگرير. ولا شكّ أن وصول Gueydon de Dives(*) بطابوره إلى هذا المركز قد أبهرَهُم. وممّا زاد من اطمئناننا هي المساعي التي كان يقوم بها الشريف العمراني عند قسم كبير من دكالة، ليُقنعهم بالاستسلام، وهو الدور نفسه الذي اضطلع به "القايد" العيادي في الرحامنة، و"القايد" سيدي محبوك مع قبيلة أحمر، وإلحاح أخ السلطان مولاي بوبكر على الگندافي ليتحلّى بالصرامة والحكمة اللازمين للسيطرة على تابعيه.

---

*) العقيد غيدون دو ديف Le colonel Gueydon de Dives: تألّق نجمه في الحملة على المغرب ما بين سنة ١٩٠٧ . ١٩١٤، وفي معركة الهْري.

أهمّ ما في الأمر أن أصدقاءنا تمكّنوا من ضَبْط قبائلهم، وإن كان موقفهم منّا يكتنفه كثير من اللَّبْس، فهم يحترموننا لنفوذنا ومالنا، بقدر ما يحتقروننا، لأننا، في نَظَرهم، كفّار.

إن ما كان يهمّنا هو كسب ثقة هؤلاء الزعماء القادرين وحدهم على التّحكّم في الأهالي وولائهم، لذا كُنّا نتحاشى الخوض في المسائل الدِّيْنية، فنجاح العملية مقدّم على أيّ اعتبار آخر. وقد بلغَنا أن مولاي حفيظ ناقشَه علماء من طينته في إحدى الجلسات العلمية في مسألة هل يحقّ للكافر أن يقرأ كتابنا المُقدّس(القرآن) ...؟

١٧ أيلول/ سبتمبر

مراكش، في نَظَر المغاربة، عاصمة المُجُون والفُسق، لاسيما بعد أن خضعت للرجال الزرق الذين ارتكبوا فيها الفواحش غير مبالين بقيمتها ومكانتها، لأنهم بَدْوٌ أجلاف آتون من الصحراء، لا عهد لهم بالحضارة [٦٣]، فقد عبثوا بالقينات، وجعلوا الزنوج يصبّون فوقهنّ العطور، بينما هم يَتْمُلون، ويُدخّنون، وقُدوتهم في ذلك الهيبة الذي كان يُحيط به الحسناوات، ويستمتع بهنّ، لأنه لم يكن له عهد بذلك.

١٨ أيلول/ سبتمبر

دعانا ابن مولاي رشيد للغداء، وهو قريب للسلطان، أخ سيد تافيلالت، أسود البشرة ذو ملامح زنجية أسيل، بشَفَتَيْن غليظَتَيْن، وأنف "قوي"، غليظ الجسم، بلحية سوداء، لا تكاد تُخفي الندوب السّيّئة للجدري، ومع أنه

شَبَقي، وماجن، وذو إحساس مرهف، لكنه يُضمر الحقد، وبريقُ الخبث يشعّ من عينَيْه، وأنفه "المقروص" ينطق بالمكْر والدهاء والسخرية.

وتوالت أمامنا الأطباق المغربية الشهية: الخروف المشوي، والدجاج بالسَّمْن المُذاب، واللوز والحمام المَحشي، وأطباق الزيتون، والماء المنسّم، والخبز باليانسون. وختم الكسكس بالبصل والحمّص. أمّا الفجل المخلّل، والقَرْع بالفلفل الأحمر، والبادنجان المبلّل بالزيت المملّح، والمحلّى، فلم نستسغ مذاقها. ونحن نتناول من طبق الفواكه، حدثنا الشريف عمّا عاناه من جور "السلطان" وشَطَطه في استغلال القصر ونَهْب خيرات رجاله في البوادي. ثمّ تمدّدْنا فوق لحائف سميكة، واتّكأنا على وسائد مريحة، وأخذْنا نجيل أبصارنا في زوايا الغرفة المُزيّنة بالنقوش والرسوم الجبسية.

غريب أمر هذا البلد، فالديكورات هي هي حيثما اتّجهتَ، الناس يختلفون دائماً، خَدَم مغاربة، وزنوج بنصف ضحكة، أو ربمّا تقرأ على وجوههم مرارة الاحتقار، لأنهم لا يأكلون إلا ما يفضُل عن الأسياد الذين لا يكفُّون عن هَمس بعضهم لبعض بالإعجاب عن خفّة خدّامهم وحذقهم.

نال شرف إعداد الشاي المنعنع لهذا اليوم ولد مولاي رشيد بقامته الطويلة، وأنفه الغليظ، والمتحدّث بأنفة وشموخ. كان الشريف يتكلّم من أقصى الغرفة، على عادة المغاربة، بأعلى صوته، ليتولىّ المترجم إبلاغ ما يقول لضيوفه الفرنسيّيْن.

اختار مولاي رشيد التّحدّث عن الوفد الذي بعثه إلى المقيم العامّ، وقال إن ابنه سيلحق به رُفقة مستشار حكيم، لأنه صعب المراس وغِرٌّ لا يُحسن التّصرّف في هذه المواقف غير المعتادة، ولم يحظَ بمثل هذه الفرصة الجميلة. وقال: "سأقدّمه لكم"، وما إن أومأ إلى خادمَيْن، أحدهما أسود مشوّه الملامح، والآخر

زنجيّ صغير، لكنه رشيق، حتّى أسرعا في لمح البصر بين ممرّات الطابق الأوّل، ثمّ عادا، يتبعهما شابّ، يبلغ من العمر ثماني عشرة سنة، جمع بين الجرأة والاضطراب في الآن نفسه، شبك بين أصابعه دون أن ينبس ببنت شفة، فنهره أبوه قائلا: "اِذهبْ". فانحنى، وأخذ بلغته التي تركها أمام الغرفة، واختفى، ولم يدمِ التقديم سوى دقيقَتَيْن.

استاء الأوربيون من الأسلوب العنيف الذي يُعامِل به المغاربة أطفالهم الذكور، لكن الشريف بدا أكثر سلطوية واستبداداً. وبعد شرب كؤوس الشاي الثلاثة المعتادة، قُدّمت لنا قهوة رديئة، لم تزدْها نكهة ماء الورد التي مُزجت بها إلا سوءاً، وبعد أن أداروا كؤوس العنب مع محلول الرّمّان، استأذَنّا، وانصرفْنا.

١٩ أيلول/ سبتمبر

لمّا دعانا الحاجّ التهامي لتناول العشاء، سلكْنا، عند مغرب الشمس، الدروب المهجورة بين الأسوار الطينية التي تخفي وراءها أسرار الحياة العربية، يتقدّمنا خَدَم حاملين فنارات مزيّنة بالزجاج، وبين الفينة والأخرى تنتفض خيولنا، لتتخلص من رذاذ الضباب الذي ينزل تحت ضوء القمر، وكان المرشدون يقظين حتّى لا يقع أحدُنا في إحدى الآبار، أو قنوات السَّقْي المهترئة تحت الأقبية "الصابات".

وجدْنا أنفسَنا بين أحضان الورود والياسمين، والنافورات الرخامية والأحواض الزليجية، تبعْنا "المصابيح" الزجاجية المضيئة فوق الأسقف القوية بين الأشجار، فقادتْنا إلى القاعة الكبرى المُعدّة للضيوف، بجدرانها المغطّاة بالزرابي الفارسية، وسقفها من خشب الأرز المصبوغ، أمّا الرفوف،

فمن خشب الأبنوس المُذهّب، ويتوسّط القاعة سرير، يُغري بالتّمدّد والاسترخاء، تلك كانت هي محتويات الغرفة المفروشة باللحائف العريضة والمخدّات الوثيرة.

دُعينا، بعد فترة انتظار قصيرة، لعبور الحديقة من جديد صوب قاعة الأكل، حيث وجدْنا في انتظارنا مائدة كبيرة، أُعدّت على الطريقة الأوروبية: الأطباق كلها شهية، والخمور رائعة وسط الورود المتناثرة فوق منديل رائع، لُفَّ في مزهرية من فضّة. جلسْنا فوق طنافس جِلْدية، وتناولْنا العشاء في هدوء وسكينة، يغمرنا جوّ من الارتياح، بينما بقي المضيف – كالمغاربة جميعهم - على مسافة بعيدة من مَدعوّيه.

للحاجّ التهامي ذو السحنة وجه نحيف، وجبهة شامخة، وتقاسيم تنمّ عن ذكاء وألمعية، وأسفل العمامة تنسدل خصلات شَعْر إلى وجنتَيْه المحفورَتَيْن، كانت نظراته حادّة، يصف بصوت خافت مجاملاً فعالية مدافعنا، وكيف قتلت قذيفة واحدة منها سبعة رجال بسيدي بو عثمان، كما مزّقت أخرى فارساً، فَأَحَالَتْهُ أشلاء مبعثرة، ولم تُبقِ منه سوى رِجلَيْن بخُفَّيْن أحمرَيْن. تظاهرْنا بالاهتمام بتلك المداهنة التي لا تنطلي على أحد.

لمّا انتهت وجبة العشاء، عدْنا إلى غرفة الاستقبال الأولى المغمورة برائحة البخور الطّيّبة، وممّا زاد من سِحْر الليلة تلك الأهازيج العربية، والبربرية الصادحة في جوّ لطيف ودافئ ... رجعْنا إلى قصر دار البيضا وسط الدروب الميّتة، والممرّات الصامتة للحديقة، ثمّ أخلد الجميعُ لنوم عميق.

٢٠ أيلول/ سبتمبر

ما زال الهيبة بتارودانت يحظى بـ "التقديس" والاحترام نفسَيْهما، وما

زال بإمكانه تعبئة وتشكيل جيش في سوس بسهولة وسرعة .. ترى ماذا يخفي الأطلس وراءه؟وما الذي يُخبّئه لنا المستقبل؟ هل يحيك الهيبة ضدّنا مؤامرة في سهل مراكش؟ أم ترانا سنطارده بقُوّة خلف الجبل في تارودانت؟ أم أنه سيلجأ يائساً إلى تافيلالت؟ أليست المفاجآت هي الأروع في هذه المغامرات الحربية التي نعيشها على هذه الأرض؟

٢١ أيلول/ سبتمبر

يرجع أصل ماء العينَيْن بن محمّد فاضل إلى الحوض في الصحراء التي تحدّ السنغال بين تومبوكتو وموريتانيا، وتراجع الهيبة بن ماء العينَيْن بعد انهزام أبيه بأدرار سنة ١٩٠٩ على يد العقيد گورو مع أتباعه إلى الساقية الحمراء، ومنه شمالاً إلى تيزنيت، وانتظر هنا رخصة الإقامة التي منحَها إيّاه مولاي حفيظ(*) الذي لم يحترم المواثيق الدولية التي تحرم مَنْح اللجوء لأعداء القُوّات الصديقة. وكان من رفاقه أحمدو أمير البراكنة، وأمّ ولد عيدة، وأمير أدرار، ومحمّد المختار زعيم كنتة الخائن سنة ١٩٠٥ بنيلمان Niemilan، حيث سقط الملازمان Andrieu وFranssu. وبعد أن استرجع أنفاسه بتيزنيت، ولاحظ غياب أو شبه غياب للسلطان، طمع في تنصيب نفسه أميراً على جنوب المغرب. وبعث من تيزنيت خليفته مرفوقاً بالحَرَس إلى الباشا كابّا (**)بتارودانت. ليقرّر فيما بعد الانطلاق بنفسه على طول الساحل عبر بلاد شتوكة،

---

*) السلطان مولاي عبد الحفيظ (١٨٧٦-١٩٢٧)، السلطان الشاعر والعالم المشارك والمؤلّف، تنازل عن حكم المغرب في معاهدة فاس لأخيه يُوسُف بن الحسن. وتُوفيّ في منفاه بفرنسا. انظر:

Issa Babana El Alaoui: "Moulay Hafid (1908-1912)", dans: Histoire de la dynastie régnante au Maroc, Paris, Fabert, 2008.

**) الباشا كابا قتله جيش الهيبة، وعلّقوا رأسه بأساراك في تارودانت.

إلى أن وصل إلى سوق اثنَيْن أولاد تايمة، فأقام هناك لوقت طويل. وما إن قرّر، فجأة، التّقدّم شمالاً حتّى التحق به خليفته، فعبرا الأطلس عبر ممرّ أمسكرود، دون أن تعترضهم قبائل متوگة، كما كان متوقّعاً، فواصل طريقه إلى خميس أركانة، ثمّ إمنتانوت، ليتّخذ من سيدي المختار محطّة للتّوقّف عند يرعا شيخ أولاد بو السبع.

وسرعان ما تحرّك قُدُمَاً إلى أن استقرّ مرّة أخرى بزاوية تامصلوحت، فاكتسب سمعة طيّبة في المغرب كله، نَظَرَاً لِنَسَبِهِ الشريف، لم يعدْ يفصله سوى نصف مرحلة عن ساحة المنارة الموجودة غرب مراكش آخر مرحلة للهيبة قبل أن يدخل عاصمة الجنوب يوم الثامن عشر آب / أغسطس، أمّا خليفته، فقد سبقه إليها ببضعة أيّام.

إن تحرّكات الهيبة والمعلومات التي رافقتْها كانت غير دقيقة، لأن الخيول التي كانت في موكبه تتحرّك في كل اتّجاه، وحدهم الأوفياء كانوا يعرفون أماكن معسكراته. حيثما ارتحل الهيبة، يستقبله الناس بحفاوة واحترام، عزّ نظيرهما، أما هو، فكان كلامه مزيجاً من الادّعاءات والأصاليل، كزعمه الانتساب إلى ابن ماء العينَيْن الذي كان له في نفوس المغاربة جميعهم كامل التقدير والاحترام، وكان فيما ادّعاه أنه حوّل مجموعة من المسيحيّيْن إلى سلاحف. وبعد أن انهزم أمام الفرنسيّيْن، ولّى هارباً بعد أن نهب المدينة، وعاث فيها فساداً، وسلك الطريق الجبلية مع ألف من الفرسان، وألف وخمسمائة من المشاة، إلى أن وصل قصبة الگندافي، فاستقبله خوفاً منه، لا ترحيباً به وقبل أن يغادرَه في اتّجاه وادي سوس ترك عنده بعض أمتعته، ليستقرّ أخيراً بتارودانت، وكان أوّل ضحاياه العجوز الباشا كابّا الذي قطع رأسه تنكيلاً به لموالاته للفرنسيّيْن، وتأييدهم لدخول المغرب.

٢٢ أيلول/ سبتمبر

كشفتْ لنا اليوم هذه المدينة "البطلة" مراكش عن سِحْرِها وأسرارها، فكانت خيولنا تتحرّك بانتظام في شوارعها، وسط ذهول النساء المحتجبات واستغرابهنّ، وهنّ يرينَ النصارى داخل أسوارهنّ، بينما يجلس الرجال القرفصاء أمام المنازل تحت ضوء فناراتنا، يستمتعون بهدوء الليل. وكانت أنوفنا تلتقط الروائح الفوّاحة من حيوك النساء المهرولات إلى إحدى البيوت التي تقيم عرساً. ملأ هدوءَ الليل الزغاريدُ ممزوجة بنكهة النعناع المنبعثة من أباريق/"براريد" الشاي. كُنّا نتابع باشتهاء الفواكه الكثيرة المتنوّعة، من رمّان وعنب بنوعَيْه الأبيض والأسود، وليمون أخضر "الحامض"، وثمور صفراء "أبلوح"، ولمّا أمرَنا مرشدونا بالتّوقّف، امتثلْنا بهدوء وانضباط أسفل قبو "صابة" مظلم بحَيّ مهجور، ليقودَنا درج ضيّق، إلى غرفة كثيرة الأضواء، وبجدران مَكسوّة بأثواب ناصعة، تفصل بينها نقوش جبسية، أمّا السقف، فزُيّن بالخشب المصبوغ. وما هي إلا لحظات حتّى جِيء بوجبة عربية، تبعتْها ثلاث قينات "شيخات" أسفل شرفة البيت، يرتدينَ قفاطين غليظة بأكمام عريضة، وأحزمة من الجِلْد مخيطة باللون الأزرق، ويضعنَ فوق رؤوسهنّ مناديل حريرية، تستر شُعُورهنّ، وتتدلّى من آذانهنّ أقراط فضّيّة، كانت وجوههنّ ذابلة، و"باردة"، وغير مُعبّرة، يتحرّكنَ فوق الزرابي الحريرية الخضراء بأجسامهنّ المكتنزة. وشرعنَ في الغناء على إيقاعات "الطعاريج" المُذهّبة .. بدت إحداهن بملامح عربية، بوجه مستدير شديد البياض، وذقن ممتلئ، نظراتها توحي بالحدّة والصرامة والغطرسة، بينما كانت الثانية فتاة بربرية، تبلغ من العمر خمس عشرة سنة، بوجه نحيف، وأنف رقيق وطويل، وعينَيْن واسعَتَيْن، وفَكّ "رقيق" مُزيّن بوشوم، تتدلّى إلى العنق، نظراتها مزيج بين الرعب والابتسام المفتعل. أمّا ثالثتهنّ، ففي العقد الثاني من عمرها، بجسم ممتلئ وسحنة صفراء، وأنف قصير، تحمل

ملامح يابانية، تنطق بالوداعة والهدوء ... يتوسّطهنّ عازف كمان، كنّ يرسلنَ صيحات موحّدة بنبرات حادّة كأصوات الأطفال. وقبلنَ دعوتنا إلى مائدة العشاء بتحفّظ، لكنهنّ بعد أن أحسسنَ بالأمان ضحكنَ ملء أفواههنّ، واستمتعنَ برفقتنا، وبعد الفراغ من الأكل، عدنَ إلى الموسيقى، والغناء، فأخذنَ يُردّدنَ بعض اللازمات من قبيل:

- مات على عنقي

- عندي حبيب ما بغيت مخازنية الباشا يشدوه

وكنّ يتبادلنَ نظرات مضحكة. وبعد ذلك، قُدّم النبيذ، والشاي، والقهوة، وكثر الصخب في هذه الأجواء. وبإشارة من المضيف، توقّف العزف. وأطفأ خادم غير معروف الأضواء، وعمّ المنزل الكبير الهدوء والنوم.

٢٤ أيلول/ سبتمبر

استقبلَنا المتوكّي، اليوم، في داره بالكتبية وسط حدائق الليمون والرّمّان المسيّجة بأشجار السرو السوداء العالية، كأنها حَرَس من العبيد، تحرس الورود المبثوثة في كل مكان ... وهو شيخ عجوز معكوف الكتف تماماً، تخطّ التجاعيد وجهه، وعينه اليسرى نصف مفتوحة، برّاقة وهادئة، ولحيته بيضاء مخضّبة بالحنّاء، مشدودة إلى فَكّ، يتحرّك في كل اتّجاه، لكن ذلك كله لم يُفقده حيويّته كما أن ملامحه توحي بالغضب والتضايق، وابتسامته أقرب إلى تكشيرة مخيفة.

يتّهمه أعداؤه بأنه كان صديقاً للهيبة، لأن وحداته العسكرية لم تعترضْ سبيله، وتمنعه من اختراق الجبل، والوصول إلى مراكش. لكنْ، لِمَ علينا

الحذرُ منه؟ وماذا قدّمنا نحن له من عون؟وهل هو مجبور على نصرتنا؟ هذه الأسئلة كلها تُفسّر الاستقبال البارد الذي خصّنا به.

حرصْنا على إنهاء الوجبة بسرعة، لتبديد هذا الفتور في اللقاء، الواقع أن المتوگي كان متوجّساً من أن يأسره الهيبة رهينة بمراكش، لذلك اختار الانضمام لصفّه، ويستأذنه في اللحاق بقبيلته. لكنه بعدما اطمأنّ استرجع العجوز ثقته بنفسه. ولمّا علّق أحدهم قائلاً: أما كان المتوگي سيَلقى مصير باشا تارودانت الذي قطع رأسه لتعاطفه مع الفرنسيّيْنْ؟ فردّ الداهية: هذا ليس وقت الحديث في السياسة أمام هؤلاء الناس كلهم".

ونَظَراً لما كان للمتوگي من نفوذ على سهول تانسيفت إلى جبال الأطلس، ومن مراكش إلى أبواب آسفي، والصويرة، وأگادير، فإننا لايمكن أن نستغني عن خدماته، وتوظيفه.

٢٧ أيلول/ سبتمبر

يُعقَد سوق النخاسة بمراكش مرّتَيْن في الأسبوع على الساعة الرابعة صباحاً في ساحة مُربّعة محاطة بالمُتسكّعين؟بتصميم أفريقي، وأرضية مَكسوّة بأسقف من الطين، تذكر العبيد بالبلد الذي كانوا ينعمون فيه بالحُرّيّة، ولا يمكن الوصول إلى هذا السوق إلا عبر طريق مُوحِلَة. وعلمْنا أنه يُخصَّص صباحاً لبَيْع الصوف، بينما يتحوّل مساء للمزايدة على العبيد. وهي عادة قديمة، يصعب تغييرها، لكننا سنعمل جاهدين على مَنْعها عند بَسْط سلطتنا.

دفعَني الفضول للتّعرّف على كيفية بَيْع هذه القطعان البشرية عن قرب – قبل أن يختفي هذا السوق - فاصطحبتُ أحد الأصدقاء،

وفُوجئتُ لمّا وجدتُ كثيراً من الأوربيّيْن قد سبقونا إليه، يحذوهم الفضول نفسه. ولخوفنا من أن "يتكسّر" السوق كما يقال هنا. ذهبْنا تحت حراسة خاصّة، كما وجدْنا فرساناً عند مدخل الزقاق، يرافقون ضبّاطاً وسط المغاربة غير المبالين، يُزايدون على شراء عبد، أو يعلنون رُسُوَّ ثمن على آخر ... وكم كان حنق وامتعاض أحد جنود البامبارا الرائعين الذي كان يلازمني وهو يتابع إخوته السود يُباعُون كالبضائع، وأردْنا أن نتأكّد من الباعة هل يعقل أن يكون هؤلاء العبيد كلهم من السودان "جنوب الصحراء".

من بين العبيد المعروضين للبيع زنجيّتان في سنّ الثامنة عشرة في هيئة رثّة، وشَعْر أجعد وقصير، ألبسوهما بلغَتَيْن مطروزَتَيْن، وقميصاً أبيض، حُزم بقطعة ثوب زرقاء، وقرطَيْن طويلَيْن متدلّيَيْن، تنظران إلى الأرض، كأنهما تعدّان خطوات الدَّلاَّلِ الذي يتوقّف، أمّا المزايدون وهم يفْحصون الصَّدْر، والسيقان، والظهر، والأسنان ... كما أثارت انتباهي فتاة في السادسة عشرة من عمرها، تحمل ندوباً خَلَّفها الجدريّ، تحملها ساقان واهنتان، لكنها أثارت اهتمام المشترين بنهدَيْها الكاعبَيْن تحت قُماش رقيق، وكأترابها من سوس تتكلّم العربية ... بينما بقيت فتاة أخرى لا تكاد تتجاوز العشرين دون مساومة من أحد، لدمامة وجهها، وقبح منظرها، وغور عينَيْها. ومن الزنوج المعروضين للبيع أيضاً طفلان، أحدهما ابن عشر، والثاني لا يتجاوز عمره ستّ سنوات، استقرّ ثمن كل واحد منهما على مائَتَي فرنك.

خرجنا متذمّرين من تلك المشاهد، لكنْ، متأكّدين أن لا زنوج من السودان "جنوب الصحراء"، معروضين للبيع، إن مثل هذه السوق لم تعد قائمة في الصحراء، لذلك فإن مشروع إلغائها ومنعها، سيُسعدنا كثيراً.

٢٧ أيلول/ سبتمبر

سمعْنا عن تقدّم الهيبة في سوس، وسيطرة حَرَسه الأمامي على "مضيق" أمسكرود الأهمّ في الأطلس، وحتّى يخيف "قياد" الجنوب المتردّدين أقدمَ على إسقاط رأس جديد، وهو "القايد" عبد السلام الجراري.

وانتشر خبر عزم الهيبة على معاودة الهجوم، فأثار الرعب والفزع في ضواحي مراكش. إن مثل هذه "الحركة" في المغرب ذات لَبوسٍ إرهابيّ وعصبية قومية ودِيْنية، لأن الحقد والتّعصّب يختلطان بالدِّيْن عند المسلمين.

٣٠ أيلول/ سبتمبر

تمتدّ جنوب مراكش حديقةُ أگدال التابعة لقصر السلطان، وهي تزخر بأشجار الليمون والزيتون وأخشاب من النوع الرفيع، أراضيها كلاه مَسقية وخصبة، تُدِرُّ على السلطان سنوياً مائتَيْن وخمسين ألف فرنك. وتُقدّر مبالغ مداخيل المخزن بمعدّل سنوي، قدره ثلاثة ملايين فرنك.

قرّرتُ صباح هذا اليوم زيارة إحدى هذه الملكيات: إنها المنارة، حديقة توجد على بُعْد نصف مرحلة من المدينة، في منبسط كثير الحصى أشبه ببحر هادئ، وقطعتُ عَدواً على صهوة جوادي هذه المساحات وسط "الخطارات" التي تُخزّن فيها المياه المنحدرة من الجبال، لتزويد المدينة، وسقي الحقول. كانت المنارة واحة خضراء وسط منبسط فسيح أحمر.

فتح أحد الحُرّاس السود الباب الكبير أمامي، ورأيتُ طيور الحجل الحمراء الأليفة تتحرّك بين أشجار الزيتون النضرة، وطيور البلشون تعلو

أشجار السرو، كأنها تحرس قطعان البقر والخيول التي ترعى في هذه المروج الواسعة .. يتوسّط الحديقة منزل مسقف بالقرميد الأخضر خلف حديقة من الورود وأشجار اللوز والجوز ونبات "إبرة الراعي".

كان المكان مُريحاً ومُنعِشاً. زاده روعة حوض، اتّخذت منه طيور الإوز مسبحاً لها، وقبل أن أغادرَه، قطفتُ باقة من الورود طيّبة الرائحة، ومختلفة الألوان.

١ تشرين الأول/ تشرين الأول/ أكتوبر:

اصطفّ آلاف الفرسان، تتقدّمهم أعلام حمراء وبيضاء صباح هذا اليوم لاستقبال الجنرال ليوطي. كما وقف حَرَس الباشا الحاجّ التهامي المُكوّن من خمسمائة مغربي مُسلّحين حديثي العهد بالجندية، بألبسة رديئة عبارة عن سراويل "رمادية" ومعاطف تميل إلى الصفرة، تعلو رؤوسهم قبّعات قرمزية اللون على جانبَي الطريق، يُحيّون بيد، ويُمسكون بأخرى البُندُقيّة ... بأجسام ملتوية، كأنهم ثمالى، أويغالبهم النعاس!! يتقدّمهم القوّاد بشاشيّاتهم الحمراء الأرجوانية المعصوبة بالعمامة البيضاء، يُحيّون بحركة السيوف والبطون المنتفخة. وعزفت فرقة موسيقية، تحمل أبواقاً وطبولاً استعداداً لاستقبال القائد الفرنسي الكبير، وهي الفرقة نفسها التي استقبلتْنا عند دخولنا مراكش، وتقوم اليوم بدور شرطة المدينة.

سَطَعَتْ أشعّة الشمس على أسوار المدينة، وقرميد بناياتها، وجوامير مساجدها المُزيّنة بألوان الزليج المختلفة. أثارتْ حوافر آلاف الخيول الغبار تحت أشجار النخيل تأهّباً للانطلاق نحو قنطرة وادي تانسيفت، حيث سيكون الاستقبال. يبدو أن المياه المنسابة من الأطلس بسرعة وزخم، ستملأ الوادي حتّى يفيض على الضّفّتَيْن.

Voir page 100.

ENTRÉE A MOGADOR

Voir page 108

LA CASBAH D'ANFLOUS
(Colonne de Mogador)

وصل الجنرال. وحُيِّيَ القائد الصلب بحرارة الضّبّاط الذين دخلوا مراكش. ومن أجل الإعلان الرسمي لدخول مراكش، تقدّمت أربعة سيّارات رشّاشات، وسيّارتان مَدَنيّتان، وهما أوّل سيّارات من هذا النوع وصلت هنا إلى مراكش لعبور القنطرة. وكانت الفِرَق العسكرية الساهرة على استتباب الأمن قد أمّنتِ الطريق عبر ممرّات النخيل.

واصل الموكب تقدّمه نحو المدينة، في جوّ من البهجة والفرح تحت شمس دافئة، وسماء زرقاء صافية، وفي الأفق تبدو قِمَم الأطلس مَكسوّة بالثلوج الناصعة، تتابع قدوم جيوشنا المنتصرة.

ها نحن في حدائق أكدال المحصّنة، نسمع خرير المياه في السواقي، وأشجارالسَّرْو، والزيتون، والبرتقال، تكتنف القصور المتوارية وراءها. يا لمتعة هذا السَّفَر! ويا لسِحْرِه! ولا يُقَدِّرُ هذه الفتنة إلا مَنْ كابد جفاف الصحراء وقسوة الجنوب!

٩ تشرين الأول/ تشرين الأول/ أكتوبر

علّق المقيم(*) وسام شرف ضابط على البرنوس الأبيض للقائد البربري: سي المَدَني الگلاوي - الصدر الأعظم السابق لـ "مولاي" حفيظ - وسط تبادل نظرات الارتياب. أمّا العقيد مانجان، فقد تكلّف بتعليق الوسام للحاجّ التهامي الگلاوي الباشا الجديد لمراكش، فله على الفرنسيّيْن يد بيضاء، فهو مَنْ كان وراء إنقاذ مواطنينا الذين أسرَهُم

*) الملاحَظ أن النقيب كورني لم يتحدّث عن استقبال المراكشيّيْن لليوطي، ولا عن الأسبوع الذي أعقب وصوله. فلربّما لم يحضر المقابلات التي خصّ بها ليوطي المسؤولين القادمين من الرباط صحبة القنصل ميغري والعقيد ماجان والعقيد سافي والعقيد جوزيف. ولم يستأنف كورني مَحكيّه إلا يوم تاسع ذلك الشهر.

الهيبة. ولمّا أشهر الجنرال ليوطي السيف لتحية الجنود الجدد، أُصيب المَدَني بذُعر.

١٠ تشرين الأول/ تشرين الأول/ أكتوبر:

نصف أراضي المدينة ومبانيها في ملْكية الحكومة المغربية. وبعضها فُوِّتَ لخدّام الدولة، إمّا بشكل نهائي، أو طيلة مُدّة خدمتهم. ويملك السلطان ممتلكات، تخصّه وحده، وله الحقّ في امتلاك ما يشاء، ويتركها لمَنْ يخلفه.

بدّد مولاي حفيظ الكثيرَ من هذه الممتلكات، إمّا ببيعها، أو إعطائها لعلية القوم، أو لأجانب، يُؤمِّنون حمايته. ويوجد بمراكش كما في باقي مُدُن المغرب أمين "محافظ" يُحسن خُدّامه تدبير هذه الممتلكات، لكنْ، فيما بينهم دون غيرهم.

قُلِّد الجنرال ليوطي، صبيحة اليوم تحت أشعّة الشمس وحراسة القِمَم الثلجية الرائعة للأطلس، برَبْطةِ عنقِ الكتيبةِ الشرفية للعقيد مانجان المنتصر في مراكش، وسط الكتائب العسكرية. واستُعرضت أمامه بطولات القنّاصة الأفارقة، والسبايسيّيْن الحمر والگوميّيْن البيض وتحرّكهم البطولي ضدّ الهيبة، ففاضت مشاعرنا الجيّاشة، ونحن نستعيد تجربة النصر البطولي .. كما تحدّث الجنرال ليوطي في حفل الاستقبال عن الانتصار الرائع في سيدي بوعثمان، والمطاردة إلى مراكش، وتحريرها، وقال: "عندما رأيتُ سوق الأربعا، شاهدتُ المجموعات العسكرية مدرَّبة، ومتحمِّسة، وقائدهم حازم، كُنتُ متيقِّناً من النصر، لكن النتائج فاقت التّوقّعات جميعها، كان النصر نهائياً، وأُحيّي العقيد مانجان الذي جعل الديك يصيح مُعلناً عن طلوع الفجر، ذلك الصياح الذي لم نسمعه منذ زمن بعيد".

١٣ تشرين الأول/ تشرين الأول/ أكتوبر

أشرقت شمس صبيحة هذا اليوم وسط سماء صافية بعد ليلة ماطرة، عبثت بالأسقف المرمرية للقصر، وبدا في الأفق الأطلس، يطاول بقِمَمه الثلجية عنان السماء. لكنْ، خلف هذا الجمال الطبيعي الأخّاذ يتربّص الهيبة بتارودانت عاصمة سوس التي آوت دائماً "المهديّيْن المنتظرين" والمغتصبين للحُكم، بل إن بعضهم مثل السَّعْدِيّيْن حكموا البلاد في القرن السادس عشر إلى حدود البحر الأبيض المتوسّط.

تفيد الرسائل التي وصلتْنا أن الهيبة يستضيف يومياً أتباعاً جدداً، ويجمع أمره بحَزم، ليعبر مضايق حاحة وأمسكرود والگندافي، إلى ما بعد الأطلس لطَرْد أعداء الدِّيْن.

لكنْ، للأسف! فإن مصير الرجال الزرق الآتين من الصحراء هي العودة إليها، سيتراجعون بخُطى متثاقلة أمام زحف النصارى، لعنهم الله! مساكين هؤلاء الرجال الزرق! فبالأمس كانوا يتجوّلون في المدينة التي أسّسها جدّهم زعيم المرابطين يُوسُف بن تاشفين الذي جاء من ضفاف نهر السنغال منذ أكثر من عشرة قرون، والآن أصبحوا مَطرودين. فالأقدار تغيّرتْ. ويمكن ليُوسُف بن تاشفين أن يرى من قبره وسط حديقة غنّاء مَعْلَمَة جديدة، شيّدها خلفاؤه الموحّدون الغزاة الجدد، وهي الكتبية الشامخة، تعلوها الجوامير الذهبية.

مَنْ يتذكّر اليوم مؤسّسي الدولة؟ فأسماؤهم معروفة حقّاً، لكنْ، غير "محترمة"، فقد جاء صلحاء وأولياء جدد، استطاعوا أن ينالوا تقدير المسلمين واحترامهم. وأعيان مراكش والتّجّار الأغنياء يعيشون في قصور مراكش المُذهّبة التي بُنيت فوق أراضي المرابطين "يبايعون" الهيبة الكذّاب. ورغم ذلك، كان هناك لسلاطين بربر أيضاً كبرياء "القياد" الكبار.

رمّم العقيد مانجان ضريح يُوسُف بن تاشفين الذي كان عبارة عن حجر طويل دون سقف، كما حيّاه يوماً وهو يتجوّل مع الباشا الحاجّ التهامي الذي همس في أذنه: "أنتَ تُسلّم على صديقكَ، فمتى ستبني له ضريحاً؟"، فأجابه العقيد "لا. أبداً! وقال الباشا: إنه رجل عاش تحت الخيمة، ولن يتحمّل أن يُبنى عليه سقف، فقد حاولنا أن نبني عليه قبّة مرّتَيْن، فكانت تتهدّم. وأنتم تعلمون كل شيء عنّا".

١٤ تشرين الأول/ تشرين الأول/ أكتوبر

لمّا اقترح العقيد مانجان - تبعا للعادة المغربية - تسخير القبائل الموالية لنا لمواجهة الهيبة دون عناء إرسال فرَقنا العسكرية إلى سوس، استحسن الجنرال ليوطي الفكرة. فمن الهامّ أن نجيب بالحركة على الانتشار الواسع للهيبة، ليس فقط في سوس والأطلس، ولكنْ، أيضاً في الحوز وما وراء تانسيفت وتادلة، بل إلى ضواحي فاس. ووعد "القياد" البربر لمراكش: المتوكي والگلاوي والگندافي بتقديم الدّعْم التّامّ. وكانت هذه Levée إلى حدود اليوم أمراً عادياً في المغرب، فالقبائل الخاضعة لم تدخل قطّ في مساومات مع السلطان، من أجل دَفْع الثائرين أو غزو القبائل "السايبة"، فقد سبق للوحدات العسكرية لمراكش أن حاربت الروگي "بوحمارة" بتازة.

كما شكّلت حديثاً القبائل المجاورة لموگادور - بدعوة من القنصل- حركات استعداداً لصَدّ الهيبة الذي عبر الأطلس عبر ممرّ أمسكرود، فنجحَ الأمر، وتراجع بعيداً عن المدينة التي لم يكن يحرسها سوى طابور بسيط من الجنود المغاربة تحت قيادة ضُبّاط فرنسيّيْن. لذلك ستعبر الوحدات العسكرية للگلاوي والمتوكي الأطلس عبر ممرّ/ فج الگندافي، بينما ستمرّ وحدات المتوكي عبر مضيق أمسكرود، وستتشكّل حركة أخرى

مُكوّنة من قبائل حاحا والشياظمة المجاورين لموگادور، وأگادير. والواضح أن هذه المجموعات التي تفتقد لجنود نظاميّيْن مدرّبين، وتأطير أوروبي، ستنقصها الفعالية، لكن وجودها في سوس سيُشكّل تهديداً للهيبة، ويحدّ من خطورته، وتعيق تحرّكاته في المغرب. كما سيُمكّننا النظام المَرِن للحماية من التّحرّك باسم السلطان، وبعث مزيد من المحلات المُكوّنة من الأهالي - كما سبق أن قمْنا بذلك - دون أن نخسر فرنسياً واحداً.

وجدنا المدفعيّيْن يستخدمون مدافع Krupp(*) يتلقّون تدريباً يومياً من الأوروبيّيْن. لكن المشاة لم يكونوا مُنظّمين، لسوء تسيير وإشراف قادتهم، فقد كُنّا نراهم يتجوّلون يومياً بشوارع المدينة، ويرتادون محلات الموسيقى والغناء. الباشا وحده مَنْ أدمجهم في سلك الجندية، وألبسهم حسب ذوقه ملابس بائسة عبارة عن سروال saumon، ومعطف إنجليزي أحمر بـ "عنق" أصفر، وشاشية تميل إلى الحمرة، ولقّبهم رجالنا "طيور الحسون" (كلاليوس)، بسبب ألوان لباسهم "المبرقش". وأظهر هذا التعاون السريع على الساحة العسكرية ذكاء البربر الذين انضمّوا إلينا بسرعة، وأخبرنا أنه قبل دخولنا مراكش، كانوا قد حظوا باستقبال جيّد من ساكنة المدينة.

*) سلاح من صُنع ألماني، أفادتْ منه ألمانيا نفسها في الحرب العالمية الأولى، بِعَدِّه سلاحاً مضاداً للطائرات.

الفصل الرابع
من مراكش إلى موگادور

١٥ تشرين الأول/ تشرين الأول/ أكتوبر

سينطلق اليوم الطابور المُكوّن من خمس فيالق وكتيبَتَيْن وفرقَتَي مدفعية إلى موگادور للاطّلاع على أحوال الجهة، وفتح الطريق الأطلسي، وسيدخل حتماً عبر الجبل، على ظهور البغال والجمال، لأن الطُّرُق غير سالكة للسّيّارات. وضواحي مراكش أراض مستوية، تتخلّلها سواقي باطنية "خطارات" تجلب الماء من الأطلس إلى المدينة، وهذا عمل جبّار، تطلّب قروناً من المجهودات. وستكون الأرض الطينية زلقة، لاسيما أننا على أبواب فصل الشتاء، لكنْ، لحُسن حظّنا، مكّنتْنا الشمس المشرقة من التّحرّك، ووجوهنا قِبَلَ الشمال، حيث خيط أزرق من جبال صغيرة "الجبيلات"، وفي الجنوب، قِمَم ثلجية عالية في أفق الأطلس. وتتخلّل هذه المساحات الشاسعة والجرداء التي يعبرها الطابور واحات نخيل خضراء، وشاهدنا الحرّاثين ربطوا محاريثهم إلى ثيران أو جمال قوية، والرعاة وراء قطعان من الغنم والأبقار، يتتبّعون الأعشاب القليلة التي جادتْ بها الأرض عقب الأمطار الأولى للموسم الفلاحي.

وخرج السّكّان المسالمين من قُراهم ذات الجدران الطينية، والأسوار الشوكية، للقائنا فرحين، تصحبهم زغاريد بعض النساء.

توقّفْنا زوالاً بسيدي بوعثمان، حيث يلتقي وادي نفيس بأحد روافده، تحت ظلّ شجيرات الأرگان، مقابلين لعديد من القُرى. كانت لهذا الوادي

موقع بالغ الأهمّيّة، يجري بمياه الأطلس فوق سرير، ويفتح ممرّ الگندافي، مرّرْناه مستمتعين فوق ظهور الخيول التي وصل الماء إلى حدود صدورها، وعلى جنبات الوادي أشجار القصب والعنّاب وبعض أشجار زيتون.

ووسط هذه الأجواء الرائعة، وقع حدث مأساوي، حيث نشب صراع مصالح بين قائدَيْن عن أحقّيّة استخلاص "الضرائب" من يهودي بمراكش، كما هو متعارَف عليه في المغرب. وقبيلة الوداية هذه قبيلة "گيش"، أي أنها تحت تصرّف السلطان الذي جَعَلَهَا فوق أراضيه، وتابعة لباشا مراكش وخاضعة لأمره ونَهيه.

١٦ تشرين الأول/ تشرين الأول/ أكتوبر

وَصَلْنَا إلى المزوضية عبر ستّ مراحل، وعبرْنا بلاداً مستوية، تغطّيها أشجار السدر، وتتخلّلها سَوَاقٍ مُهمَلَة. إنها أراض غير مُستغلّة. وكانت هناك عِزْبَاتٌ منتشرة وسط المساحات الشاسعة الممتدّة بين مراكش ووادي شيشاوة في ملك السلطان، يكتريها أو يأخذ حقّ استغلالها للناس كلهم الذين يأتون من القبائل المجاورة. كانت هذه الأراضي تجود بخيرات كثيرة، أمّا الآن، فقد تراجعت كثيراً نَظَراً لتطاحن "قياد" المنطقة، وسيستغلّها المعمّرون الأوروبيون، فيما بعد، لزراعة الشعير والقمح. كما تُنتج المنطقة البطاطس، وبعض العنب والزيتون. الجوّ هنا رائع، والمساءات منعشة جدّاً، لكن أيّام فصل الصيف تكون حارّة.

١٧ تشرين الأول/ أكتوبر

هبّتْ رياح خريفية هذا الصباح، فارتعدت فرائصُنا تحت المعاطف، لكنْ، سرعان ما أشرقت الشمس، وبعثت الدفء، وصفا الجوّ، وفاحت

الروائح، ورعت الخيول في العشب، وأخذ الرجال يُغنّون مستمتعين بهذا "الضوء" الإفريقي.

لم تعقْ تقدّمنا حواجزُ كثيرة، باستثناء بعض الروافد الصغيرة الجافّة، لنصل في الزوال إلى وادي شيشاوة الذي يجري بقُوّة فوق سرير عريض. وشكّلت الهضبة "الصلصالية" في الجنوب، عبر جبل تيلضي، غطاءً من أشجار الزيتون الخضراء المحاطة بأسوار شوكية.

إنها نزالة شيشاوة التي تنامتْ قيمتها، بوجود ملاح، يتميّز فيه اليهود، على غير العادة، بلبس الجلباب، والتّسلّح بالبنادق، وتتدلّى ظفائرهم على الأكتاف. وقال لنا أحد الكتّاب الذين وصف لنا الطريق بين مراكش وموگادور أن هؤلاء اليهود يقظون، ويُحسنُون التّصرّف من طائفة Servile الذين اختاروا شيشاوة مستقرّاً لهم.

١٨ تشرين الأول/ أكتوبر

يُشكّل أولاد بو السبع الذين فرَّ شيخهم الحالي يرعا الذي ساند الهيبة، المُكوّن الأساس في هذه المنطقة الذي قد يصادفه الطابور في طريقه. وأرسلت لنا القبيلة البارحة شريف زاوية سيدي المختار، ليُمهّد لِلقائنا. كانت الأمور كلها تمرّ في أحسن الظروف، إلى أن جاء أحد الفرسان من موگادور يحمل رسالة من قائد الدائرة، يقول فيها إنه سمع، منذ صباح اليوم، تبادل إطلاق النار في سيدي المختار بين الأتباع ومناصري "القايد" يرعا.

وأخيراً جاء إلى لقائنا رجل شابّ مُلتح، يركب جواداً رائعاً محاطاً بحُرّاسه من الخيّالة، وقال: "أنا سي محماد أعلي "القايد" الذي عيّنه

المتوگي"، وقال ذلك بلهجة واثقة. وقلْنا له: "إننا لا نعرف سوى "القياد" الذين يُعيِّنهم السلطان"، فقال: "بالفعل، لازلتُ لم أتوصّل برسالة تعيين، ولكنْ، لمّا فرّ "القايد" يرعا طلب منّي المتوگي أن أمارس المهامّ في مكانه".

وأمام كثرة الأسئلة، لم يجد سي محماد أعلي بدّاً من تأكيد ما جاء على لسان الفارس، قبل قليل، أن يرعا وأتباعه، تمكّنوا من إحكام سيطرتهم على قصبة سيّد المختار بعد أن فشل علي في إجلائهم، وهو ما يفسّر الطلقات النارية التي بلغتْ إلى أسماعنا.

ووَاصَلْنا تحرُّكنا حتّى لم يبقَ بين المدفعية والقصبة سوى ألفَيْن وخمسمائة متر، أمّا الخيّالة والمشاة، فقد حاصروها من الجهات كلها لإرغام يرعا ومَنْ معه على إخلائها، وما إن سمعوا الطلقات الأولى حتّى لاذوا بالفرار، لأنه لا طاقة لهم على مواجهة "محلّة" قوية مثل "محلّتنا".

دخلْنا القصبة، فوجدناها كبيرة جدّاً، وساحاتها وممرّاتها كلها مسقوفة، وغرفها ملأى بجَرّات الزيت، والزبدة المملّحة "السمن"، وأكياس من الطحين، والشعير، ومؤن مختلفة ... وبها حدائق من الليمون، وخزّانات ماء وآبار. وفي الخارج فوق هضبة تنتصب قرية تحيط بالزاوية المُقدّسة والمسقفة بالقرميد الأخضر ..

١٩ تشرين الأول / أكتوبر

تبدو مساحات شاسعة من سطح القصبة، وسهل أجرد، ومستو، وقاحل، إن المشهد في هذه المنطقة كثيرة الحجارة وغير المستغلّة فلاحياً، ويسكنها الرعاة البؤساء لأولاد بو السبع محزن فعلاً. مَنْ يفكّر في الإقامة في مكان قَفْر شحيح الماء، لا تُستخرج مياهه الشحيحة إلا من أغوار عميقة؟

فهل لهؤلاء البربر المتحدّرين من أصول موريتانية حنين للصحراء، ليختاروا السَّكَن في مثل هذه الفيافي؟ وهو احتمال غير بعيد، لأن يرعى الذي يحارب يقاوم الفرنسيّيْن ويمنعهم من دخول "دولته" الفقيرة، يستفيد من الإتاوات التي يفرضها على القوافل التي تمرّ من مجال نفوذه، وتحتمي بجدرانه، وتستقي من مائه. لذا يجب علينا الوقوف في وجهه، لأننا سنكون في مساس الحاجة إلى نقط الماء هذه، لتسهيل العبور من مراكش إلى موگادور، وقصبة سيدي المختار خير مثال لذلك.

و يقطن تحت ظلّ الأسقف الخضراء للزاوية المُقدّسة قرب المقبرة المحصّنة ذات الأسوار العالية قاطعُ طريق من العصور الوسطى. وجدنا عشرة آلاف رصاصة مُخبَّأة في صندوق من الخشب، ومخازن بارود أكثر من الحبوب.

٢٠ تشرين الأول/ أكتوبر

ها نحن نُودّع هضبة أبي السبع، على مشارف بلاد الشياظمة، بتلالها المحدودبة، والمَكسوّة بالرطم، والسدر، والبلاد هنا أكثر غنىً واستغلالاً، وتبدو الوديان والدواوير في العمق. توقّفْنا بتافتاشت بواد صغير من أشجار الزيتون والرّمّان، وعين ماء تنبع مثل وادي أسفل المنحدرات المخضرّة. عبرنا هذا اليوم "مراكش القديم" بأسواره المهدَّمة التي ما زالت آثارها بارزة في الحدود ما بين أولاد بو السبع والشياظمة. وتقول الأسطورة إن البرتغال هم مَنْ حطّموه في القرن السادس عشر، وكان المجهود الاستعماري لهذا الشعب هامّاً، لكنه بدائيّ، ونحن مَنْ سيقوم بهذا الدور بكثير من المنهجية والإرادة والوضوح في الرؤيا.

٢١ تشرين الأول/ أكتوبر

تمتدّ بلاد الشياظمة إلى المحيط. وتنقسم هذه القبيلة العربية إلى ثلاث فخذات مستقلّة هي: الكريمات وخبّان والحاجي. وحاول "القياد" البربر للجبال وَضْع اليد على خيرات بلاد السفح، فالشلح سي عبد المالك المتوگي يريد أن يحكم الكريمات، لكنهم ثاروا ضدّ أيّ هيمنة بربرية، وهذا الصراع العِرْقي سيُسهّل مهمّتنا. أعجبتْنا رؤية خضرة بلاد الشياظمة بعد المنبسطات الجافّة والقاحلة لبلاد بو السبع، فكانت هذه الأرض كثيرة الحجارة، كثيرة الخصب، وفي الأعالي، تظهر بنايات بيضاء محاطة بأسوار من الحجارة المَبْنِيّة بغير طين. البلاد هنا كثيرة الفواكه وأشجار الزيتون، وتلالها مَكسوّة بأشجار الأرگان العتيقة التي تُستخرج من "لَوْزِهَا " زيوت ثمينة. لم يكن يكسر الهدوء الجميل المُخيّم على المعسكر وسط الأعشاب الكثيفة بعد الزوال سوى أصوات اللقالق، وبدا أمامنا "خيال" جمل يتحرّك في اتّجاهنا بين الأغصان بعد رَفْع الخيمة.

ذكّرنا فجأة بالحقيقة التالية: إننا في أفريقيا البربرية، حيث يمشي هذا الحيوان ببطء وقبح، يحيل على عصر آخر، وعلامة على حضارة متأخّرة.

ضربنا مُخيّمنا قرب سوق ثلاثاء الحنشان، بعد أن تقدّمتْنا سريّة من الجنود الفرنسيّيْن، وطابور مغربي، جاء من موگادور للقائنا. وشكّل هذا اللقاء للقُوّات الفرنسية في قلب الجنوب المغربي على قدم الأطلس ميلاد عهد جديد: ففرنسا تستحوذ اليوم بشكل نهائي على البلد الذي سبق أن قاد له الأمير Joinville سنة ١٨٤٤ أسلحتَنا، حيث كتب اسم موگادور بحروف من الدم في حوليات جيشنا الاستعماري، وبحروف من ذهب فوق عَلَمه. وأحسَسْنا بالزهو والفخر لما أنجزناه من تقدّم. وكنّا مطمئنّين على مستقبل شعب، يُقدِّر كثيراً ما نقوم به من أجله. فقد مكّنتْنا الحروب

Voir page 108.

LE COLONEL MANGIN ET LE CAÏD ANFLOUS
Colonne de Mogador. — Octobre 1912.

ضدّ القبائل المُتوحِّشة في الغابات الاستوائية، ومعاركنا ضدّ العصابات وسط أفريقيا، ولقاءاتنا مع المسلمين المتعصّبين في الصحراء الليبية من الوقوف على فداحة موقف الرافضين المنعزلين. وكنّا متيقّنين أننا – وحدنا - سنكون المستفيدين من غنى هذا البلد، وأهمّيّته المتنامية.

الطريق التي سلكْنا من مراكش إلى موگادور تعزل العرب المقيمين في الشمال عن البربر الذين استقرّوا في الجنوب، ولمسْنا أن لا تفاهم بين العِرْقَيْن، لأن العرب الغزاة استولوا على السهول الخصبة، ودفعوا البربر إلى الجبال، فقد كانوا أكثر تحضّراً وتديّناً، بينما البرابرة قُساة، ومُتوحّشون، ويحتقرون الموت. وممّا حكاه لنا أحد الضّبّاط عن بطش أحد "القياد" البربر المجاورين لموگادور، أنه كان يأمر عبيده بأن يكون هدفاً لطلقات مسدّسه الذي اقتناه مُؤخّراً، ليتعلّم الرماية، بل إنه صوبه لساقَي عبدَيْن زنجيَّيْن، ليقيسَ بهما مدى قدرة الرصاص على الاختراق!!

يعيش العربي في المُدُن أو في مجموعات من الخيام، في حين يعيش البربري في المرتفعات في مساكن متفرّقة. يعيش العربي في الثراء، ويبحث عن الأراضي الخصبة التي تعطي منتجات وافرة، ويأكل مأكولات مطبوخة بشكل جيّد. والبربري يتفادى الثروة، ويعيش في الجبال المنعزلة، ويتغذّى على الأشياء الحقيرة. والعربي مُتشبّث بالتقاليد المنتظمة للإسلام، والبربري قليل التّديّن، ومتشكّك. العربي يتحرّك فوق الفَرَس أو البغل، والبربري يمشي راجلاً بشجاعة. ويختلف الجنسان أيضاً في مسائل بساطة اللباس عند البربري، وأناقته عند العربي، والزوجة الواحدة عند البربري، وتعدّد الزوجات عند العربي.

٢٢ تشرين الأول/ أكتوبر

اخترْنا أن تكون رحلتنا صبيحة هذا اليوم الخريفي البارد والمشمس

ترفيهية فوق المرتفعات المكسوّة بشجر الأركان، وبوادي النخيل، وبدت الأراضي المحصودة بقعاً حمراء وسط التلال المغطّاة بغابات الزيتون، وكانت الحقول كلها مُسيّجة بالصّبّار، وأسوار قصيرة من الحجارة، وأضفت الضيعات البيضاء والأضرحة الرمادية المُربّعة والمصبوغة أطرافها بالجير على هذا المنظر وروعة وجمالية.

الخميس ٢٣ تشرين الأول/ أكتوبر

لم تعبرْ خيولنا هذه السلسلة من التلال المتعرّجة عبر ممرّ ضيّق إلا بصعوبة بالغة، ومع تقدّمنا، أخذت أشجار الأركان تتوارى شيئاً فشيئاً، لتُفسح المجال أمام غابة من أشجار العفص، والدوم.

استقبلتْنا الرياح البَحْرِيّة الرطبة قبل أن تظهر فتحة في أعلى الكتلة الزرقاء للأطلسي، فتقدّمْنا فرحين في اتّجاه الشاطئ، حيث تسبح آخر الشجيرات. بدت موگادور، من بعيد، في حلّة جميلة، كنقطة بيضاء وسط الضباب الرمادي. سرْنا بمحاذاة البحر، لتختفي النباتات، وتتراجع التلال الرملية التي تعبث بها الرياح ... وكانت حوافرخيولنا تلامس مياه البحر في أثناء المدّ ...

توقّفْنا غير بعيد عن الأسوار، نرنو إلى المدينة البيضاء التي بدت تطلّ منها الصوامع، أشبه بجزيرة ضائعة في بحر، لا ساحل له. خرج لاستقبالنا ثلّة من الفرسان، يصحبهم المسؤول عن القنصلية السّيّد كوفوريي.M Coufourier بمعيّة ضُبّاط الحامية (فرقتان من ثلاث زواف، وطابور من الشرطة) وفريق من الأعيان المغاربة واليهود. وصرخ أحد المعمّرين العَجَزَة وعيناه تدمعان بعد أن عانى من الحكم الألماني قائلاً: "إنني أنتظر هؤلاء

الجنود منذ عشرين سنة!". عبرنا الباب وسط فرح كبير لد "جالية" اليهودية المُكوّنة من ١٥٠٠ يهودي من بين ٣٠٠٠٠ ساكن بموگادور، ورُفعت الأعلام، وسُمعت الزغاريد من شرفات المنازل، وكانت الفتيات الصغيرات يهدينَ باقات الورد للعقيد مانجان. وخرج الطابور من الباب الجنوبي، ليستقرّ خارج الأسوار على أطراف الساقية التي تُزوّد المدينة بالماء.

الجمعة٢٤ تشرين الأول/ أكتوبر

رأيْنا، من بعيد، الجزيرة التي رسا بها يوم الخامس عشر آب / أغسطس سنة ١٨٤٤ بعد قصف طنجة، وعقب انتصار بوگود Bugeaud أمير جوانفيل Joinville مع فرقه التي تحدّث عنها في مذكّراته [١٠٠] "مدافع في السباق"، وكان على الباشا أن يُسلّم المدينة إلى قائد الأسطول الذي نزل إلى اليابسة. ولازلنا نشاهد مدفعاً قيّماً، يُؤرّخ لهذا الحدث. كما أُخليَت المدينة في السنة نفسها بعد توقيع الاتّفاقية مع مولاي عبد الرحمان سلطان المغرب التي أذن لنا فيها بمتابعة الأمير المتمرّد عبد القادر "الجزائري" على أراضي المغرب، ثمّ استسلم ثلاث سنوات بعد ذلك إلى الدوق أومال.

المدينة نظيفة، ومزلجة بطريقة جميلة، وشوارعها مستقيمة مقطوعة في الزاوية المستقيمة - وهذا شيء نادر في المُدُن العربية -، واجهة كثير من الدور هنا مصمّمة على الطريقة الأوروبية، وشققها مفتوحة في الداخل على فناءات عربية. ويُعدّ الميناء منفذاً لبلاد سوس، وبلاد حاحة، لتصدير الجلود، والبيض، واللوز، والزيت والحبوب. وتتمتّع موگادر بطقس معتدل، فالحرارة تتراوح ما بين ١٤ و٢٢ درجة.

القبائل العربية الموجودة خلف الساحل "الشياظمة" خاضعة نسبيا،

بينما القبائل البربرية حاحة التابعة "للقايدين" أنفلوس(*)، والگيلولي(**) أكثر عناداً، فهم الذي مدّوا الهيبة بقُوّات مسلّحة هامّة. ولم يتقرّب "لقايد" أنفلوس من السلطات الفرنسية إلا بعد انتصارنا في مراكش. أمّا الگيلولي، فقد جعل "قايد" القبيلة تحت الحماية الألمانية بطريقة غير قانونية، لئلا يُعرّض نفسه لغضب السلطان.

كان على طابورنا أن يكون قريباً من أسوار مدينة موگادور، ليلبّي دعوة القنصل الفرنسي. الگيلولي هذا شابّ، يبلغ من العمر سبعاً وعشرين سنة، طويل القامة، غليظ الجسم، أحمر الوجه، لا يكاد ذقنه يتميّز من عنقه، لفرط سمنه، يتكلّم بصوت مرتفع، وكان اليد اليمنى للهيبة في المنطقة، إذ "بايعه" في شمال الأطلس، وهو من أشدّ المعارضين لنا، بل إنه لا يعترف بتعاليم السلطان، مع العلم أن الحماية لا تُعطى إلا لمُوظّف متمرّس، وهذه إحدى أبرز عيوب نظام الحماية في مختلف ربوع المغرب.

لا يستبعد أن تضطرّ الفِرَق الفرنسية للقيام بهجوم على بلاد حاحة جنوباً، لتعبيد مسالكها المُتمنّعة أمام الفِرَق العسكرية الكبيرة.

٢٥ تشرين الأول/ أكتوبر

بقي الگيلولي ثابتاً على موقفه، يصرّ على تبعيّته للحماية الألمانية،

---

*) قائد قبائل حاحا أحمد أنفلوس: في سنة ١٩٠٦ سيتحالف ضدّه المتوگي مع مبارك الگلولي، الذي سرعان ما سيتمّ استبدال التحالف معه تحالفاً مع قبائل الشياظمة وأبناء أبي السباع وأحمر. انضمّ أنفلوس إلى حركة أحمد الهيبة.

**) مبارك الگيلولي حليف المتوگي ضدّ القايد أحمد أنفلوس، وحليف الباشا ولد منّو، كما تحالف مع حركة أحمد الهيبة. ويُعدّ القائد مبارك بن سعيد الگيلولي المتوفىّ عام ١٣٢٩هـ، من كبار قوّاد قبيلة إداوگيلول، وهو ابن القائد سعيد بن أحمد الگيلولي المتوفىّ عام ١٣١٩هـ، وأخوه القائد عبد الرحمن بن سعيد الگيلولي الذي كانت له دور في تحريك ثورة الشيخ أحمد الهيبة ضدّ الاحتلال الفرنسي، بإيعاز من ألمانيا منافسة فرنسا على حماية المغرب.

ممّا يستدعي التفكير في استبداله "قايد" آخر على رأس قبيلته، وهذا إجراء لن يروقَ له حتماً، لأنه يفرض على "القايد" الذي تمّت إقالته تقديم الحساب للمخزن.

ستنطلق الفِرَق العسكرية غداً إلى مراكش في طابورَيْن، الأوّل سيتقدّم نحو الشمال في اتّجاه وادي القصب، وقصبة المتوكي مع العسكر كلهم، أمّا الطابور الأقوى بفيلقَيْن، ومدفع جبلي، وحُرّاس خفر، والمدعوم بفرقَتَيْن من الزواف، والطابور المشكل لحامية موگادور، فسيتجه جنوباً نحو حاحة للالتقاء بالبربر.

وأوكل أمر سَوق الجمال إلى طابور الشمال، ولم نصحب معنا سوى البغال، لتسهيل عملية العبور. وكنّا نستبعد أن تتمّ هذه الجولة دون إطلاق نيران، لأننا أُخبرنا أن هؤلاء الحاحيّيْن حادّو الطِّباع.

خصّصْنا أوّل اليوم للتحضيرات، وزيارة المؤسّسات المدرسية. عدد تلاميذ المدرسة التابعة للرابطة اليهودية مائتا تلميذ ومائتا تلميذة من العائلات الميسورة القادرة على تأدية مصاريف الدراسة، مستوى التعليم الابتدائي جيّد، يزاوجون بين اللغَتَيْن الفرنسية والإنجليزية على يد معلّمين يهود، من أصول مغربية. كما أن هناك مدرسة يهودية بالمجّان للجالية الفرنسية، ومدرسة إنجليزية للتلاميذ والتلميذات اليهود، ثمّ أخيراً مدرسة فرنسية، تُسمّى فرنسية عربية للأطفال المسلمين.

وشاهدتُ في أثناء زيارتي لثكنات زواف الطابور في ساحة شمال المدينة مدافع مثبتة منذ سنة ١٨٤٤ مع قذائف للأسطول الفرنسي، وكان الرُّماة المدفعيون للأمير جوانفيل يُتقنون استعمالها، من ذلك أنهم رموا بقذيفة، سدّت فُوَّهة أحد المدافع المغربية.

٢٦ تشرين الأول/ أكتوبر

تسبّب مَدّ ليلي في إغراق شبه كُلّيّ المعسكر المرابط على الشاطئ. وعند سماع صفّارة الإنذار هُرع الرجال لإنقاذ المؤن من بالغرق، كما لم تكن إقامتنا بالقنصلية بالسعيدة، لما عانيناه من لسعات البعوض.

غادر الطابوران المدينة قبل طلوع الشمس تحت ضوء القمر على طول الشاطئ شرقاً في اتّجاه الهضاب الزرقاء. وكانت البِرَك المائية التي خلّفها المَدّ تعكس ضوء القمر تلمع كالقطع النقدية، لتُسفر تباشير الفجر عن أفق رمادي ممزوج بحمرة، تُؤذِن ببزوغ شمس صفراء كبيرة، فلكأننا أمام لوحة أبدعتْها يد فنّان حالم ...

مَرَرْنا على آثار حصن برتغالي نصف غارق، ثمّ فيلا مهجورة للسلطان مغمورة بالرمال. ونحن نصعد التلال الجرداء لوادي لقصب في طقس بارد وصاف، أخذت خيولنا تزفر الدخان من أنوفها، ولا تتنفّس إلا بصعوبة ...

كان يوماً طويلاً وشاقّاً عبر المرتفعات الكثيرة وأشجار الأركان الكثيفة. وَصَلْنا أخيراً إلى فُندُق بالميرا، وهو في مِلْكِيّة أحد المواطنين الرائعين من جبل طارق مشهور بالقَنْص، لما كان يعجّ به محيطه من طرائد كالخنازير، والأرانب، والحَجَل البرّيّ، والقنادس التي رأيناها بوادي القصب.

وكم كُنّا نستمتع ونحن نُرسل بصرَنا من شرفات الفُندُق إلى الأفق البعيد، نُمعن النظر في أشجار الأركان، والرّطم التي تغطّي الروابي. في هدوء وسكينة. إن الإقامة ممتعة حقّاً في هذا الفُندُق الإنجليزي، لكن حاحة تنادينا!! فقفلْنا راجعين عبر التلال المرعبة، بين الأحجار العنيدة لإدا أوگرض ... تضاءلت كثافة الغابة، لكن المسلك زلق وسط الأشواك، وأشجار المستك والأركان المزهوّ بثماره الصفراء.

تتناثر المنازل في الأفق على شكل طوابق مَبْنِيّة بجدران قصيرة من الحجارة. وشاهدْنا بتازرت لأوّل مرّة تحصينات، يحتمي بها هؤلاء المدافعون الشرسون من جيرانهم. صادفْنا كذلك قصبةً، نخرت جدرانَها طلقاتُ الرصاص، تعلوها أبراج للمراقبة مُربّعة على ارتفاع ستّين قَدَماً. وسط هذه القلعة الكبيرة تكدّست منازل مَبْنِيّة بالحجارة الجافّة، كانت تُلاحقنا عيون بعض الحاجّيْن بجلابيبهم البيضاء فوق الشرفات أو المدرجات.

وبالقرب من ضريح سي محمّد الحي القابع بقبّته البيضاء، تحرسه شجيرات نخيل داخل سور، تجاوره ضيعات فقيرة من أشجار الصّبّار، وقليل من الشعير والقمح ... يُشكّل زيت الأركان مصدر الدَّخْل الرئيس لحياة أولئك البربر، كما يتّخذون من عجينه عَلَفاً للبهائم، وإن كان يُستخلَص منه زيت بطَعْم لا يُطاق إلا أنه محبوب كثيراً لدى السّكّان. وتتخلّل غابات الأركان بعض أشجار الزيتون، والخروب، واللّوز "البرّيّة".

وكلّما أوغَلْنا في جهة الشرق، أصبحت الأراضي أكثر خصوبة، بما في ذلك المرتفعات والهضاب، وتناثرت ضيعات متباعدة، وحقول تفصل بينها جدران قصيرة، شيدت بحجارة دون طين.

البربر أُباة لا يخضعون إلا "لقيادهم" الذين يلجؤون لأساليب قاسية، ليُحكِمُوا سيطرتهم عليهم. خرج "القايد" أنفلوس لاستقبالنا بوجه طَلْق، وعينان تنطقان بالحياء، والوقار، وإن كُنّا نعرف عِظَمَ بطشه وجبروته، وعدم تسامحه، يُقدِم على إزهاق نفوس مناوئيه بدم بارد، وبلا تردّد.

وتوقّفْنا لبضع ساعات قرب "نطفيتين" "خزانات ماء" تجمعان مياه الوديان، لندرة نقط الماء بالمنطقة، أما الأودية كالتي نسلك، فكثيرة الحصى، وجافّة صيفاً، لا تملؤها سوى أشجار الدفلة. وبحلول الليل، ضربْنا معسكرنا على ضفّة "سميمو"، تُحيط بنا لأشجار الأركان من كل جانب.

٢٧ تشرين الأول/ أكتوبر

تسلّقْنا عند انطلاقنا مرتفعات صعبة، لكننا أشرفْنا على منظر رائع، فهذا وادي إمي نتليت يجري بين منحدرات جبل أمردما شمالاً، وهذه مرتفعات إمسيتن جنوباً، وهذا ستار أخضر، تسدله غابة الأرگان على هذه الجبال كلها. أمّا دواوير البربر، فكبيرة، واختارت المواقع المرتفعة، لتتمكّن من حراسة الوادي عبر أبراج مُربّعة مُزيّنة بالجير الأبيض ... هذا كله تحت مظلّة قبّة سماء زرقاء صافية، أضفت على المجال بهاء وحسناً.

كانت بعض النباتات الضعيفة للحبوب تُطلّ من بين الأحجار الكثيرة التي تغمر حقول هؤلاء البربر الجبليّيْن الذين يطلّون من "الشرفات" بوجوه ناصعة، وثياب رمادية طويلة.

أخذ الوادي يتّسع شيئاً فشيئاً، وعدد أشجار الأرگان يتضاعف، والمساحات المزروعة تزيد اتّساعاً، كما ظهرت بساتين اللوز، وأحواض اللِّفْت، والجَزَر بالقرب من عيون الماء القليلة.

وتوقّفْنا زوالاً بسوق اثنَيْن إمي نتليت الذي يعقد فوق الروابي مثل الأعشاش التي تضعها الطيور فوق الأجراف. إن كثرة الآبار بالمنطقة هي السّرّ وراء هذه التّجمّعات السَّكَنية الكبيرة.

توجد دار "القايد" أنفلوس الذي يحكم حاحة الشمال على بُعْد ساعة من هنا، وسنصل إليها بعد الزوال. وبعد أن صعدْنا بصعوبة فوق الصخور الصلبة، وَصَلْنَا إلى منبسط محروث، ركضتْ فوقه خيولنا، لينفتحَ واد أمامنا، ينتهي بجُرْف، أقام عليه أخ "القايد" مسكنه الشبيه بعشّ نَسْر. وفي الجهة المقابلة فوق مرتفع يطلّ على المرتفعات الكثيرة الأشجار، أُقيمت قصبة "القايد" أنفلوس التي لم نتمكّن من الوصول إليها إلا بعد أن خرج

فرسانه لاستقبالنا، وتشكيل جسر من الخيول، مررْنا فوق ظهورها عبر منعرج ضيّق، أفضى بنا لباب حديدي متين. كان هذا القصر "الفيودالي" بدون خنادق أو قناطر، تُسهّل الوصول إليه.

وجدنا أنفلوس في انتظارنا عند مدخل الساحة، وبعد عبارات الترحيب تبعناه إلى منزل، غُطِّيَت جدرانه بزليج إسباني، وأثواب بألوان باردة، أمّا أرضيّته، فمفروشة بزرابي رباطية نفيسة، كما زُيِّنتْ أسقف الغرفة الأولى بخشب مصبوغ باللون "القهوي" المُذهّب، بينما السواري زرقاء، تتخلّلها خيوط ذهبية، ونوافذه مشرعة على حديقة من الليمون والجوز واللوز مقابلة لغرفة الضيوف، والوادي العميق بأجْرَافِهِ الصخرية الحمراء.

مكّننا "القايد" من الاستمتاع بـ "التبوريدا"، إذ كان الفرسان يركضون بخيولهم بسرعة كبيرة حتّى إذا وصلوا جداراً، صرخوا بأعلى صوتهم، ثمّ أطلقوا البارود في السماء دفعة واحدة. وحلّ موعد وجبة العشاء، ولمسْنا أن المطبخ البربري لايقلّ أهمّيّة وتنوّعاً عن نظيره العربي، فقد تلذّذْنا بأطباق بسيطة ورائعة، فهذا من السمن ممزوج بالعسل، وهذا عصير اللوز ...

حكى لنا أنفلوس عن زيارته الأولى عندما كان الهيبة يحكم قبضته عليها، واستقبال سلطان الجنوب له بعد تسليمه إيّاه الهدايا، كما حضر في اليوم الموالي اجتماع "القياد"، الذين تداولوا آراء كثيرة تنظيم الفِرَق العسكرية، والأسلحة، والبارود، وذخيرة المدافع، لكن الاجتماع انفضّ دون اتّفاق، وفي اليوم الموالي، سمعنا دَويّ قذائف مدافع الفرنسيّيْن من جهة الجبيلات كهزيم الرعد. إنها معركة سيّدي بوعثمان التي نشبتْ على بُعْد ثماني مراحل من العاصمة. واختار أنفلوس أن يغادر المدينة ومَنْ معه من الباب الجنوبي في اتّجاه حاحة فراراً من الأوضاع غير المستقرّة. ثمّ سرعان ما تغيّرتْ ملامحه عندما تحدّث عن واقعة مقتل ابنه رَمْياً بالرصاص على

يد عبد، اشتراه عدوّه، وأشار بتأثّر بالغ إلى آثار الرصاصة التي قتل بها ابنه على الجدار، وكيف فرّ رجال أبيه بعد أن اجتاح أتباع "القايد" المنزل. لكنه تمكّن من استرجاع القصبة والتنكيل بالعبد، وتعذيبه بغَطْسه في الزيت لثلاثة أيّام! وكيف نصب "قايدا" وهو ابن سبع!

بعد الفراغ من وجبة العشاء، صحبنا أنفلوس لمتابعة رقصات الشلوح في ساحة القصبة على أنغام الناي والدفوف. كانت الفرقة مُكوّنة من أربعين فرداً، يرتدون أقمصة بيضاء بأكمام عريضة، ويعصبون رؤوسهم عمامات بيضاء، ويتوشّحون خناجر، يرقصون وهم لايراوحون أماكنهم في صعود وهبوط، يُوقِعُون ضربات بأرجلهم مصحوبة بالتصفيق، ويتولّى شيخ عجوز حازم وسريع الغضب دور "المايسترو" ... كانت هذه الاحتفالات كلها حول نار، لا يخمد لهيبها وسط الساحة .. وعبّروا عن حبورهم وابتهاجهم بوصول المسيحيّيْن.

أطلّت الشمس محتشمة وراء الجبل الرمادي القاتم، وسرعان ما عَلَت الأسوار البيضاء تحت قبّة السماء الزرقاء. كانت أهازيج الشيخ البربري ضابط الإيقاع والرقصات تمُزِّق هدوء الليل كالترانيم الدِّيْنية ... خلدْنا إلى النوم على فرش وتيرة، وبأغطية صوفية بيضاء، تتخلّلها خطوط حمراء في الغرف الكبيرة للقصبة، فخُيّل لنا أننا في قصر من قصور ألف ليلة وليلة.

٢٣ تشرين الأول/ أكتوبر

غادرْنا قصبة أنفلوس إلى قصبة الزلطني الذي يحكم الفخدة الأخرى من حاحة تحت أعين فرقة من الحَرَس إلى أن سلّمتْنا "للقايد" الآخر. واصلْنا السير فوق أراض جبلية محروثة، وسط ضياع اللّوز الغناء، إلى أن وَصَلْنَا عبر

"وادي أجندا" إلى جبل الحديد الذي تعلوه قصبة على ارتفاع ثمانمائة متر، تراءت لنا على بُعْد عشر مراحل في الشمال الشرقي لموگادور والأطلسي.

ها نحن، الآن، أمام "القايد" الزلطني، وهو عجوز بقامة رشيقة، ووجه يميل إلى الحمرة، تحدّه لحية بيضاء كالعقد. اختار أن يقيم قصبته على صخرة فوق تلّة بين أشجار الزيتون. كانت قصبة منيعة ذات أسوار عالية ومتينة، يعلوها برج للمراقبة.

استقبلَنا "القايد" بحفاوة، بكؤوس الحليب، رمز الصفاء وحسن النّيّة، تُرافقها أطباق اللوز، والجوز، وحبّات التمر، والخبز الساخن الشهي الرائحة مع عسل خالص وشاي رائع.

بحلول الليل، توصّلْنا ببريد يفيد أن الگيلولي يرفض المكوث بموگادور، ويريد الالتحاق بقبيلته وأهله بعد أن استغنت ألمانيا عن خدماته، ورفعت حمايتها عنه. كما أن قسماً من الطابور، رجع إلى موگادور، بينما آثر قسم آخر مواصلة التّقدّم نحو مراكش.

٢٩ تشرين الأول/ أكتوبر

تفصلُنا عن موگادور خمس عشرة مرحلة، لذا انطلقنا قبل طلوع الشمس، وأطلقْنا العنان لخيولنا الجريئة، لتتقدّم بشجاعة صعوداً وهبوطاً، في المسالك الوعرة. وعند الزوال، اخترنا ضفّة وادي القصب محطّة للاستراحة من عناء السَّفَر، وتناول وجبة الغداء "الجاهز".

كلّما ازداد قُربُنا من موگادور تضاعفت معاناتنا من الرمال التي كانت تعيق تقدّمنا. كان المشهد المُطلّ على البحر فوق التّلّة أكثر سِحْراً وجاذبية،

ومثلت موگادور أمامنا كالعروس في حلّتها البيضاء الناصعة، تُتوّجها الصوامع الشامخة، وتحرسها الأسوار المنيعة ... وفي الأفق، بدا البخار المتصاعد كقارب، تتقاذفه الأمواج.

لمّا وَصَلْنَا في الساعة الثالثة، علمْنا أن الگيلولي التحق بقبيلته غير مكترث بالحماية التي وعدناه بها، ليصبح رجلاً خارجاً عن القانون، وما كان علينا سوى المضي قُدُماً للعودة إلى مراكش.

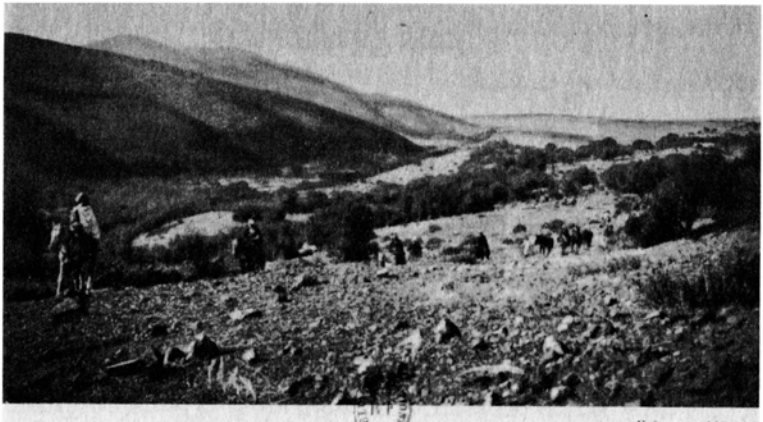

MONTAGNE DES HAHA DE MOGADOR

Voir page 105.

الفصل الخامس
العودة إلى مراكش عبر الأطلس

١ تشرين الثاني/ نوفمبر

إدا أوگيلول منطقة هادئة، بل لم يعدْ هناك داع لمرابطة الفِرَق العسكرية بموگادور. فقرّرْنا الرجوع إلى مراكش عبر وادي "وادي القصب"، فسلكْنا طريقاً أسهل يعفينا مواجهة التلال الشرقية، والمنحدرات والروابي العنيدة ناحية الشمال. وعسكرْنا فى نهاية المرحلة على مرتفع صخريّ بين شَجَرَتَيَ أرگان جميلَتَيْنْ إزاء بِرَك مائية، وروابي مكسوّة بالأشجار.

على قَدَم الجُرْف سُوق إدا أوگرض تُحيطه حجارة جافّة دون طين، و"نطفية" وسط شعبة، نزلتُ إليها عبر سلّم صخريّ عريض، وعجبتُ لتصميمها دون دعامات وبكوات، تسمح بدخول الضوء بمياه عذبة ومنعشة.

التقينا بأهل سوس بألبستهم الزرقاء، يحملون فوق ظهورهم سلّات مملوءة بالبيض في اتّجاه موگادور، ليتمّ تصديرها إلى إنگلترا، بعد أن قطعوا مئات الكيلومترات، ولعلّ فَتْح ميناء بأگادير سيُخفّف من معاناتهم، وإن كان سيصيب ميناء موگادور بالشَّلَل التّامّ.

٢ تشرين الثاني/ نوفمبر

وادي وادي القصب كبير وكثير المياه، تعبرُهُ أودية جبلية، تجرف تربته،

وتترك الصخور بيضاء، يرى الماء فوقها رقراقاً نقياً وشفّافاً. وأنّى توجّهْنا صادفتْنا حدائقُ الإجاص والرّمّان والزيتون، في منظر بَهيّ وجذّاب.

قادتْنا هذه المرحلة القصيرة جدّاً إلى زاوية سي لحسن التي استقبلَنا أهلها منذ أيّام بالاحتجاج والتّوعّد والرَّمْي بالحجارة، لأنهم موالون للهيبة، وبمُجرّد أن التحق بنا طابور الزواف القادم من موگادور على الساعة التاسعة صباحاً، وأصبحْنا على مَرمى حجر من القرية أمام أضرحة سي لحسن، أُعطي الخيّالةُ الأمرَ بحصار الزاوية. وإطلاق قذائف مدفعية لترويع السّكّان، وثَنْيهم عن التفكير في حَمْل السلاح أو المقاومة.

المساكن هنا أشبه بالأطلال، لا نبت فيها إلا بعض الضيعات المنتشرة هنا وهناك. وفي ضاحيتها أراضٍ خصبة، فيها أشجار الورديات والزيتون، و"أحواض" اللِّفْت والجَزَر والقَرْع والذُّرَة. وعلى ضفاف الوادي شجر الصَّفْصَاف، ونبات زهر العسل.

بحلول المساء، قُصفت الزاوية بالقذائف المدفعية مُخلِّفة وراءها خسائر ماديّة مهمّة. ولمّا سُئل مقدّم الزاوية عن سبب ما حصل، أنكر بادئ الأمر، لكنه صرّح سهواً أنه ضدّ حكم السلطان مولاي يُوسُف، لتتأكّد معلوماتنا الاستخباراتية أن الزوايا هي التي تزعّمت الحركة المهدوية المناصرة للهيبة علماً أنها فرع للزاوية التابعة لشريف وزان حليفنا القديم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

٣ تشرين الثاني / نوفمبر

أطلقت بعض الطلقات النارية حوالي منتصف الليل من القرية في اتّجاه المعسكر لم تُخلِّف أيَّ خسائر تُذكَر، ليعمَّ الهدوء بقية الليل. ما

قضّ مضجعنا هو شخير أحد السبايسيّيْن، فالرجل المسكين أكل كثيراً من اللِّفْت النِّيء، ممّا تسبّب له في عُسْر هَضْم حادّ، وآلامٍ في البطن.

الطقس هنا بارد وجافّ، بخلاف ما كان عليه الأمر في السواحل، أمّا الهضاب، فصخرية، تُغطّيها أشجار الزيتون. توقّفْنا زوالاً قرب سيدي محمّد بن عمر في شعبة، يجري أسفلها ماء رقراق، يسقي عَرَصَات الكروم والرمان قبل أن يختفي في متوكة التي يستغلّ أهلها كل شبر من أراضيهم التي بدت قاحلة بعد جَمْع المحاصيل ...

أخذنا نطوي المسافة مسرعين قبل حلول الظلام، لأن هذه المرحلة طويلة، تعدل مسافة عشر مراحل، ولمّا وصلْنا قصبة "القايد" المتوگي، استقبلَنا العجوز راكبا جواداً مطهّما، يُزيّنه سرج ورديّ، وعلى يمينه عبد "زنجيّ" يُمسك بخطام جواد آخر بسرج أحمر، ومن ورائه خيالة يقظون، ويصحبه ولداه محماد وإبراهيم، وهما شابّان وسيمان، تعلوهما سحنة سوداء. وجدْنا الكثير من العنت والمشقّة في الوصول لقلعته المعلّقة فوق مرتفع، والمنيعة بين الصخور، وهي تجمع بين الفخامة والعراقة، لأن تاريخ بنائها يعود لمائَتَي عام.

٤ تشرين الثاني / نوفمبر

المتوگي عجوز بظَهْر مُقوّس، يعاني من الروماتيزم، لكنه ذو طاقة فكرية رائعة، وفخور بتاريخ وأمجاد أهله، وإذا تحدّث عن گلاوة تحدّث باحتقار وتنقيص فَهْم، في رأيه، حديثو عهد بالغنى والنفوذ، ولم يكن لهم ذِكْر قبل عشرين سنة، أمّا الگندافي، فلم يتسلّم السلطة إلا منذ أقلّ من قرن، بينما متوگة سبقوهم لبناء هذه البناية الفيودالية منذ مائَتَي سنة، وقال مسترسلاً إن أتباعه جريئون، يطمحون للرِّبْح بشتّى الطُّرُق، عكس جيرانهم

الذين لا يُجاوزون النشاط الفلاحي كزراعة القمح، والتقاط حبّات الأركان، ثمّ أضاف بمرارة مشيراً بإصبعه إلى التلال الرمادية الجافّة، أن محصولهم من الشعير لهذا الموسم هزيل، ولا يُلبّي احتياجات قبيلته. وهذا ما حدا به للتّوسّع في اتّجاه المناطق الأكثر خصوبة وغنى كالكريمات إحدى فخدات للشياظمة الصغيرة، يتكلّم المسكين وهو لا يعرف أننا ننوي السيطرة عليها، وإن أضرّ ذلك بمصالحه ونفوذه.

عُرف عن سي عبد المالك، وهو الاسم الشخصي للمتوگي، بُخلَهُ وقسوتَهُ في تدبير شؤون قبيلته، ولا مكانة لأحد عنده سوى للأضرحة. كما كان متعصّباً لدِيْنه، فهو سأل القنصل الفرنسي ذات يوم "هل سيُكفّر عنه إذا ختم حياته بالجهاد الأخطاء كلها التي صدرتْ منه أيّام شبابه؟".

إن المتوگي من الشخصيات المميّزة، وشامخ شموخ قصبته المهيبة فوق مرتفع، تطلّ على ملتقى وادي موگادور والقصب، لكأني به نَسْر يرابط في وكر منيع، أخو المتوگي هو سي العربي بملامح زنجية، ولحية سوداء، عهد إليه بقيادة الحركة إلى سوس ضدّ الهيبة. أمّا ابناه المحبوبان محماد وإبراهيم، فشابّان يافعان في سنّ العشرين، ضخما الجثّة، ومهووسان بصيد الحمام، والأسلحة، ومُقبلان على متع الحياة ومباهجها، وأقصى ما يتمنّيانه هو الذهاب إلى مراكش، حيث الغانيات وبائعات الهوى. وهما لا يملّان من تشغيل آلة الفونوغراف التي تملأ أنغامها العربية جنبات هذه القلعة "الفيودالية" كلها.

القصر مليء بالصّنّاع التقليديّيْن المتحدّرين من موگادو، والمشهورين بنَحْت الأحجار والخشب وصنع الأثاث، كما كانت الساحات تضجّ بالفرسان، واتّكأ رجال على الأسوار بنظرات قاسية، وصمت رهيب كسيّدهم.

الصرامة والقسوة هما المخيّمان على القصبة، فكنتَ تسمع بين الفينة والأخرى صراخ عبد يُجلَد، أو طفل يُؤدَّب، ومَنْ يدخل سجن القصبة لا يخرج منه. وإذا حضر وقت الصلاة، فلا تسمع سوى صوت الأذان. ورغم رائحة التّعصّب التي تفوح في أركان القصبة كلها، فقد خصَّنا المتوكي، اليوم، باستقبال كبير، وحفاوة لا عهد لنا بها، ووضع رهن إشارتنا غرفاً فخمة، ومائدة فيها ما لذّ وطاب من المأكولات، وفي خدمتنا عدداً كبيراً من الخَدَم، يتناوبون في تقريب الخراف المشوية، والدجاج مع البيض والخبز. وشمل الكرم الخيول والبغال بالشعير الوفير، والتبن الكثير.

بعد الاستقبال، وتبادُل عبارات المجاملة، ألمحَ "القايد" إلى مسألة القيادة، لكنْ، سرعان ما عقّب قائلا: "لنهنأ اليوم بشرب القهوة والشاي، ونُؤجّل الكلام في موضوع القيادة للغد". إن هذا الوجه الساخر، بالعينَيْن الضَّيِّقَتَيْن الماكرَتَيْن والفم المعوجّ لا يعرف الضحك إليه سبيلاً، وحده خليفة السلطان على الجنوب زمن مولاي حفيظ، يعرف نوايا هذا العجوز الذي لا يهمّه سوى توسيع مجال نفوده.

٥ تشرين الثاني/ نوفمبر

قبل أن نغادر، أُتيحت لنا فرصة الحديث مع بوسلهام، مستشار المتوكي، ويده اليمنى، ومستودع أسراره. فقد جمع هذا البربريّ بين التّعصّب الأعمى، والقسوة، وكراهية النصارى. كان طويل القامة بأنف أسيل، وشارَبَيْن غليظَيْن، ولحية بالغ في الاعتناء بها. تحدّث إلينا عن معاناته مع الكريمات بعد أن جعله المتوكي خليفته عليهم، وقدَّم لنا هذا الذئبَ العجوز في صفةِ الحمَل الوديع، وعقّب المتوكي على شهادته "إن بوسلهام هو مَنْ يُهدِّئ من روعي، لما أغضب، وتثور ثائرتي".

غادرْنا القلعةَ القديمةَ وساحاتِها الواسعةَ المُرْلَجَةَ بالحجارة، وممرّاتها الملتوية التي يحرسها العبيد الزنوج والبربر مُتوشِّحين خناجرَ طويلة، وبنادقَ من نوع رومنگتاون حديثة الطراز. ويظهر الخَدَمُ في المطابخ يعدّون "صينيات" الشاي والأطباق الفضّيّة، والماء البارد في الجرّات الأنيقة أو القِرب. وعلى الأسوار العالية، بَنَتِ اللقالقُ أعشاشَهَا، وبَدَتِ الغُرفُ الفسيحةُ مفروشةً بزرابيّ أنيقة، وبأسقف مُنمّقة، وجُدرانٍ مصبوغة بألوان "خفيفة"، تخلّلتْها رسوم بربرية.

ما زالت الواجهة القاسية للأطلس، والجبال المرتفعة ذات الصخور والرمادية إزاءَنا، يُغطّيها الشلوح الشجعان الذين "طوّعوا" المرتفعات، وبنوا مُدرّجات لزَرْع الشعير وسط الحصى.

تحدّث سي عبد المالك المتوگي للعقيد مانجان في الطريق بأسف على ما آلتْ إليه أشجار اللّوز المُزهِرة، ومُتأسِّفاً على الموسم الجافّ، وأراضيه الفقيرة، وتنهّد قائلاً: "بلادي مزروعة بالحصى"، فأجابه العقيد مانجان مجاملاً: "إن أرضاً فقيرة تُنبت رجالاً أقوياء"(*). ثمّ حدّثَهُ عن الهجوم الذي شنّه ضدّه گلاوة القادمون من مراكش، وكيف أوْهَمَهُم أن متوگة ولّوا هاربين، لكنه استطاع أن يُباغتَهم بعد ذلك، ويُفوِّتَ عليهم نشوة النصر.

غادرَنا المتوگي تاركاً مهمّة حراستنا لابنه محماد الذي يصغره بنصف قرن، ومشيراً إلى الخنادق المَبْنِيّة بجوار المعسكر عادّاً إيّاها مُؤشّراً عن عدم الثقة، في حين أن ذلك مُجرّد إجراء عسكري مألوف لدى فِرَقِنَا

*) الغريب أن الرواية الشفوية تحكي أن أحد السوسيّيْن كان برُفقة رجل من الشمال بشعاب الأطلس الصغير، فقال الرجل من الشمال للسوسيّ: هذه الأرض لا تُنبت شيئاً، فردّ السوسيّ: إنها تُنبت رجالاً.

العسكرية، وعقّب قائلاً: "لو علمتُ بأنكم كُنتُم تبنون هذه الخنادق، لأوقفتُ الأشغال، لأن ذلك لا يكون في بلاد الأصدقاء".

واصلْنا تقدّمنا على أرض مُستغلَّة فلاحياً بشكل جيّد رغم طبيعتها الصخرية. أجفلت أمامنا طيور حجل برّيّة رمادية اللون، فعلّق محماد قائلاً: "إن الطرائد تكون وفيرة في المواسم المُمطِرَة، وإن مررْنا من هنا صيفاً، فسنجد أسفل كل صخرة حَيّة، أو ثعباناً". وهي المسؤولة عن سقوط الكثير من الوفيات نتيجة لدغاتها القاتلة التي لا يواجها المُداوون سوى بـ "الحديد الأحمر" أو الكيّ.

بحلول الزوال، توجّهْنا إلى وادي أمرناس، وعَسْكَرْنا فوق مرتفع، نطلّ منه على وادٍ كثير، ينبع من مضيق بين جُرْفيْن، يسقي أشجار الزيتون.

٦ تشرين الثاني/ نوفمبر

بعد أن بتْنا فوق هضبة، انطلقْنا في الصباح الباكر وسط أجواء شديدة البرودة جهة الشرق قُبالَة الواجهة الأمامية للأطلس. ومن فوق الجبل الرمادي، نطلّ على قُرى صغيرة مَبْنِيّة بالطين، تنتشر بين منازلها الخزّانات المائية "نطافي"، لشُحّ مياه الأودية في هذا الفصل من السنة. عبرْنا وادي إمنتانوت المهمّ، لكنه كان جافّاً، شأنه في ذلك شأن وادي شيشاوة الذي يُعوِّل عليه السّكّان لريّ بساتينهم الملأى بأشجار الزيتون. وَصَلْنَا إلى قصبة القاهرة "القيهرة"إحدى الفخذات البربرية، حيث وجدنا تجمّعاً سَكَنياً مهمّاً، اخترْنا أن نقيم معسكرنا تحت أشجار الزيتون على ضفاف الساقية.

جاءَنا بريد من "القايد" المتوگي، يشتكي فيه الحُرّاس القائمين على

ممرّات الأطلس المؤدّية إلى وادي سوس نتيجة الافتراءات التي ألصقَها به أعداؤه الذين اتّهموه بالتقاعس في إرسال فِرَقه العسكرية لمواجهة الهيبة. فكتب للعقيد مانجان "حفظ الله سعادتكم، إن زعماء سوس، والحوز، شرعوا في إطلاق البارود، وأبانوا عن عصيان وتمرّد، في الوقت الذي كُنّا نلجأ فيه لأساليب الإقناع. فرغم المجهودات كلها التي قمْنا بها، فقد أخبروا ممثّلكم بمراكش في غيابكم، أننا لم نُرسِل سوى خمسين رجلاً مُسلّحاً ببُندُقيّة بوحبة (*). لكن ثقتَنا في ذكائكم كبيرة، ويشهد الله أننا لم نُخفِ شيئاً عن جنودنا، بسبب الميثاق الذي بيننا وحكومتكم، حفظها الله! ولعنة الله على الكاذبين والخَوَنَة".

٧ كانون الأول/ ديسمبر

مررْنا بهضبة أسفل الجبل غنية ومحروثة، وقرب أشجار الزيتون الخضراء دواوير مَبْنِيّة بالحجارة الرمادية، وكان الفلاحون البربر وراء عرباتهم الخشبية التي تجرّها أزواج من الحمير أو الأبقار، والأطفال يرعون الأغنام، والنساء تطلّ علينا من الشرفات مَكشوفات الوجه مرتديات أقمصة بيضاء طويلة، يسترنَ شُعُورهنّ بمناديل حمراء، ويرتدينَ شبه وزرة مُلوّنة وهنّ قبيحات الوجه ومُسترجلات. انتصبتْ مزوضة أمامنا صبيحة هذا اليوم بمنازلها المُكعّبة الشكل، والمَبْنِيّة بالحجارة الحمراء بين واديَيْن، يسقيان الحدائق والبساتين اليانعة.

لا يسكن مزوضة سوى القبائل البربرية التابعة لنفوذ لمتوگي الذي عيّن عليهم خليفته عمر، لكنه كان يجد منافسة من أحد الأعيان المَدعوّ محماد

*) وهي المكحلة، أو لمكحلا، وتُجمَع على مكحلات ومكاحل، وهي نوع من بنادق البارود التقليدية المغربية، بعيار صغير، وماسورة طويلة. استُعملت في المجال العسكري بين القرن السادس عشر وبداية القرن العشرين. حالياً، تُستعمَل في استعراضات الفروسية التقليدية المعروفة بالفنتازيا أو التبوريدة.

أحد حلفاء الهيبة الذي كان قد عيّنه "قايداً" عليهم، ولمّا اندحر الهيبة، فقد محماد السلطة، وندم على ما بذله من أموال، من أجل الحصول عليها، وباع لأحد الأوروبيّيْن ساقية غنية، تسقي البلاد كلها، بستّة آلاف ريال (٢٤٠٠٠ فرنك)، لكن المتوگي هو مَنْ أدّى ثمنها، كي لا ينافسه أحد على مجال نفوذه.

محماد هذا، كان أحد أشدّ المعارضين لنا بتأجيجه القبائل ضدّنا. لكنه، بعد فقدان منزلته، أقرّ بعَجْزه عن تدبير شؤون هذه الدواوير، سعى للصلح بادئ الأمر، لكنْ، سرعان ما اختفى.

واصَلْنا الصعود إلى أن بلغْنا القصبة المُطلّة على السهل بساحاتها الفارغة المُرْلجة وغرفها الخالية من الأثاث، لاشيء يُذكَر إلا ساحة سفلية، بها دجاج مرعوب وطيور حمام فوق الشرفات.

٨ تشرين الثاني/ نوفمبر

المشهد هو هو، القِمَمُ المَكسوّة بالثلوج، والجبال التي يتصاعد منها دخان صُنّاع الفحم قرب الحدائق الغنّاء، والأعالي التي ترعى بها حيوانات الأيل، والفهود، والنسور. أمّا القبائل البربرية الغاضبة، فتسكن تلك المرتفعات المَنسية، ولا تنزل إلى السفح، فهم فخورون بقطعانهم، ومحاصيلهم، ومُستقلّون عن السلطان، ورافضون للحماية و"العبودية".

كان لقرية أمزميز موقع رائع في مدخل الوادي، وكأن الجبل إطار رائع لصورة المسجد والصومعة والمنازل المَبْنِيّة بالطين الأحمر، والمتراصّة في طَرَفيَ الوادي، والقصبة ذات الأسوار العالية، والفناءات المُربّعة التي تُطلّ على الوادي المَكسوّ بأشجار الزيتون الممتدّة. يطالب سُكّان أمزميز

أن يكون "القايد" الذي يحكمهم منهم، فولد عبّاس تُوفيّ دون أن يترك عقباً، وعيّن المخزن بدله "قايداً" غريباً عن البلاد، وهو الگندافي الذي استمرّ في مهامّه طيلة إحدى عشرة سنة، وعبد العزيز سقط مُؤخّراً، وخلفه عبد الحفيظ، وعوّض الگندافي بأحد أتباعه المتوگي الذي دام حكمه أربع سنوات، ثمّ عيّن عليهم الوزير المَدَني الگلاوي الذي سلّم السلطة لأخيه الحاجّ التهامي. وهذا دليل على أن المغرب بلد لا يعرف الاستقرار. وتستمرّ اليوم العادة، حيث تكلّفنا بإرجاع الگندافي للقبيلة التي حكمها مدّة طويلة مكافأة له عن وفائه.

توقّفْنا زوالاً بسوق الخميس، وهي قرية موجودة في قَدَم الجبل وسط خضرة رائعة لغابات الزيتون والجوز وغيرها، ويحفّها الماء من كل جانب، تتوسّط هذه الغابة قنطرة حَجَرِيّة، تربط بين أطرافها، كأنكَ بضواحي بروتاني. تابعتْنا البربريات المكتنزات اللواتي كنّ يرعينَ أبقارهنّ باندهاش كبير، وهنّ ينشرنَ غسيلهنّ فوق الحواجز الشوكية، فتذكّرنا قرى Pont-Aven وMorbihan. أمّا الأوضاع الاجتماعية، فشبيهة بـ Bretagne القديمة.

صادف هذا اليوم ثورة الفلاحين البربر بأمزميز، للإطاحة بسيّدهم الگندافي، واستبداله "قايداً" "فيودالي" آخر، هو الگلاوي ...

٩ تشرين الثاني/ نوفمبر

تمتدّ الطريق خارج أمزميز عبر وادٍ، تُغطّيه أحجار الكوارتز الأبيض، والگرانيت الرمادي المنقّط بالأسود، والبازالت الغامق اللون، وأشجار الدفلة ...

واصلْنا السَّيْر على الهضبة المحروثة بين أشجار الزيتون، ثمّ انحرفْنا عن الطريق العريضة المؤدّية لمراكش، لنعبر وادي نفيس، فوجدْنا أنفسنا

في أومناست، وهو تجمُّع سَكَني كبير، يسكن أهله مُربّعات من المنازل المصبوغة بالجير الذي يعكس أشعّة الشمس الساطعة.

عَسْكَرْنَا وسط الأعشاب الطويلة، وبين أشجار الزيتون، وجداول المياه قرب قصر "القايد" السكتاني (*) ذي الشّعْر الطويل، كعادة البربر، وهو من "القياد" المسالمين. نحّاه السلطان عن منصبه، وعيّن جاره الگندافي بديلاً عنه، وهو مَنْ يملك معظم أراضي بلاد أگرگور، وأشجار الزيتون في وادي نفيس قرب القنطرة التي بناها المولى عبد الرحمان.

بين الأجراف منبع ماء مزدوج، يجري على منحدر أسود من الشيست، يبلغ طوله ثلاثين متراً. تكون مياه الوادي في هذا الفصل شفّافة، تُرى من خلالها الأسماك الفضّيّة. استطاعت تلك القنطرة الصمود في وجه السيول والأمطار إلى اليوم، لكن سي عمر لم يستطع الصمود أمام الهجومات المتتالية التي عصفتْ به.

و سرد علينا بكثير من المرارة والأسى كيف أن السلطان عبد العزيز استدعاه إلى فاس، واعتقله، وأمعن في إهانته، لمّا جرده من بلاد أگرگور، وأولاد امطاع، وسلّمها للگندافي النازح من الجبل ... وكيف رجع بعد المحنة، ليقف على أطلال منزله الذي خرّبَتْهُ حرَ ة الگندافي، فبنى قُربه بيتاً آخر. لكن هزيمة غريمه الگندافي أمام المتوگي شَفَتْ غليله، وأثلجتْ صدره. وواصل مبتسماً: "كم فرحتُ لمّا علمتُ أن المتوگي اغتَصب من الگندافي بلادَ أولاد مطاع التي حَرَمَني منها". واسترسل قائلاً: "كُنتُ أعطي المخزن في حالة الحرب خمسين من المشاة، وخمسة وعشرين من الفرسان، أي ضعف ما يعطيه الگندافي". ثمّ واصل "مفتخراً" "أنا،

---

*) القائد عُمر السكتاني: خضع للفرنسيّيْن منذ السنوات الأولى للحماية، وقبل أن تصل القُوّات العسكرية إلى سوس. وعند وصولها، حَظِيَ بدَعْم فرنسا.

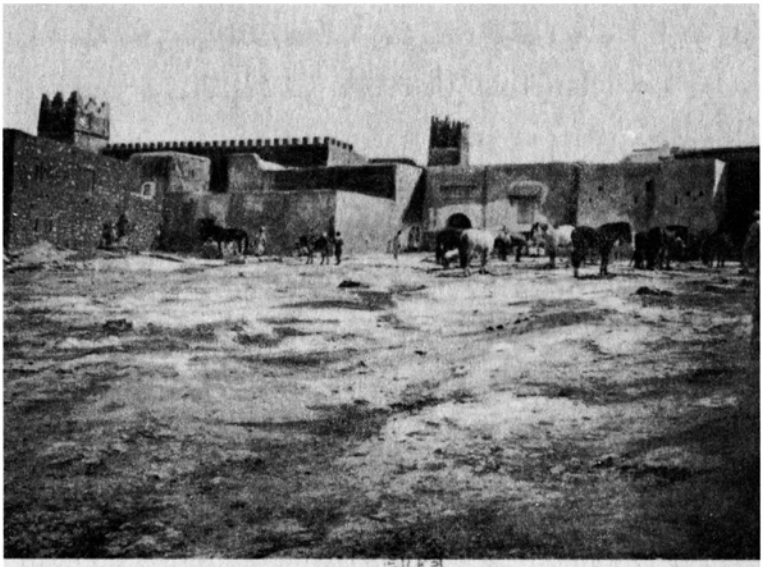

ENTRÉE DU DAR CAÏD M'TOUGUI

Voir page 119.

الآن، صديق للفرنسيّيْن، وكُنتُ من السّبّاقين، مع گلاوة، لإجلاء الهيبة عن مراكش، لذلك فأنا أطمع في كرمكم، كما أكرمتُم الگندافي، خاصّة أن أمزميز، واگرگور أكبر من أن يحكمهما رجل، لم يكن قائداً إلا على قبائل الجبل، وسوس". تجاهلْنا تلميحه، وتغاضيْنا عن تذكيره بمعاداة وحرب الجنرال "داماد"(*) في سهول برشيد، واكتفيْنا بالقول: إن الگندافي لم يقنعْ بما أعطيناه، بل يطمع في ضَمّ البلاد التي تحكمها.

الگندافي غنيّ وطموح، فقد أُخبرْنا أنه اشترى مناجم الذهب "لرعاياه"، وأن الجبل زاخر بالفضّة والنُّحاس. وأضاف قائلاً: "على الحكومة الفرنسية أن تستغلّ هذا كله". إنه شيخ هادئ، مبتسم، وودود، وذو دعابة، وروح مرحة، من ذلك، مثلاً، قوله: "لو لم أكن مريضاً، لما مرّ الهيبة من الجبل، ولحظيتُ برضا الفرنسيّيْن".

انظرْ لهؤلاء "القياد" المتمرّدين، المهووسين بالعظمة، العاشقين للعنف، المستعدّين لقَتْل بعضهم البعض تزلّفاً للسلطة الأكبر، وطمعَاً في العطاء الأوفر. ومن ذلك، اتّهام الگندافي للگلاوي بأنه لم يقمْ بأيّ حركة إلى سوس، و"أن رجاله لم يحاربوا، وأنهم كذبوا في ادّعائهم غنيمة مدفع للهيبة".

١٠ تشرين الثاني/ نوفمبر

دخل الطابورمراكش عبر سهل كثير الحصى بدءاً من دار السكتاني. وكانت تامصلوحت التي تأوي الشريف المحترم أشبه بواحة وسط سهول رتيبة خصبة، لكنْ، لا أثر للأشجار فيها.

---

*) الجنيرال ألبير جيرار ليو داماد Albert Gérard Léo d'Amade (١٨٥٦ ـ ١٩٤١): بعد تخرّجه في مدرسة سان سير العسكرية المتخصّصة، جذبتْه إفريقيا الشمالي الفرنسية. منذ سنة ١٩٠٧ كانت مهمّته في المغرب تهدئة قبائل الشاوية، ثمّ طَرْد مُتمرّدي السطات والمداكرة خارج المنطقة.

الفصل السادس
عند مسيوة

١٤ تشرين الثاني/ نوفمبر

كانت تنتظرنا مهامّ كثيرة، من ذلك أن سي المَدَني كبير گلاوة لاحظ أن أخاه الباشا الحاجّ التهامي، والوزير الأوّل لمولاي حفيظ، لم يعد يُحكم قبضته على مسيوة، فبدؤوا يستخفّون به، ويتجاهلون أمره ونَهْيه. فقرّرْنا العروج على هذه القبيلة التي بدأت تنتشر فيها الفوضى انتشار النار في الهشيم، ولا يمكننا أن نبقى مكتوفي الأيدي، ننتظر وصولهم إلى أبواب مراكش.

يبلغ عدد سُكّان مسيوة ستّين ألفاً، ينقسمون إلى فخذَتَيْن هما: أولاد گينجي وأولاد إمينزرت نسبة إلى واديَيْن، يعبران المنطقة. وهم بربر فاحشو الثراء، تسكن الفخذة الأولى السهل الموجود في الجنوب الشرقي لمراكش، بينما تسكن الأخرى الجبل المجاور. وهم يرفضون قيادة سي المَدَني الذي ولّاه السلطان عليهم، وتمكّنوا من نسج علاقات وطيدة مع الهيبة بتارودانت.

وجدنا دواويرهم خالية، ومنازلهم المَبْنِيّة بالطين الأحمر لا تكاد تظهر وسط حقول الذّرَة، وأشجار الزيتون الكثيفة. احتموا بالجبل، ولمّا شاهدوا الطابور، أشعلوا النيران، ليُعلِم بعضهم بعضاً بوصولنا. التحق بنا سي المَدَني الذي سبقَنا منذ شهر مع محلّته المُكوّنة من مائة من الخيّالة، ومائَتَيْن من المشاة، يرتدي معظمهم برانس سوداء، تتخلّلها خطوط حمراء.

قدم مبعوث من عند المتمرّدين، بلباس بائس، وأسارير منطلقة، وهدوء واثق. وسلّمناه بدورنا رسالة، عجز عن إيصالها. ذلك أن مغاربة آخرين قدموا يحملون بطائق، تُثبت أنهم مَحميّون أوروبيّون، وطلبوا من العقيد مانجان أن ينتظر مجيء الأعيان الذين أُرسلت لهم دعوات للحضور غداً صباحاً. فإن لم يأتوا، صعدْنا إليهم في عُقر دارهم.

١٥ تشرين الثاني/ نوفمبر

لم يأتِ مسيوة، ليُعلِنُوا طاعتهم، وإنما بعثوا قاضياً مفاوِضاً، لربح مزيد من الوقت، وتأجيل الحسم في الموضوع. كان شيخاً هادئاً، يتكلّم بحكمة وتعقّل، ويعلم مُسبَّقاً أن مساعيه ستبوء بالفشل. وأخبرناه بلهجة حازمة "أننا أمهلْنا مسيوة أكثر من اللازم، وأن ساعة الحسم قد دقّت". كان الشيخ يسمع، وهو يمسح بين الفينة والأخرى لحيتَه، ثمّ ولّى مُطرِقاً نحو الجبل.

بعد ليلة باردة، نعمْنا بدفء الشمس عند الزوال تحت أعين الأطلس الذي يطلّ علينا بعمامته البيضاء كرجل وقور، فانطلقْنا نحو تاسريموت، تلك القلعة القديمة التي لم يبقَ منها سوى أطلال على قمّة جُرْف، هو قلب بلاد مسيوة. وباقترابنا من الحدائق والقصبات المَبْنِيّة على مشارف الجبل، شرع رماتهم في إطلاق النيران، ولمّا ردّتْ عليها مدافعنا. جاءنا القاضي العجوز مهرولاً ومذعوراً، لكن أهله لم يُمهِلُوه، فأردُوه صريعاً، لما رأوا فيه من جُبن وخَوَر!

صعد الحَرَس الأمامي السنغالي المرتفعات مندفعاً بقُوّة، وحماس يحمي ظهره الطابور كله. فأرغم العدوّ على التراجع نحوتاسريموت، وواصل الرجال تمشيطهم للأطلال المعلّقة على ارتفاع ألف ومائتَي متر، ليُحكِمُوا سيطرتهم، أخيراً، على الممرّ المؤدّي لقرية تأوي العديد من مشاة العدوّ

الذين أصابوا بعض رجالنا، وقتلوا أحد السنغاليّيْن برصاصة، حطّمتْ فكّه، فحمله أصدقاؤه على بغلة، وواصلوا تقدّمهم.

ولمّا أردنا النزول من ذلك المرتفع، واجهتْنا منحدرات صخرية خطيرة، لم تستطع بهائمنا اختراقَها، فغيَّرنا وجهتَنا نحو الوادي، لنبدأ الوثب فوق الصخور، إلى أن وَصَلْنَا مُنهَكِين لوادي گينجي، فتبادلْنا نظرات النصر، ونحن نتذوّق ماء النهرالأُجاج.

انتهزْنا فرصة انشغال العدوّ بالرّدّ على قذائف المدفع، لنتقدّم مُتسلّلين في سرير الوادي، لكننا وجدناه ضيّقاً، ومليئاً بالحواجز الصخرية العالية، فاضطررنا للمشي فوقها حبواً، وبحذر شديد، لأن أيّ زلّة قَدَم ستُكلّفنا الدَّفْن في منحدر سحيق ...

قام الفيلق بمجهود رائع للخروج هذا المأزق، واختراق هذه المرتفعات الصعبة، والغريب أن بغلاً سقط من ارتفاع ثلاثين قَدماً، ولم يُصَبْ بأذى، لكنه حَرَنَ، وأبى أن يحمل أكياس الرصاص الثقيلة، فرفعها السينغاليون فوق رؤوسهم، وتسلّقوا المرتفعات. وأُعجب الحاجّ التهامي كثيراً بقُوّة تحمُّلهم، وقال "أخبرتمُوني عنهم، لكنْ، لم أكن أتوقّع أن تكون لهم هذه القدرة كلها على التّحمّل".

وكنّا نرى الكثير من المسيوويين، رجال الحاجّ التهامي، يركضون فوق تلك المنحدرات برشاقة وانسياب، فقدَّمهم للقبطان بيلانجي Belanger، ضاحكاً: "لا تقلقْ، مادام معكَ هؤلاء الرجال". لحق بنا الحاجّ التهامي الجريء مع خيالته، لشَنّ هجوم مضادّ بعد أن شتّتَتْ قذيفة شملَ الأعداء.

ودخلْنا المعسكر ليلاً بعد أن برهنَ الحاجّ التهامي عن رباطة جأش، وشراسة محارب، لأن الدماء البربرية الأصيلة تجري في عروقه ...

١٦ تشرين الثاني/ نوفمبر

تمكّنّا من السيطرة على بلاد مسيوة بسرعة، لأننا سخّرنا ثلاثة طوابير، اجتمعت عند نقطة وادي إمنزات، ثمّ تلتْها تجريدة، تقود الجمال المحمّلة بالأمتعة، بينما تسلّل العقيد مانجان عبر الجبل.

أصبحت المرتفعات والشِّعَاب والمنحدرات الصخرية في تاسريموت ممهّدة، وخالية من الأعداء، والطريق أكثر جمالاً وهدوءاً بين أحضان وادي تاسليت بأراضيه الخصبة وأشجار الدردار، والزيتون، والخروب.

رمانا العدوّ بطلقات نارية، فردّ عليها المدفع بقذائف، استهدفت القصبات في أعلى الجبل. فتفرّق المدافعون فارّين بين أشجار الزيتون، ليلتحقوا بإخوانهم الذين رأيناهم يتحرّكون كنقط سوداء فوق المرتفعات المنيعة، والإشراف على ما يحدث في السَّفْح ..

كل نقط الماء التي مررْنا بها شديدة الملوحة، اتّخذها السّكّان ممالحاً فقط. ثمّ غمرتْنا فرحة عارمة، لمّا وجدنا وقت الزوال عينَ ماء عذب، فأقمْنا بجانبها لالتقاط أنفاسنا، وأخذ قسط من الراحة.

غربت الشمس والمسافة بيننا وبين الطابورَيْن الآخرَيْن لا تزال بعيدة. ثمّ طلع القمر بضوء خافت وسط ليل، تحالفت ظلمته الحالكة مع برد قارس، ارتعدتْ له فرائصنا. خُيّل إلينا أن هذه الجبال لا نهاية لها ...

وأخيراً كشف أحد مداخله عن فتحة عريضة، ظهرت عبرَها أرض، غطّتْها أشجار نخيل، وقبع أحد الأضرحة بقبّته البيضاء على أحد المرتفعات، وصعدتْ خيولنا المضيقَ نحو الثلوج الناصعة البياض كتلك البحيرة الفضّيّة التي مررْنا بها بوادي إمينزات. عبرْنا آخر تجمُّع لأشجار الزيتون،

لنرى في العتمة أدخنة المعسكر تتصاعد، لأن رجالنا كانوا قد سبقُونا إلى السهل، فنصبوا الخيام.

١٧ تشرين الثاني/ نوفمبر

اتّخذنا هذا اليوم يوم عطلة للجميع عسى أن تتعقّل مسيوة، فتُعلِن خضوعها واستسلامها. كما أن رجالنا صادفوا كثيراً من العَنَت والنَّصَب خلال هذه المراحل الشّاقّة، فكانوا في مساس الحاجة إلى الراحة، خصوصاً ذلك الفيلق السنغالي الذي مشى لمُدّة خمس عشرة ساعة كاملة، منها ثلاث عشرة كلها في تسلُّق ذلك الجبل العنيد، مع قضاء ليلة، تكدّس فيها الرجال في خيمة واحدة تحت رحمة برد قارس. ليستقبلهم الصبح بصقيع، يغطّي العشب وحطب التدفئة، نزلت درجة الحرارة إلى ما دون الصفر، بدرجة أو درجَتَيْن. فبقي الجميع: الزواف، و" المستعمرون" والجزائريون، والمغاربة، والسودانيون، يرتعشون حتّى حدود الساعة التاسعة.

قرّرت مسيوة، أخيراً، العودة إلى رشدها، وإعلان الطاعة والاستسلام. وها هم الأعداء الذين كانوا يُصوِّبون إلينا بنادقهم يوم السادس من أيلول/ سبتمبر بسيدي بوعثمان يقدّمون لنا، اليوم، الخرفان والعجول. وابتهج الحاجّ التهامي، وأخوه سي المَدَني وگلاوة جميعهم، فقد أصبح الوزير الأوّل السابق، وأشهر أعيان البربر يحكم قبيلة غنية وكبيرة من قصره بمراكش، شأنه في ذلك شأن السلاطين بقصر فاس.

وكان المسيويون يعدّون أنفسهم القُوّة التي لا تُقهَر، وكانوا يُفاخِرون بأن "المْحلات" الشريفية جميعهم توقّفت عند حدود تاسريموت، ولم تتجرّأ على تخطّي أسوار عالية فوق أجراف، يناهز علوّها ألفَي ومائَتَي متر. لكنهم اليوم يُهرعون لتقديم الهدايا، واستجداء المغفرة.

١٨ تشرين الثاني/ نوفمبر

سلكْنا مساراً يمرّ عبر مسيوة، ثمّ قبيلة تگانة البربرية التابعة لسي المَدَني، إلى أن وَصَلْنَا زمران العرب البالغ عددهم عشرة آلاف نسمة، يسكنون سهلاً، أرضه خصبة، ومياهه وفيرة.

زاوية سيدي رحال تجمُّع سُكّاني لحوالي ألف نسمة، يستغلّون أراضٍ واسعة مزروعة بالقمح والشعير، وتُغطّيها أشجار الزيتون على طول وادي غدات، الحَيّ اليهودي داخل السور الأحمر، بينما أطلال الحَيّ العربي تطلّ على السقف الأخضر للزاوية القابعة فوق مرتفعات الضّفّة اليمنى.

استنشقْنا هواء نقياً وبارداً، وعلى أوراق الزيتون الخضراء تتألّق قطرات ماء، تعكس أشعّة الشمس المُطلّة على الأطلس، ممّا أضفى على المكان روعة وجمالاً ...

جاءت قبائل زمران للقائنا كل قبيلة على حدة، لأن بينها تنافُس قوي على الزعامة، لذلك تسابقوا لنَيْل تأييدنا بتقديم هدايا وقربات مميّزة للتعبير عن كرمها وجدارتها بالقيادة ... فهذه خراف مَشويّة، وهذه فراخ دجاج "محمرة"، وأخرى حَيّة مع بيوضها، وهذا كسكس، وأرغفة من دقيق القمح الخالص، وجرّات زيت، و"قلاليش" سمن، وأطباق من العسل المُقطّر أو في "شهده"، والجوز، واللّوز المُملّح، وحمولات من التمر أنيق، وأنواع من الحلويات.

واستقبلَنا اليهود بحفاوة، تتقدّمهنّ النساء، اللواتي يضعنَ على رؤوسهنّ مناديل مُلوّنة، ويرتدينَ قِطَع ثوب مُنمّقة بالذهب والفضّة، وهنّ يزغردنَ، ويعزفنَ بطعاريجهنّ، في حين يقدّم رجالهنّ صحون الحليب على الطريقة التقليدية. وانعقد في الليل اجتماع كبير، حضره مجموعة من

"القياد" تخاصموا، وتبادلوا الشتائم. وانحصرت المنافسة بين رجلَيْن أكثر مصداقية ومروءة، لكنهما لم يلقيا الإجماع المأمول من الفخذات جميعها التي تشبّثتْ بموقفها بأن يكون لكل فخذة "قايد"! فاستحال الوصول لحَلّ يُرضي الأطراف كافّة.

لا شيء كان على ما يرام: فالمقبرة تهدّمت مدافنها، والزاوية التي قيل عنها إنها عتيقة في حالة يُرثى لها. أمّا الملاح، فمظهره الخارجي الأنيق يخفي مأساة حقيقية، أبطالها البؤس والفقر، وتعرض فصولها في أكواخ، تؤثّثها القاذورات والأوساخ.

١٩ تشرين الثاني/ نوفمبر

تأخّر الطابور في الاستيقاظ، وكان هذا مَدعاة لفرح الرجال الذين اعتادوا النهوض قبل طلوع الفجر، وشرب القهوة الساخنة بسرعة قبل أن يشرعوا في تحميل الأمتعة بأيد مُتجمّدة. أصرّ سي المدَني، أخ الحاجّ التهامي، على مرور الطابور ببلاد گلاوة بتازرت التي لم تعد تفصلنا عنها سوى ساعة ونصف.

سار الطابور تحت أشعّة الشمس، تحرسه المئات من فرسان گلاوة المزَهوّين بالبرانس والنياشين، وكانت الحلقات المعدنية لبنادقهم "الحجرية" "بوحبّة" تلمع كالخواتم الفضّيّة، يتبعهم الراجلون مُهروِلين ومُحمَّلين بالذخيرة الكافية من البارود، بملابسهم السوداء المثيرة، وقبّعاتهم المُسنّنة والمُذيّلة بخيوط حمراء مُذهّبة، بينما يتقدّم الجميعَ النافخون في المزامير، والضاربون على الدفوف.

قضيْنا يوماً جميلاً في هذا السهل الأخضر وسط التلال الغربية الزرقاء

للرحامنة التي واجهْنا فيها الهيبة، على مَرأى من الجبال الشرقية الخضراء للأطلس، كُنّا نتحرّك تحت الغبار الخفيف الذي تُثيره حوافر خيولنا، فتُلوِّنه أشعّة الشمس بخيوط ذهبية.

دقّت الساعة التي نحتفي بها بگلاوة كما احتفوا بنا، فاجتمع الطابور لتقديم الاستعراض المرتقَب، وارتدى الزواف ملابسَ رمادية، و"المستعمرون" ملابسَ من الثوب "الكاكي" الأصفر المصبن، والمدفعيون بدلاً عسكرية غامقة اللون، ووضع السنغاليون شاشيّاتهم الحمراء، بينما ارتدى الجزائريون ملابسَ خضراء، فشرعوا في تحريك الأرجل على إيقاعات الطبول. وأُطلقت مئات القذائف في الهواء، ثمّ جاءت البغال بآذانها المتيقّظة، والجمال والحمير بخُطاها المتثاقلة، تبعتها حارة الخيّالة المُشكَّلة من القنّاصة الأفارقة ببِذْلاتهم الزرقاء، والسبابيسيّيْن بعماماتهم البيضاء التي يبرعون في طيّها، بمرونة وسرعة مع سيوف لامعة واضعين بنادقهم على سيقانهم اليمنى، أمّا الرماة السنغاليون الضخام، فيمتطون مهورهم السودانية.

أُقيم المعسكر على الضّفّة اليمنى لوادي تازرت قُبالَة الوادي الذي يُغلقه الأطلس بحاجزه الكبير المصبوغ باللون الأزرق الغامق والوردي قرب القصر "الفيودالي" الكبير لسي المَدَني بين الأسوار العالية ذات الأبراج الأربعة.

تخلّف سي المَدَني لتسوية أمور مسيوة. فناب عنه في استقبالنا الحاجّ التهامي وابنه المَدَني المُسمّى سي حمو بعدما نصبوا خياماً سوداء كبيرة، غُطّيت بستائر خضراء، وفُرشت بزرابي تسرّ الناظرين من نسج نساء گلاوة اللواتي استخلصنَ أصوافها من الأغنام الجبلية. أخذ ثلاثون ضابطاً أماكنهم في حلقات صغيرة حول أطباق كبيرة، مُلئت باللحم والكسكس. ثمّ جاء

سي المَدَني، ليشرب معنا كؤوس الشاي، تعلو وجهه ابتسامة عريضة، لأنه نجح في مساعيه مع مسيوة الذين أقرّوا بخضوعهم لسلطته.

حمل إلينا بريد نبأ انتصار حركة گلاوة ضدّ أيت يحيى، ووصول الخيّالة إلى حدود تارودانت مقرّ الهيبة الكذّاب. وخُتمت الرسالة بالقول: "تفرّق الأعداء في الغابة مثل الذئاب، وأخذنا منهم كل ما أمر الله به، وهذا نصر كبير لدِيْن الله"، ورغم خسارتهم بعض الخيول والبغال، كما هو الشأن في الحروب كلها، فقد عبّروا عن ابتهاجهم بهذا النصر.

الفصل السابع
في اتّجاه دمنات والقلعة

٢٠ تشرين الثاني/ نوفمبر

غادرْنا تازرت في اتّجاه دمنات عبر طريق عريضة، تخترق أراضي زمران السوداء والخصبة، والساقية الرائعة للسلطان ذات المياه الوفيرة، وسرعان ما تغيّر المشهد، لنجدَ أنفسنا فوق أرضية كثيرة الحصى، أعاقت تقدّم الخيول، لكننا وجدْنا منفذاً، نطلّ من خلاله على القمَم الزرقاء التي تناثرت فوقها بقع ثلجية. إنه ممرّ وادي تساوت الذي يعبر بلاد السراغنة في طريقه إلى أمّ الربيع. هذا المكان الذي حاول فيه السلطان عبد العزيز سنة ١٩٠٨ قَطْع الطريق أمام مولاي عبد الحفيظ الخليفة الثائر بمراكش الذي أضفى على نفسه "قداسة" لتبرير دخوله فاس، وطَرْد أخيه الذي باع بلاده للكفّار. فكانت النتيجة أن اندحر عبد العزيز، لأننا لم نمدّه بالمَدَد الكافي لانشغالنا بجبهات أخرى أوّلاً، ولبطء تحرّك طابورنا الذي لزمه خمسة أيّام للتّحرّك من الشاوية ثانياً، كما لم تكن لبعض الضّبّاط المرافقين للمحلّة خبرة وفعالية.

فاندلعت المواجهة قرب قرية يهودية صغيرة مجاورة لوادي تاساوت عند سفح الجبل، انتهت بهزيمة العزيزّيْن شرّ هزيمة أمام الحفيظيّيْن، وبينما كانوا فارّين قام السراغنة بنَهْب المحلّة أوّلاً، لتأتي قبائل بني مسكين على ما تبقّى منها ثانياً. فرجعت المحلّة تجرّ أذيال الخيبة إلى گيسر، حيث كان يُعسكِرُ الطابور الفرنسي. ووصل السلطان البائس تحت حراسة ضُبّاط البعثة شبه عراة ..

عبرنا وادي تساوت البالغ عرضه حوالي خمسين متراً، وهو يسقي حقولاً، ترتفع على سطح الأرض بمائة قَدَم. على ضفّته اليمنى زاوية تاگلآوة التي أسّسها السلطان سيدي محمّد بن عبد الله لخلق للتأليف بين قلوب زمران، وفطواكة، والسراغنة المتجاورين، تتوسّطها قبّة بيضاء، تأوي ضريح سي التهامي.

بحلول الزوال، وَصَلْنَا تخوم "تيديلي" هذه القرية التي انتشرت على ضفَّتَي واديها ضيعات أشجار الزيتون الكثيفة. مرّتْ بنا وفود عديدة لفطواكة الذين

يتستّرون على إخوتهم المتمرّدين على كل سلطة، والمعتصمين بالجبل. أمّا السراغنة المتّهمين بالتّمرّد والفوضى إثر أحداث الهيبة، والاضطرابات العنيفة التي أحدثوها في أثناء دخولنا مراكش، فقد حاولوا التكفير عن ذلك كله بغَمْرنا بالهدايا:خشب التدفئة، والزيت، والشموع والسّكّر. وأخبرونا أن من عادة المغاربة ألا يخوضوا في أيّ حديث أو نقاش إلا بعد عشاء فاخر تحت أنوار ساطعة ...

٢١ تشرين الثاني/ نوفمبر

الطريق إلى دمنات هي الحدّ الفاصل بين فطواكة البالغ عدد سُكّانها عشرين ألف نسمة، والسراغنة الذين يتجاوز عددهم السّتّين ألفاً. وهي تخترق سهولاً منبسطة ذات تربة خصبة، وخالية نسبياً من الحجارة، لكن الخيول عانت من النباتات الشوكية التي أدمتْ بطونها وقوائمها. ثمّ عرجنا بعد ذلك على دار جاكير عند قَدَم الأطلس في الجنوب الشرقي وسط أشجار الزيتون، بعدها دار المودن "القايد" القوي الذي تخضع له قبائل السراغنة وفطواكة فوق مرتفعات الجهة الأخرى من الطريق. ودّعْنا آخر فخذات السراغنة "الخلوفيّيْنْ" المقيمين فوق سهل غنيّ بأشجار الزيتون، لنعبر "وادي المهاصر" أحد روافد أمّ الربيع وواد دمنات.

Voir page 140

TAZERT. — RÉCEPTION CHEZ LES GLAOUA
(Novembre 1912)

بدت دمنات تحت أقدامنا بيضاء مستلقية وسط غابة الزيتون في المرتفعات الزرقاء للأطلس، تحرسها القِمَم البعيدة المكسوّة بالثلج الناصع. يتراوح عدد سُكّانها بين خمس عشرة إلى ثلاثين ألف نسمة، كانت عُرضة لغارات القبائل المجاورة، لذلك تحصّنت بين الأسوار العالية، وكان السلطان قد بنى داخلها قصبة، لم يبقَ منها اليوم سوى أطلال متداعية بأصباغ زاهية، وسقف من أخشاب رائعة، وبقايا زليج باهت. ولمّا فتح سي المَدَني إحدى غرفها العالية، انبعثت منها برودة شديدة، فعلّق متأسّفاً: "كانت القبيلة سابقاً تعيش في أمان، وكان هذا المنزل في أحسن حال". وعند خروجنا، شاهدنا مدفعَيْن من نوع krapp موضوعَيْن تحت السواري بالقرب من السور، مرزْنا وعيون النساء غير المحتجبات يراقبْنَنَا بفضول واندهاش.

اخترْنا أن نُعسكر فوق المرتفعات المُطلّة على المدينة، لأننا سمعْنا حركة مُكوّنة من تادلة وانتيفة وقبائل أخرى تتهيّأ على بُعْد ثلاث مراحل من هنا للإغارة علينا، شَكَكْنَا بداية الأمر في صحّة الخبر، لكن تلغرافاً وَصَلْنَا من مركز بن گرير أكّد الأمر. توجّسْنا من بعض الطلقات النارية الصادرة من بين أشجار الزيتون قريباً من المعسكر، كما وصل أحد جواسيسنا مساء يُخبرنا أن الحركة أرسلت مبعوثين إلى القبائل المجاورة كلها، وأنها متى استجمعت الفِرَق الحربية الكافية، ستبدأ هجومها غداً. علمْنا، كذلك، أن عددهم حوالي تسعمائة فارس، وألف وخمسمائة من المشاة، مَدعومين بالدواوير التي يمرّون عليها، فتمدّهم بالمؤن، وإعداد الوجبات، وكؤوس الشاي، التي يُفترَض أن تكون من نصيبنا.

٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر

قضيْنا اليوم بكامله بدمنات، بينما كانت القبائل المتربّصة بنا على

أتمّ الاستعداد لمواجهتنا، ومن حسن حظّنا أن أهل تادلة تراجعوا في آخر لحظة عن الالتحاق بالحركة، فدبّ إليهم الانقسام، وفَشَا فيهم الاضطراب.

رافقتُ القبطان Benoit إلى شلال إمين إفري شرق دمنات. ثمّ رجعْنا المدينة عند الخليفة، ليمدّنا بأحد السبايسيّيْن الخيّالة، ليدلّنا على الطريق. ورفع العجوز يَدَيْه إلى السماء قائلاً: "ماذا تريدون أن تفعلوا؟ فهناك خطر حركة أيت شيتاشن وإدواردن، مستحيل! هذا مستحيل! أن آذن لكم". ولمّا ألححْنا عليه في الطلب عيّن فارساً معزّزاً باثنَيْن من المشاة مسلّحين لمرافقتنا. عبرنا الباب الشرقي بمحاذاة الساقية، ذات الماء الصافي الذي يُحرّك بسرعته طواحين عدّة، وكنّا نمرّ من ضفّة إلى أخرى عن طريق جسور، بُنيت من الحجارة وسط أشجار الزيتون الكثيفة، وأشجار من فواكه شتّى، وحقول مُحصّنة من الجزر واللّفْت.

منذ أن انطلقْنا والمرشد يتوجّس خيفة من أيّ نسمة أو حركة مريبة، وبدأ يتهيّأ له أنه يرى فوق كل مرتفع عيوناً تلاحقُنا، أو مقاتلين يتسلّلون بين الأشجار الكثيفة. وحقّ له ذلك، لأن الطريق كانت ملتوية، فقد يُنصَب لنا كمين في أيّ منعطف، لا سيما أن الأشجار الكثيفة تؤمّن لأيّ عدوّ غطاء ساتراً.

وظهر أمامنا تجمُّع سَكَنيّ فوق مرتفع، يطلّ على وادي المهاصر، فسِرْنا بمحاذاته تحت أعين المراقبين من الشرفات والحدائق، وأخبرنا المرشدون أننا أمام زاوية أو مغار، التي حذّرَنا سُكّانها من العدوّ المرابط في الجهة الأخرى المقابلة للجبل. وأمام إصرارنا على المضي قُدُماً، رافقونا، لنعبر ذلك المسلك الضّيّق من جديد، وكنّا نراهم يتسلّقون المرتفعات بخفّة ورشاقة كالقطط، ولا يتوقّفون عن إصدار صيحات تنبيه، ويلتفتون ذات اليمين وذات الشمال، وإذا رابهم أمر، أعطونا إشارة بالتّوقّف، إلى أن وَصَلْنَا القنطرة الحجرية، فاستوقفونا طويلاً، لأننا إن اقتربنا منها، سنصبح

على مَرأى من العدوّ، فوجدتُها فرصة مواتية لتأمّل ذلك السّدّ الحجري المشيد بدقّة متناهية، لكن المستطلعين سرعان ما طمأنونا بأن الطريق آمنة، فواصلْنا تحرّكنا وسط أشجار الزيتون والجوز ودوالي العنب المطلّة من وراء أسوار الضيعات.

بعد وقت يسير، مثلتْ أمامنا، بين الأجراف العالية، القنطرة الطبيعية لإمين إفري على ارتفاع مائة وعشرين قَدَماً المُقامة على (وادي المهاصر)، يتدفّق منها شلال صغير فوق صخور سوداء. ولمّا لاحظ البربر انبهارنا بهذا المنظر، لم يخوضوا في أيّ حديث له صلة بالحرب أو العدوّ، تاركينا نتملّى به، لكنهم، مع ذلك، بقوا متيقّظين تحسّباً لكل طارئ، ولا يكفّون عن صعود المرتفعات والتّحرّك جيئة وذهاباً. هل نحن فعلاً مُهدَّدون؟ وأين هم الأعداء؟ ولِمَ هذا التّرقّب والحذر كلاهما؟

برجوعنا إلى المعسكر، علمْنا أن الحركة موجودة بالفعل، وأنها تقترب شيئاً فشيئاً من جهة الشمال. نقل إلينا هذا الخبر مسرعاً ومرعوباً أحد رجال زعيم قرية تاودانوس المجاورة الذي أخبر سيّده بأن "سراغنة الشمال وانتيفة كلهم يُحرّضون القبائل كلها على الجهاد". أُصيب العجوز بالرعب، وقال بكل عفوية للعقيد مانجان: "ماذا عليّ فعله؟ إنكَ إن منعتَني منهم، سأبقى معكَ، وسأضمن لكَ عدم التحاق رجالي بالحركة". أجابه العقيد بأن عليه أن يذهب أوّلاً إلى قبيلته، ويُخبرهم بنواياه، وفي المقابل، سيتعهّد له بالحماية والنصرة.

وفي المساء، جاءنا جواسيسنا البربر، وهم أطفال، لا تتجاوز أعمارهم عشر سنوات يخدموننا مقابل نقود، ورغبة في في حماية بلادهم، بالخبر اليقين، فالحركة على بُعْد ثلاث مراحل من المعسكر، فعقدْنا العزم على مواجهتهم غداً.

٢٣ تشرين الثاني/ نوفمبر

يا له من يوم صعب! أخبرْنا الخيّالة منذ الساعة الثامنة أن الحركة تقيم في واجهة جبل ببلاد انتيفة. رأينا من بعيد تجمّعاً كبيراً من الفرسان، فاتُّخذت التدابير بسرعة، وتحرّكنا تحت حراسة مشدّدة نحو سوق الجمعة للمواجهة.

شرعت المدفعية في إطلاق القذائف تحت أقدام الخيّالة والمشاة، لكنهم لم يعبؤوا بها، وظلّوا يتقدّمون راكضين نحونا. لكنْ، بحلول الساعة العاشرة، انكسرت شوكتهم، فولّوا مُدبرين، عبر السهل، واخترْنا اعتراض سبيلهم بعد ساعة بوادي المهاصر. وبعد الزوال، أخذ قنّاصة أفريقيا والسبايسيّيْن، والسنغاليّيْن مواقعهم بشعبة سيدي إدريس الراكبين استعداداً لإطلاق الرصاص. واستطاع عريف من الفرار من قبضة العدوّ بعد أن قُتل فَرَسُهُ.

لم يتوقّف السنغاليون عن شَحْن المدفعية التي أمطرت المغاربةَ بِوَابل من القذائف، أفقدتْهم حماسهم وجرأتهم.

وعلى إثر هذه المواجهة، أُصيب ملازم وجندي من "المستعمرين"، وسينغاليان وجنديان أوروبيان، بجروح خفيفة، كما خسرنا ستّة أحصنة.

تناولْنا الغداء على الساعة الرابعة بسوق الجمعة على ضفاف الوادي لخضر ذي المياه الصافية الدائمة الجريان. وكاد أحد السنغاليّيْن أن يغرق بعد أن جرفه التّيّار، ولم نعد نرَى منه سوى طنجرته التي تطفو على سطح المياه، لكن هذا "العملاق" نجا بعد أن سبح في المياه المثلّجة، ليأخذ مكانه في الصّفّ على الساعة الرابعة. أمّا العدوّ، فقد تكبّد خسائر كبيرة، جعلتْهُ يتراجع عن المطاردة.

حلّ الليل، وخيّم صمت مُطبق على السهل، ليفسح المجال أمام برد قارس، يلسع الأبدان، وقمر يضيء السلسلة الأطلسية الزرقاء، والقِمَم الثلجية البيضاء. وبينما كُنّا ننعم بهذا المنظر الساحر كانت الحركة تبكي قَتْلاها.

٢٤ تشرين الثاني/ نوفمبر

لم يحدثْ ما يُعكّر صفونا هذه الليلة إلا ماكان من نداءات العدوّ التي تصل مسامعنا متقطّعة بين الفينة والأخرى. ويبدو أن انتيفة قد اتّخذت العِبْرَة من وقيعة أمس، فعقدت مجلساً تشاورياً كبيراً، اتّخذت عقبه قراراً بالتّوقّف عن مهاجمة الفرنسيّيْن، والاقتصار على التّحرّك فوق أراضي السراغنة.

وَصَلْنَا صبيحة اليوم سوق الأحد دون أن نرى أو نصادف خيالاً أو محارباً. وبحلول الزوال، عَسْكَرْنا عند ملتقى وادي تاساوت بالوادي لخضر. على ضفّة الواديَيْن دواوير كثيرة، وأراض خصبة، وأشجار الرّمّان، والزيتون، والنخيل، وخُيّل إلينا أننا في إحدى ضواحي البادية الفرنسية.

السراغنة قبيلة قوية تفخر بنسبها العربي، وتأنف من أن تُلقّب بالبربرية افتتاناً، وليس احتقاراً، عدد أفرادها ستّمائة ألف نسمة، وأحمد المنصور هو مَن استقدمهم في القرن الحادي عشر إلى الضّفّة اليسرى لملوية، وانخرطوا ضمن الوحدات العربية الأولى لـ "غزو" أفريقيا. وبعد قرن من الزمان، نزحوا إلى الجنوب المغربي دافعين البربر إلى الأمام.

وَصَلَتْنا أخبار على الساعة التاسعة مساء عن التحاق وحدات من تادلة بالحركة، وتتوعّد القبائل التي سمحت لنا بعبور بلادها بأشدّ الوعيد. ونَظَراً للتّحدّيات التي تواجهها فرنسا في الواجهة الأوربية، لاسيما بعد نشوب

حرب البلقان، فمن الحكمة التّريّث والتفكير قبل الإقدام على أيّ خطوة، تزجّ بنا في مستنقع تادلة، أو انتيفة.

لم نُرِدْ، إذنْ، التّورّط في أيّ مواجهة، فواصلْنا طريقنا نحو القلعة آمنين. وقبل ساعة من وصولنا، أخبرنا أحد الفرسان بأن أحد الصنهاجيّيْن التحق بطابورنا بدعوى أنه مُنشقّ عن حلفائه، وأنه يريد إعلان خضوع قبيلته للفرنسيّيْن واستسلامها. بينما عَدَّه البعض جاسوساً على الطابور لكثرة استفساراته عن موعد ذهابنا للقلعة، لا لشيء إلا لمعرفة موعد رجوعنا لمراكش، للإغارة على دمنات ونَهْب خيراتها عقاباً لها على إيوائنا نحن الكُفّار، وكنّا محاطين بأشخاص ذوي أقنعة كثيرة. فمواقف السراغنة الذين نُعسكر ببلادهم غير واضحة، فهم لم يقبلوا "القياد" الذين ولّيناهم عليهم. بل كانت كل فخذة تسعى ليكون القائد منهم، لا من غيرهم، ولم يكفّوا عن التراشق بالسّبّ والشَّتْم والاتّهامات من قبيل "خنزير! يهودي!"، وممّا لا شكّ فيه أن كل مرشّح اكترى هذه الأبواق التي تصيح بأعلى صوتها لدَعْمه وترجيح كفّته، وإضعاف حظوظ منافسيه. فقواعد اللعبة الانتخابية هي هي في بقاع الأرض كلها.

٢٥ تشرين الثاني/ نوفمبر

أكّد الجواسيس ليلاً أن الحركة ستتوجّه فجر غد، للتنكيل بدمنات عقاباً لها على إيواء الفرنسيّيْن. فكان لزاماً علينا مَنْع الهجوم، لما سيكون له من انعكاسات خطيرة في المستقبل القريب، لأنه سيُذكي لدى القبائل الأخرى الشعور بالكراهية نحونا، وتعمّ الفوضى، وينشط قطّاع الطُّرُق، فتصبح الطُّرُق إلى مراكش والشاوية غير آمنة ... لكننا كُنّا نفتقد إلى المؤونة الكافية لسَدّ احتياجات الطابور، فبعث العقيد

مانجان فيلقاً من السنغاليّيْن إلى القلعة، لتسلُّم الإمدادات الغذائية من القافلة التي بُعث إلينا بها من مراكش، بينما ذهبت باقي الوحدات مع الطابور لمواجهة الحركة.

ظنّا أننا سنتواجه بضواحي دواوير أولاد الخلوفي "خلوف" في الشمال الغربي لدمنات، لكننا لم نرَ في الأفق أيّ أثر لفارس أو محارب من المشاة. فالقطعان ترعى آمنة، وحده الضباب الممتدّ يسود المجال الخالي من أيّ أثر للحركة.

وبحلول الزوال، جاء ثلاثة رجال مهرولين يصرخون: "العدوّ سيصل إلى دمنات، إنه الآن بتاودنوس على بُعْد ساعة من شمال المدينة، ويضمّ المئات من الفرسان، والآلاف من المشاة من انتيفة وتادلة. "عبرْنا مسرعين وادي المهاصر، وفتحت المدفعيةُ النيرانَ على العدوّ، فَفَرّ دون مقاومة، وبشكل مُفاجِئ، نحو الشمال الشرقي. وفي الوقت الذي توقّفت فيه القافلة مع قسم من الفِرَق الحربية عند ضفّة الوادي، اتّجه باقي الطابور، يتقدّمه الفرسان والسنغاليون والمدفعية نحو المرتفعات التي سلّمها العدوّ. وكان نتابع من أعلى الوادي الأخضر تراجُعَ مجموعات كبيرة من المحاربين. وأمام وابل من القذائف، تفرّق الخصوم في الاتّجاهات كلها، ثمّ رأينا أحد الفرسان يُلوِّح براية بيضاء بين الصخور التي كانوا يختبئون وراءها.

كان لِدَويّ القذائف بين الجبال صدىً هائل، اهتزّت له القلوب، وزاد من هَوْلِه الغبار المتصاعد فوق الرؤوس. واصَلْنا الزحف برَبْط عشرة خيول إلى المدافع، لبلوغ المرتفع الصعب لضريح (سيدي يحيا). وبحلول الليل، تراءت لنا نيران العدوّ كنجوم تائهة في الظلمة.

٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر

بقيْنا اليوم بمعسكر وادي المهاصر، نراقب الزحف الخجول لبعض الفِرَق الصغيرة نحونا، لم نتوقّف إلا للتّزوّد بالمؤن من الدواوير المجاورة. ولمّا رفض الأهالي بيعَنا الحبوب، شرعْنا في البحث عن مخازن الحبوب، وعهدنا مهمّة كشف "المطامر" إلى لجزائريّيْن والجمّالة المغاربة الذين استنفروا حواسّهم كلهم لهذا الغرض، فكانوا يحفرون في المكان المناسب، ثمّ يزيلون حجارة ملساء من مدخل المخزن، ثمّ يشرعون في ملء الأكياس بالشعير، ثمّ أداء ثمنها للأهالي. وتوجّهت تجريدات أخرى لدمنات الغنية بالخضر، كالملفوف، والحامض، والجزر، واللّفْت. إضافة للجَوْز، واللَّوْز، وماءِ الحياة المُستخلَص على يد اليهود من العنب والتّين، والخَمْر الفَجّ الذي يُذكّرنا بمالقة، إضافة إلى البيض، والدجاج، والعجول، والأغنام، والأرغفة، كما باعنا اليهود أسماكاً صغيرة لذيذة في دكاكينهم الصغيرة.

أقلقَنا نزول العدوّ إلى السهل، كما أقلقَنا تحرّكه شرقا نحو الجبل. تضاربت الأخبار حول سبب هذه التّحرّكات. فمنهم مَنْ قال إها ستتوقّف عند الدواوير التي اعتاد أفراد الحركة أن يحظوا بالضيافة عندها ليلاً، ومنهم مَنْ قال إن الحركة تنتظر التحاق فِرَق تادلة قبل أن تشنّ هجومها علينا.

انقسمت انتيفة في الاجتماع الأخير إلى قسمَيْن، قسم من الدواوير القريبة منّا، يتعهّد بعدم تقديم أيّ شكل من أشكال المساعدة لـ "للعدوّ"، إن نحن لم نتخطّ حدود بلاد السراغنة. أمّا القسم المحصّن في الجبال، فَمُصِرّ على المواجهة.

كان الجواسيس لا يتوقّفون عن إمدادنا برسائل من زعماء القبائل المجاورة، ومعظمهم مذبذبون، لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء، وإنما ولاؤهم

لمَنْ يُؤمّنهم على أرواحهم، ويسدّ فاقتهم، فلقد كانوا في وضعية هشّة، بل إن سُكّان دمنات أنفسهم يتطلّعون لإسقاط خليفتهم ابن سي المَدَني الگلاوي، ولن يتردّدوا في تسليم مقاليد الأمور للحركة فور وصولها.

حكى لنا "القاضي" بحماس عن بطولة سُكّان دمنات ساخراً: "ما إن اقترب العدوّ حتّى فرّ الطفل الصغير ابن المَدَني تاركاً للرجال الشجعان مهمّة الدفاع عن المدينة. فأغلقوا الأبواب، وأخذوا أماكنهم فوق الأسوار، وشرعوا في تصويب بنادقهم إلى صدور الأعداء". أخذه الحماس، وتقمّص شخصية الجندي، فأظهر لنا بحركة سريعة من يده كيف كان يرمي العدوّ بالنار، ثمّ استرسل مَزهوّاً: "مادام في دمنات مَنْ هم من طينتي، فلا خوف عليها من أيٍّ كان".

بطبيعة الحال، لم نُصدِّق كلمة من هذه الملحمة "الدونكيشوتية"، فروايته لا يُصدِّقها هو نفسه. فعقّب العقيد مانجان على قوله بديبلوماسية حضارية رفيعة مجاملاً:

"إن قُوّة دمنات لا تكمن في صمود أسوارها العالية، وإنما في قلوب رجالها الجريئة".

٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر

بينما كُنّا نستمتع بإشراقة هذا اليوم الجميل، إذ جاءنا نبأ قدوم الحركة من جديد لمهاجمتنا، واحتال العقيد مانجان باستدراجها خارج الجبال، فأعطى أمره بأن يتوجّه القسم الأكبر من الطابور المُكوّن من ستّة آلاف محارب، معظمهم من انتيفة وصنهاجة، إلى دواوير صنهاجة، وعرجنا على مرتفع سيدي إدريس الذي كان مسرحاً لآخر مواجهة لنا مع العدوّ. مسحْنا

كل شبر من السهل والجبال بمناظرنا المكبّرة، فلم نرصدْ أيَّ تحرّك مريب. يبدو أن فلول الحركة تَشَتَّتْ، فواصَلْنا تقدّمنا، إلى أن بلغْنا المرتفعات على الساعة العاشرة.

لم نجد بُدّاً من عبور وادي تاساوت رغم معاناتنا من قُوّة جريانه الجارف، لكننا جبل مگون التي كانت تُردِّد مرتفعاته صدى صيحات ونداءات مشاة العدوّ وفرسانه علينا، أمّا نحن، فلم نعرْها أدنى اهتمام، وإنما واصَلْنا تقدّمنا واثقين من النصر، ومعزَّزين بمائَتَي فارس من الأهالي في طليعة الطابور.

توهّم العدوّ أننا سننسحب دون خوض معركة، لكننا لمّا بلغْنا مرتفع صنهاجة، غيّرْنا وجهتَنا نحو الشرق صوب انتيفة. فتعالت صيحات العدوّ وشتائمه، وأمطرُونا بِوابل من الرصاص، وتدفَّق الفرسان والمشاة من عَلِ كالسيل، في حين بقيت الكتلة متردّدة فوق المرتفعات.

تجاوزْنا ضريح سيدي محمّد بن عثمان، وتأهّب الطابور لبدء المواجهة في وادي انتيفة، ولم تتأخّر المدفعية في فَتْح جحيم النيران وسط ذهول الأعداء. . كان قصفاً مَهولاً، اهتزّت له أفئدة كل مَنْ رآه أو سمعه، إذ تناثرت الخراطيش فوق ربوع المنطقة، وتطاير الغبار من شدّة القصف، وغطّى الأفق، تطايرت الأحجار مُحدِثة صفيراً وأصواتاً مخيفة، أمّا الرماة، فأشرفوا على العدوّ من فوق، وأفرغوا عليهم ما في رشّاشاتهم من ذخيرة، فتفرّقوا شَذَرَ مَذَرَ، ليُعيدوا التّكتّل من جديد، في محاولة يائسة، فتصدّى فيلقان سنغاليان، مَدعومَيْن بالمدفعية، يحمي ظهوره الخيّالة، وباقي

الفِرَق، فلم يبقَ أمام العدوّ من خيار سوى الاختباء وراء أشجار الزيتون، وبين منازل جمعة انتيفة. لكن المدفعية لم تتوقّف عن قصف البساتين والمنازل التي احتمى بها المشاة، فلجأ قسم منهم لساحة السوق، لتُحكم الفيالق قبضتها على المرتفعات المجاورة كلها.

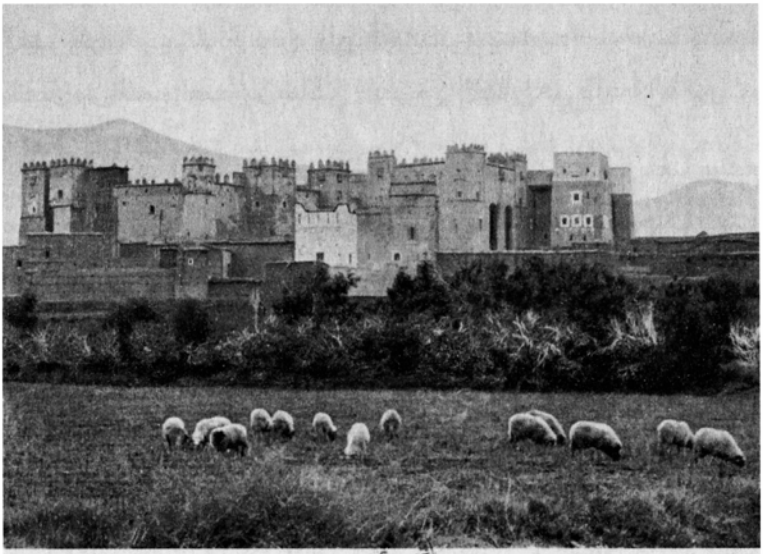

TELOUET. — CHATEAU, PORT DES GLAOUA

Voir page 141.

حلّ الظلام، وأضاءت نيران المطاعم المتنقّلة المرتفعات، ولم نعد نسمع سوى طلقات معزولة هنا وهناك، ليعمّ هدوء مُطبق، لم تمزّقه سوى أصوات نباح كلاب الدواوير المجاورة. وأنست فرحة الانتصار الفِرَق العناء كله الذي لاقوه نهاراً من طول المشي، وألم الجوع. كما أن هذا النصر شفى غليل حلفائنا الذين عانوا الأمَرَّيْن من البربر الذين كانوا يتّخذون من الجبال قلعة، يتحصّنون بها بعد أن ينهبوهم، ويروعوهم.

وبحلول المساء، جاء "قايد" المنطقة صالح أوراغ يطلب الصلح. واعترف بأنه لا يُمثّل سوى قسم صغير من قبيلة انتيفة المُكوّنة من رجال متمرّدين كُثُر، وأنه مستعدّ للتّدخّل عند الفخذات التي تحالفه، ثمّ أضاف قائلاً: "لكنني لا أضمن لكم التّدخّل عند باقي الدواوير الذين جُبلوا على معاداة للنظام. غاية ما أطلبه منكم هو أن لا تُمسّ ممتلكاتي الشخصية، وواصِلُوا حربكم ضدّ أولئك العصاة". هكذا كان يتكلّم الرجل العجوز باللحية البيضاء الذي أخذ العبرة ممّا لحق بربر الجبل الفوضويّيْن.

رفع يهود الملاح بدورهم الرايات البيضاء، فقد كانوا يتاجرون في أنواع الأسلحة كلها، وهذا نشاط لا يمكن أن نمنعه، لأن تهريب الأسلحة والمتاجرة فيها أمرٌ شائع في كل ربوع المغرب.

٢٨ تشرين الثاني/ نوفمبر

أعطانا العدوّ فرصة، لننام في هدوء، إلا ما كان من خمس أو ستّ طلقات، سُمعت في التّلّة البعيدة التي يحرسها الگوميون. وأجمعت المعلومات الوافدة كلها على تفكّك الحركة، والتحقت الوحدات كلها بقبائلها تاركين البربر يُحسّون بالخزي والعار، لأنهم طُعِنوا في كبريائهم، ونِيْل من تعاليهِم وأنَفَتِهِم.

حان موعد الترويح عن النفس بعد معاناة أمس، فَنَصَبْنا، في الليل، المقهى المتنقّل في بلاد آمنة، وإن كُنّا نجهل تضاريسها، واجتمعت صفوف الفيالق التي كانت متفرّقة، فتفقّدتْ أمتعتَها ومؤنَها.

لم يُصَبْ من أمس سوى سبعة جنود، لأن مدفعنا من عيار ٧٥ أبقى المغاربة بعيداً، وكبّدهم خسائر فادحة. لدقّة تصويبه وفَتْك قذائفه مقارنة مع مدفع من عيار ٦٥ المحدود الخطر، شأنه في ذلك شأن الرشّاشات التي أفقدها العلو خطورتها.

لمّا حاول الألف فارس الملتحق بنا حديثاً اقتحام الحَيّ اليهودي بالقرية، سمعْنا صيحات الاستغاثة مُدوّية، كما تناهى إلى أسماعنا الضَّرْب القويّ على الأبواب الخشبية القوية، والمُسلّحة بالأقفال الحديدية العاتية مُخلِّفاً صدىً قوياً، تردّد صداه بين الفجاج. ثمّ جاءت النساء مُوَلْوِلات والرجال "مُتذمّرين" يبثّون شكواهم إلى القائد، ويطالبونه الإنصاف من الترويع الذي لحقهم، والتعويض عن الخسائر التي لحقتْهم، فلم يتردّد القائد في تلبية طلبهم، لا سيما أنهم كانوا يعانون من وضع اجتماعي قاسٍ، فإلى جانب احتقار المغاربة لهم، كانت ملاحاتهم وسخة، ويتحرّكون وسط أكوام من الأزبال تراكمت لعقود وعقود، تزكم روائحها الأنوف. ولم تُغنِ الثروات التي كسبوها من نشاطهم التجاري عنهم شيئاً: فالأمراض الجِلْدِيّة، والقروح تغطّي أجسامهم، ناهيكَ عن التوّجّس من المغاربة الذين لن يتردّدوا في سرقتها، لذلك كانوا يلجؤون إلى خزنها في مواقع، يصعب كَشفها، وذلك ما كان يجعل الملاح هدفاً للهجومات المتكرّرة ...

لم يخرج الطابور خاوي الوفاض من الملاح، وإنما بكيس ثقيل، فلا شريعة تعلو فوق النَّهْب والسلب داخل الملاح: الحبوب، والزيتون، والفواكه، والأشياء المستوردة، والسّكّر، والأغطية، والألبسة ... أمّا

اليهوديات، فيُغتَصَبْنَ، والرجال يُهانون ويُضربون دون أن يُحرِّكُوا ساكناً، وإنما يكتفون برَفْع الرايات البيضاء و"التّشكيّ".

وأهون ألف مرّة على اليهودي أن يُعذَّب حتّى الموت من أن يُصرِّح بمكان خزنته التي قد تكون في أعماق الآبار، أو غياهب الكهوف. فالملاح، إذنْ، أكبر مَصرف مالي في البلاد رغم شكله البائس، وساكنيه ذوي الألبسة الوسخة، واللحى المُنفّرة والمتدلّية، وقبّعاتهم. غريب أمرهم!! إنهم هم المؤتمنون على أموال المغرب، وخازنوها، ولا غنى "للسلطان" العظيم عنهم، وهم، في الوقت نفسه، المُبغضون المَمقوتون!!

أقمْنا في إحدى أودية انتيفة الغنّاء، ذي الظلال الوارفة، وأصناف الثمار الدانية، فيها قليل من كل شيء: زيتون، وتفّاح، وتين، ومشمش، ورمّان، ولوز، وليمون ... تُسقى بالمياه المنحدرة من الجبال. أمّا السهول، فتُبشّر بمحاصيل جيّدة من القمح والشعير. ويسكن الأغنياء منهم القصبات الكبيرة فوق القِمَم، بينما اتّخذ البسطاء من الأكواخ البائسة ملاذاً لهم. يقوم النشاط التجاري على استبدال الزيتون، والحبوب والفواكه، والبيض، والقطعان الأغطيةَ، والسُّكَّرَ، والشّايَ.

٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر

نزح الطابور اليوم إلى السفح لتأمين حماية اليهود المطالبين بإحداث مركز فرنسي. بعد أن استسلم قسم كبير من انتيفة، كما جاءتْنا أخبار تفيد أن قبائل تادلة، التي كانت في طريقها لمساندة الحركة، قد عادتْ أدراجها، لمّا علمتْ بالتنكيل الذي طال البربر والعرب على حدّ سواء. لاسيما بعد أن رأوا المدفع الراسي فوق المرتفعات، وبقايا جثث أكثر من ثلاثين قتيلاً بعد أن نهشتْها الكلاب حسب ما نقلَه إلينا أحد المخبرين.

غادرْنا صنهاجة - الحلفاء السابقون للجبليّوْن - أمام أعين دواويرهم، إلى أن وَصَلْنَا إلى ملتقى الوادي الأخضر مع وادي تاساوت. توارت الشمس وراء الأفق، وخيّم الظلام، ليستسلم كلُّ مَنْ في المعسكر للنوم، لم يكسر هدوءَ الليل العميق سوى صوت خرير مياه الوادي. كانت ليلة شديدة البرودة تحت الخيام المصنوعة من الكتّان "التوب"، فبتْنا نرتعش على مَرأى من النجوم المتلألئة.

٣٠ تشرين الثاني/ نوفمبر

آذن صوت الجَرَس، بُعيد الفجر، بالاستيقاظ، فهبّ الرجال يَطوون خيامهم وسط ضباب كثيف، يملؤه صهيل الخيول، ونهيق الحمير، ورغاء الجمال، تحلّقتْ مجموعات حول نار المقهى، لبَعْث الدفء في الأيدي المتجمّدة، لتتمكّن من حَزْم الأمتعة وسط الضباب الكثيف الذي يتحرّك وسطه الناس والبهائم كالأشباح.

انطلق الطابور وئيداً، إلى أن سطعتْ أولى بشائر الشمس، فتلاشى الضباب رويداً رويداً، وسرى الدفء في العروق ... ظهرت المدينة القديمة للسراغنة وسط غابة الزيتون الخضراء، وخطٌ أحمر يعصب شرفات المنازل المحيطة بالقبّة البيضاء للضريح، تحرسها صومعة، تطاول السماء ...

كان المشهد كئيباً، فلا أثر لحياة في مدينة بعد أن هجرَها أصحابها. "فالقياد" قد عتوا في الأرض فساداً، بسبب تناحُرهم عن السلطة، ناهيكَ عن موجات العصيان والتّمرّد المتكرّرة. أمّا الحَيّ اليهودي، فقد دُمِّر عن آخره، كما تمّ إخلاء البنايات الضخمة للقصر المخزني، وأُتلفَت حدائقه، فلا ترى سوى اللقالق المعشّشة فوق السطوح والأسوار. كما لم تَسلَم

أشجار الزيتون التابعة للأملاك السلطانية الكائنة على ضفاف الوادي من بطش هؤلاء المُتوحِّشين الذين كانوا يتابعوننا بنظرات حاقدة، ونحن نقف أمام بقايا معصرة، قُلِبَتْ رَحَاها.

كان اجتماع السراغنة صاخباً، وبين الفينة والأخرى، يطلّون علينا بسحناتهم الرمادية وسط برانيسهم البيضاء، كأنهم موتى، يتطلّعون وراء أكفان. ترى مَنْ هذا "القايد" الذي سيحكمهم باسم سلطان؟! لا سلطة له عليهم، وهم يسبُّون ويشتمون "القياد" كلهم بدون استثناء!

بحلول الليل، فتحت السماءُ أبوابها لأمطار غزيرة، كادت تُغرِق المخيّم، مصحوبة برياح عاتية، شارفت على تمزيقه، وأصبح المعسكر مُوحِشاً كساحة قتال.

١ كانون الأول/ ديسمبر

أقلعت السماء، وجفّفتْ أشعّةُ الشمس الخيام من المياه، وأرض المعسكر من الأوحال. لم نردْ مغادرة هذه البلاد الغارقة في الفوضى الفوضوية قبل أن يستتبّ الأمن، فوجدتُها فرصة مواتية للقيام بجولة داخل المدينة: الشرفات مهدّمة، ولم يبقَ من المنازل سوى الجدران، ولا أثر لإنسان. لكأني بالمدينة منكوبة بعد حرب مُدمِّرة. مَنْ بقي من السّكّان اعتصم بالساحات أو النوايل المحاطة بالأسيجة الشوكية. تشهد الأطلال المتبقّية أنه كان للمدينة ماضٍ عمراني جميل، فالأقواس عالية، والأبواب كبيرة، والأسوار بنوافذ مُسيّجة.

آن الأوان ليحلّ السِّلْم مكان الفوضى التي أتت على الأخضر واليابس بالمدينة، لذلك تودّد "القياد" المفروضين البارحة إلى معارضيهم من

السراغنة، بتعيين كثير من الشيوخ، عساهم يكبحون جماح تابعيهم، لكن بقاء الفِرَق العسكرية مرابطة في المدينة مُؤشّر على عدم استتباب الأمن.

وأنا أتجوّل في المدينة، اعترضت طريقي عجوزٌ عربية، وسألتْني - على غير عادة الأهالي الذين لا يُوجّهون الكلام للنصارى - بنبرة حادّة: "لم لا يكفّ جنودكم عن إصدار هذه الموسيقى الصاخبة؟ إنها تُخيفنا". أجبتُها قائلاً: "إنهم يتعلّمون فقط". والواقع أن الأصوات المنبعثة من المزامير متكرّرة، ومُزعِجة، لا سيما تلك الصادرة عن الفرقة السنغالية الحيوية بإشراف من ذلك العريف الذي يقف بشاشية، يتدلّى منها خيط أسود، وبسروال قصير، وقميص كاكية عريضة، ذات "أصداف" مُذهّبة، وحزام أحمر. تعمّدْنا تلك الطقوس العسكرية، عساها تغرس الاحترام في نفوس السراغنة الفوضويّيْن.

٢ كانون الأول/ ديسمبر

وأخيراً غادرْنا القلعة في جوّ شديد البرودة، وتقدّمنا على أرض مستوية إلى حدود تاملالت بعد سبع ساعات من المشي، لتُصبح الطريق مليئة بالحجارة الصغيرة والرمال مع النباتات الشوكية. اقتربْنا من الجبال الرمادية التي تحدّ أرض أولاد سيدي رحال شرقاً، والغنية بمعادن الحديد والفضّة.

تُصنّف تاملالت ضمن الأملاك المخزنية التي تُزرَع بالشعير، وهي تقع بين قبائل السراغنة، وزمران، والرحامنة، سهولها واسعة مزروعة، وتكسوها أشجار الزيتون التي يعود تاريخ غرسها لأكثر من نصف قرن.

قضيْنا فترة ما بعد الزوال نجوب معظم هذه الأراضي على صهوات فرساننا، فمررْنا على أسوار عالية لبنايات سويت بالأرض، وأسراب من الحمام، تحوم فوق السهول، ثمّ تحطّ على ما تبقّى من السور،

كأنها تندب المساكن وساكنيها، وأشجار الزيتون المَنسية بعدما أوقف السلطانُ مَدّ المزارعين بواجب المغارسة "الربع"، فأتلفوا السواقي التي كانت تُزوّدها بمياه وادي تانسيفت، لأنهم لم يكونوا يجنون ثمار مجهوداتهم، وإنما يستولي عليها باشا مراكش، بينما هم يسكنون دواوير، يحيط بها سور متآكل.

ونَظَراً للخير الوفير الذي كانت تجود به هذه الأشجار، فقد أولاها مولاي حفيظ، قبل تنازُله، عناية خاصّة، فـ "الملك" يضمّ مئات آلاف الأشجار، يُقدّر ثمن كل واحدة منها بثلاثة دوروات (*) (١٢ فرنك).

٣ كانون الأول/ ديسمبر

قطعْنا اليوم المرحلة الأولى من المراحل الثلاث التي بقيت تفصلنا عن مراكش عبر البلاد الرتيبة للرحامنة عند قبائل برابيش أولاد سْلامة الذين عانَيْنا الأمَرَّيْن من محاربيهم خلال تحرّكنا الأوّل نحو مراكش. يحدّ هذا المنبسط شمالاً "الجبيلات" التي تمثّل الحاجز الفاصل بين حوض تانسيفت وأمّ الربيع. خلف المرتفعات تتصاعد أدخنة إحدى الدواوير التي تطلع إلينا صغاره الشّعث، ونساؤه الفضوليات، بينما لم يعرْنا الرجال أدنى اهتمام.

كانت قطعان الماعز ترعى الأعشاب الهزيلة من بين الحصى فوق المرتفعات، فتبدو كنقط سوداء متحرّكة. وها هو الأطلس الرائع يطلّ من جديد في الأفق خلف الكركور، بصخوره الزرقاء، وقِمَمِه الناصعة.

---

*) - جمع دورو، وهو بمقدار ريال إسباني.

الفصل الثامن
مراكش

٤ كانون الأول/ ديسمبر

لم نشفقْ على خيولنا، وإنما ضغطْنا عليها كثيراً، لنهرب من برودة هذا الصباح القاسية، فتراءت لنا، من بعيد، صومعة الكتبية العالية. فأُعطيَت الأوامر لفِرَق الحَرَس المشكّلة من القنّاصة الأفارقة للتّفرّق على جوانب السواقي الكبيرة، ثمّ دخلْنا منبسط النخيل. وقادنا الدليل نحو تانسيفت عبر معبر بن ساسي قرب الضريح الكبير المسقف بالقرميد، والمشيد حسب الطراز المعماري القديم بدعاماته، ونوافذه المسيجة التي ذكّرتْنا بالكاتدرائيات الفرنسية. وتحت أسواره، يجلس بعض العجزة الورعين القرفصاء في انتظار تقديم القربات للصالح الممدّد في قبر، يتوسّط الضريح الذي تحيطه حدائق غنّاء، وأشجار نخيل عالية.

شاهدْنا أفرنة كبيرة لصُنع الفخّار والآجرّ، ومخلّفات المعادن المحروقة متراكمة كالجبال سوداء خارج المدينة. بعد وقت، ليس باليسير، عبرنا سور باب أحمر، والحَيّ الزنجي الذي يحدّ قصر السلطان، فوجدْنا الشوارع آهلة، والدكاكين كثيرة. جزْنا باب أگناو - الذي جُلب من إسبانيا - لنجدَ أنفسنا أمام الكتبية العالية. إنها وقورة بقاعدة عريضة، وخطوط منسجمة، وأسقف بألوان رمادية وخضراء مفتوحة، تقطع السقف المسطّح.

مراكش! المدينة التي احتلّها الرجال الزرق، وغادروها! العاصمة القديمة لأجدادهم المرابطين البربر والموحّدين برمزَيْهما يُوسُف بن

تاشفين، والسلطان الأكحل المنصور! في زمن، كان فيه النصارى أُجراء، لكنهم، اليوم، أصبحوا سادة، في زمن كانت إسبانيا والجزائر جوهَرَتَيْن في عقد إمبراطوريّته!

٦ كانون الأول/ ديسمبر

لمّا كنتُ أتجوّل في المدينة، دخلتُ إحدى الزوايا بدافع الفضول لا غير، فرأيتُ مريدين يحتضرون في صمت تحت أشعّة شمس الزوال، معظمهم من الزنوج، بعيون غائرة، وأفواه فاغرة، ووجوه منكمشة، وكانت أسراب من الذباب قد غطّت جسد أحدهم، ربمّا يكون قد لفظ أنفاسه، بينما الآخرون على شفا حفرة من الهلاك ... ذلك كله، والناس يمرّون عليهم غير مبالين يتهادون في حللهم الجميلة لأداء الصلاة.

١٠ كانون الأول/ ديسمبر

يروق لي أن أتأمّل الطريقة التي يركب بها الأهالي الحمير، وهي تحرّك آذانها، وتفتح أفواهها دون توقّف وسط الزحام، رغم أنها تنوء بأحمال ثقيلة من التراب، أو حجر الجير. كما يحلو لي متابعة عروض مُروّضي الأفاعي الذين يُخرِجُون من أكياس الثوب ثعابين طويلة بعيون لامعة، وأقرأ تعابير الدهشة والخوف ترتسم على وجوه المشاهدين، والحكواتيّيْن الشعبيّيْن الذين يُمَسرِحُون وقائع قصصهم، بحركات رشيقة، وملامح غريبة، تشدّ انتباه المستمعين ... ومعظم روّاد الساحة يتحلّقون حول المهرّجين، بإيماءاتهم المُضحِكَة، وألبستهم المثيرة. ومن المساهمين في الفرجة الزنوج المتحدّرون من سوس، والمزيّنون بأصداف لامعة، لا يتوقّفون عن النَّقْر على طبولهم، و"قراقبهم" الحديدية تحت

أنف التّجّار، ليُحرجوهم، ويُرغموهم على بَذْل بعض التمر، أو نحو ذلك ... أمّا المتسوّلون الوسخون، فيملؤون الأرجاء كلها.

يستهويني التّجوّل بين دكاكين بائعي الأسلحة الذين يعرضون خناجر بديعة الصُّنع بمقابض نُحاسية، أو فضّيّة، وبنادق "بوحبة" بمقابض من العَظْم أو المعدن. وأُحِبُّ في حَيّ الصّبّاغين القِطَع الحريرية أو القطنية المُستخرَجَة من القُدُور النُّحاسية، والمعلّقة للتجفيف فوق الشوارع الضّيّقة المسقفة بالقصب. وعرض الإسكافيون حقائب جِلْدِيّة بألوان مختلفة، وطنافس برسوم دقيقة، وجرابات جِلْديّة صغيرة "مطاوي"، لحفْظ مسحوق الكيف. وهناك حَيّ خاصّ للأحذية "البلاغي" الرجالية والنسائية، بمختلف الألوان، تُزيّنها خطوط حريرية زاهية. ويجتمع شاحذو السكاكين، وصُنّاع آلات الوتار، والنّجّارون، والفخّارون، وصُنّاع حذوات الخيول، وتجّار الكير، والحدّادون، والخيّاطون، والدّلّالون، وصُنّاع السروج، والآلات الحديدية للحمّامات، و"القالون" الحمّص، وبائعو "الإسفنج"، والشّوّاؤن، وبائعو الحريرة، تفصل بينهم حدود، لا يتجاوزونها. وفي الشارع نفسه، بائعو الحصائر، وتُجّار الأغطية، وبائعو أحشاء الحيوانات، وتُجّار الفواكه، والخضر، والزيتون، والزيت، والسمن، أمّا بائعو

السّكّر والشاي والشمع، فمُوزَّعون في أركان الشارع كله. وأخذ العشّابون لأنفسهم مساحة قرب "الأطبّاء" الشعبيّيْن، والعرّافون، وعلى رأسهم شيخ ذو شهرة واسعة، بصدرية حمراء، تشرئبّ النساء المحتجبات بأعناقهنّ، للتّطلّع إليه، وانتظار دورهنّ لقراءة الطالع على كتف خروف، وهو جالس على كرسيّ من قصب، أمامه حبيبات فول، وبين الفينة والأخرى يهمس بفمه المهدوم في آذان زبنائه، بتمتمات غير مفهومة، ولمّا حاولتُ الاقتراب منه مازحاً، شعر بالإحراج، ورمقني بنظرات شزراء، ولحية مرتعشة.

Voir page 180.

ENTRÉE DU SULTAN A MARRAKECH

أقيم وسط المدينة مجموعة من النوايل، يسكنها "ضراوة"السود الفارّون من الجوع والجفاف، في وادي درعة، بسحناتهم الرمادية، تستر أجسامهم الوسخة أثواب زرقاء، تنطق بالبؤس والفاقة، وهم الفئة الأكثر حيوية وإنتاجية بالمدينة.

داخل مراكش أنماط حياة متنوّعة، فهؤلاء السّقّاؤون المجتمعون حول نافورة لملء قِرَبهم المصنوعة من جِلْد الماعز، بينما الخادمات المحتجبات يحملنَ فوق رؤوسهنّ جرّات الماء الطينية، ويُشرف، بوقار، لقلاق على أزقة مغطّاة بأغصان أشجار الكروم، وأخرى مسقوفة بالقشّ، تملؤها حوانيت أنيقة، لشيوخ، بلحى بيضاء، ونظّارات يُحرّرون عقوداً عمومية "عدول". واصطفّ قرب بائعي السمن الخبّازون والخبّازات اللواتي يضعنَ السّلّات بين أرجلهنّ، وتلمع أعينهنّ الكحيلة وراء خُمُرهنّ، وأدْرُعهنّ الموشومة المُزيّنة بأساور من فضّة، تخرج من تحت الحايك الطويل، تكشف بياض جلودهنّ، وأصابعهنّ المخضّبة تحمل الشموع. كم هي مثيرة رائحة الخبز الساخن، والسَّمْن المُذاب.

١٢ كانون الأول/ ديسمبر

رافقتُ العقيد مانجان في زيارته لمولاي بوبكر أخ السلطان أو الخليفة، كما يُسمّى، في رواق مفتوح على البستان، تحت أشجار الليمون، وأوراق الموز الكبيرة المتدلّية على صحن من الرخام، يجري أسفله ماء صاف، يسقي ورداً رائعة، بما في ذلك وردة اليلاس اليابانية الكبيرة التي فقدت أوراقها في فصل الخريف، لكنْ، ما زالت مَكسوّة ببذور صفراء، وهي فخر هذه الحديقة المَحميّة، مع الأسف، بأسوار عالية. تبادلْنا أطراف الحديث وسط هذا المجال الجميل، وإن كان ضيّقاً، وارتشفْنا كؤوس

الشاي والقهوة، وأكلْنا حلوى "كعب الغزال" والمسمّن/ الرغائف المدهونة "بالزبدة". تحدّث مولاي بوبكر عن باريس، وعن الكُتُب التي تناولت تاريخ المغرب، وعن دخوله المرتقَب يوم غد لمراكش. وقال باستحياء للعقيد مانجان: "قولوا له أن لاينساني من كرمه"، ورغم أن العقيد طمأنه، إلا أنه لم يرد الخوض في أيّ موضوع سواه، وذكَّره متوسّلاً: "متى ستُكلّمان أخي في الموضوع؟".

ذهبْنا لتفقّد دار المخزن التي ستكون مقرّ إقامة مولاي يُوسُف مراكش. فوجدْنا القصر كبيراً، تحيط به حدائق شاسعة، أعَدْنا ترميمها بعد أن عَبَثَ بها الرجال الزرق، وعلى رأسهم زعيمهم الهيبة الذي كان ينام في هذا الجناح الفخم بعد أن ينيخ جماله فوق زليجه. كما أعدّت عشرات غرف الاستقبال المتدلّية منها ثريات كبيرة بالزرابي الأوربية الصنع، و"الكنبات" من مختلف الأشكال، والمرايا المُذهّبة، والمصابيح الألمانية، والخزّانات الكبيرة تُؤثّث الغرف كلها. وكان يُرشدنا أحد الشيوخ الزنوج المخلصين، برأس أشيب متبوعاً بأحد الأطفال الزنوج، وهو يحمل سلّة من المفاتيح الثقيلة، والكثير من العبيد الزنوج الساهرين على صيانة السَّكَن، وراحة نساء السلطان، وأقارب العائلة المَلَكِيّة، التي تقتضي العادة أن تُخصَّص لها أجنحة خاصّة.

١٣ كانون الأول/ ديسمبر

كان السلطان محظوظاً، ليحظى باستقبال عاصمة الجنوب بأعيانها كلهم في المعسكر المقام على ضفَّتَي تانسيفت في هذا اليوم المشرق الجميل، وحلّ الحريم قبل السلطان بلباس أبيض ناصع، يغطّينَ رؤوسهنّ فوق بغال سريعة، يحرسها زنوج حذرون ومُتوشِّحون بالسيوف والخناجر.

أعقبهم خيّالة القبائل، يتقدّمهم زعماؤهم ببرانس حريرية، وأزِمَّة خيولهم مُطرّزة بالذهب والفضّة. ومرّ السلطان وسط الساحة، يحفّه الزنوج، يذبّون عن وجهه الذباب، والأرواح الشّرّيرة، بينما يُظلّله آخرون بشمسيات خضراء. ويتبعه هودج من المخمل قرمزيّ اللون.

وكان الجميع يتهافت على تقبيل تلابيب البرنوس المُقدّس للسلطان: البؤساء، والجذامى المقنّعين، والعميان، والعُشْوُ الذين يجيلون بصرهم في السماء، ومبتورو الأيدي أو الأرجل، في مشهد، تداخل فيه البؤس مع غنى الموكب وزغاريد النساء، وموسيقى الزنوج، وتوسّلات المتسوّلين تحت أشعّة الشمس الرائعة والأسوار الوردية، والصوامع الخضراء، وأشجار النخيل الباسقة، وقِمَم الأطلس الناصعة، وحده هزيم المدافع عكّر صفو هذا الجوّ الاحتفالي البهيج.

١٥ كانون الأول/ ديسمبر

رغب السلطان في زيارة حدائق قصر أكدال المخصّص فقط لنزهات النساء، فوجدْنا الأمر مُحرجاً، لأننا حوّلنا القصر إلى مستشفى لإيواء المرضى الذين لم يكن من الممكن علاجهم تحت الخيام. وممّا زاد الأمر تعقيداً هو ضرورة إبقاء عناصر الفِرَق العسكرية المُكلّفة بحراسة المستشفى بعيدة عن إقامة حريم السلطان. لكنْ، من حسن حظّنا أن وجدنا قسماً هو الأروع والأجمل في الحديقة يُسمّى: "دار الرضوان" بسور عال وآمن، ويليق بمقام الحريم.

وصل مولاي يُوسُف بعد الزوال، لا يرافقه سوى حاجبه، ووزير، وبعض الخَدَم، يضع برنوسا أزرق فاتحاً، ويركب جواداً مُطهَّماً، يتبعه ابناه اللذان

لا تزيد أعمارهما عن ثلاث سنوات، أو أربع على فَرَسَيْن، يقودهما زنجيان ... وسَلَكَ السلطان طريقاً غير متوقّع، ليجد أمامه باباً محكم الإغلاق، لم نفتحه إلا عنوة. فضحك مسروراً لهذه المغامرة. فهو رجل ودود ومتواضع، لم يُزعجه إيواء المرضى في دار البيْضا، وقال إن دار الرضوان تكفيه رغم أننا لم نكن راضين عن الخدمات المقدَّمة له، لأن زيارته كانت مُفاجِئة.

عبّر لنا هذا الملك الطّيّب أنه غير منزعج من الغبار الكثير، مادام يعلو الأشياء الجميلة.

١٩ كانون الأول/ ديسمبر

كانت البهجة تعمّ مراكش كلها، وأشعلت نيران الغصينات لإضاءة ملتقيات الشوارع. ووجدت النساء الملتحفات في حيوكهنّ البيضاء الفرصة مواتية للتّجوّل بكل حُرّيّة في الشوارع، وهنّ يصدحنَ بالأهازيج، ويضربنَ على الطعاريج التي غمر صوتها أرجاء المدينة كلها. أمّا الأطفال، فكانوا أكثر ابتهاجاً، لأن الزيارة صادفت يوم عاشوراء، فأخذوا يجرون وسط الساحات، ويلعبون بلا رقيب ولا حسيب.

أمّا نحن، فقد شغلتْنا أمور أكثر أهمّيّة عن متابعة هذه الاحتفالات، ذلك أن القبطان ماسوتيي Massoutier انطلق منذ يومَيْن في اتّجاه سوس، بحركة، ليحاصر الهيبة الذي اعتصم بإحدى القصبات هناك. لم تصلْنا أيّ أخبار عنه، لأن فرسان العدوّ يسيطرون على الطريق، ويُصادرون كل بريد، ثمّ يمزّقونه. كانت لنا معهم بعض المواجهات، تكبّدْنا على إثرها بعض الخسائر.

انحصر دور حامية موگادور في إسعاف المرضى، وانتظار وصول تعزيزات مستعجلة من مراكش، لأنه لم يبقَ لها من الماء والمؤونة إلا ما يسدّ حاجتها لأيّام معدودة فقط.

٢٠ كانون الأول/ ديسمبر

بحلول الساعة العاشرة ليلاً، كان كل شيء قد هدأ في مراكش، فقد أوى الناس إلى مساكنهم فاسحين المجال للرياح تُوَلْوِلُ غاضبة في كل شارع متماهية مع مواويل بعض عمّال المطاحن الأشبه بترانيم الكنائس الحزينة، تُغلّفها السُّحُب السوداء التي تحجب ضياء القمر.

لم أصادفْ في طريق عودتي لمقرّ سُكناي عبر الممرّات المُوحِشة سوى الكلاب الضّالّة، وزنجياً قابعاً في كوخه الطينيّ، يعزف نغمات حزينة من قيتارته "هجهوجه" وشَعْره المضفور يتدلّى على صدره. ثمّ مررتُ بحُرّاس ليليّيْن جالسين القرفصاء خلف الأبواب. وما هي إلا لحظات حتّى سمعتُ طلقات البارود تُعلن عن وقت إغلاق الأبواب.

ما أشدّ كآبة مراكش ليلا!!

٢٢ كانون الأول/ ديسمبر

نجح القبطان ماسوتيي - رغم الحصار المضروب عليه بدار القاضي - في موافاتنا بأخبار عن خسارته عدّة رجال، وإصابة آخرين، وأن محاصريه سدّوا قنوات الاتّصال بموگادور جميعها، وأن حليفنا أنفلوس زعيم حاحا الذي خصّنا قبل شهرَيْن باستقبال رائع قد خاننا، وانحاز لصفّ خصومنا.

واصَلَتْ فرقة مراكش تقدُّمها إلى موگادور، كما أرسلت فِرَق أخرى بحراً من الدار البيضاء. لكنْ، حالت أحوال الطقس دون رُسُوّ السفينة في الميناء بسهولة. لم يُعِرِ المراكشيون هذه الأخبار أدنى اهتمام، وإنما استمرّوا في الاحتفال بذكرى عاشوراء، وشاركهم العقيد مانجان بعض طقوسهم، باستقباله حاملي الفوانيس الخشبية الكبيرة المُصمَّمة على شكل مسجد، عُلِّقَتْ به أوراق

مُلوّنة، قُطِّعت على شكل أرابيسك، كما أُثبِتَتْ على جوانبه آلاف الشموع في جوّ احتفالي، استمتعتْ به الحشود الكثيرة، وأقام بعضهم احتفالاً تنكّرياً، ارتدوا فيه أزياء يهودية سوداء، ونظّارات سميكة، ولحى مسدولة ... أمّا البؤساء المساكين، فكانوا يُدَعُّونَ بالهراوات ترسيخاً للعبودية والنَّبْذ. وتابعنا مشهداً مسرحياً، تقمّص فيه رجلان دور امرأة حامل ومولّدة، تعالت صيحات المرأة التي تُعاني آلام المخاض، بينما ارتسمت علامات الصرامة والحزم على وجه المولّدة ... كما قُدِّمَ مشهد آخر لقابض الضرائب، يدخل بُخَيلاء مُقطّباً جبينه، ومُتأبّطاً سجلاً كبيراً لتحصيل المستحقّات، يتبعه كاتبه، يُلوِّح بمفاتيحه، ثمّ انبطح الناس أمامه متظاهرين بالنوم، لكن الحيلة لم تنطلِ على المُوظّف، فلا محيد عن استخلاص الضرائب، ولو خرجوا من جِلْدِهم!!

وظهر فجأة سائس بهائم، يجرّ بحبل طفلاً بائساً شائه الخِلقة، تبعه عيساوة، يمرّقون لحومهم بطعنات السّكّين، ودرقاوة يجذبون بسبحات خرزاتها من اللِّفْت أو الجَزَر المجفّف. بينما سخِرت جماعة من الممثّلين من العلماء، فقدّمتْهم على صورة "جحوش"، وبعد أن أزال الممثّلون الأقنعة، وُزِّعَتْ عليهم الدوروات بسخاء.

٢٣ كانون الأول/ ديسمبر

ما زالت الأنواء تُؤجِّل رُسُوّ الفِرَق العسكرية، وأقدم الطّيّار Do-hu [*] على خطوة جريئة فوق الفرقة المحاصرَة بدار القاضي، فبعث الرعب في صفوفهم، كما بعث الأمل في نفوس الرهائن الذين أشرفوا على الهلاك عطشاً، لولا الأمطار التي جادت بها السماء.

---

*)- النقيب الطّيّار دوهو Do-hu (١٨٨٣ . ١٩٢١) الفيتنامي المولِد، خرّيج المدرسة العسكرية سان سير، أحد روّاد الطيران العسكري في المغرب. قاد حملة على المَغرب سَنَتَي ١٩٠٧ و١٩٠٨.

٢٤ كانون الأول/ ديسمبر

رغم شيوع خبر أن حركة موگادور قد "انكسرت" واستمرار هدوء ساكنة مراكش، فإن الحنود الفرنسيّيْن ظلّوا مرابطين في المكان.

٢٦ كانون الأول/ ديسمبر

وأخيرا، جاءَتْنا بشرى نجاح طابور النجدة تحت القيادة الحازمة للجنرال برولار Brulard في فَكّ الحصار عن الحامية بدار القاضي، وإن كان الثمن غالياً، وهو خمسة وعشرون قتيلاً، وخمسة وأربعون مصاباً.

٣٠ كانون الأول/ ديسمبر

سرتْ شائعة انهزام الفرنسيّيْن، وزحف "السلطان" الهيبة من سوس نحو مراكش لطَرْد الكُفّار الذين ذبّ الرعب فيهم، فرفعوا المدافع فوق جبل گيليز المطلّ على المدينة سريان النار في الهشيم بين أوساط روّاد المقاهي، والمومسات والمتسكّعين المشرّدين المستعدّين دائماً للدفاع عن الله الذي تركهم يموتون جوعاً. وممّا خفّف من غلواء هذه الأباطيل تبيّن كذب خبر وجود أحد الضّبّاط مقتولاً عند يهودي.

أبقى الأعيان، ومعظم السّكّان على هدوئهم، ولم يُصدِّقوا تلك الأراجيف المغرضة، كما بقي حَرَس الباشا والميلشيات بسراويلهم الليمونية، ومعاطفهم الوردية ثابتين على وفائهم.

حامت الشكوك حول مسؤولية اليهود المغاربة في نَسْج خيوط تلك الإشاعة، كي يتهافت الناس على شراء السِّلَع وتخزينها تحسُّباً لأيّ حصار ... مساكين هؤلاء اليهود المغاربة! هل نسوا أن النار التي أشعلوها

سيكونون هم أوّل المحترقين بها؟! هل يملكون أن يدافعوا عن أنفسهم إذا هُوجمت دكاكينهم، واغتُصبَت ممتلكاتهم؟! هل نَسُوا ما وقع في الربيع المنصرم، لمّا أُصيبوا بالهلع، واضطربتْ أحوال الملاح، لمُجرّد أن بغلة من بغال "القايد" جمحتْ في إحدى شوارع مراكش، وركَضَ الأطفال وراءها يعبثون ويصيحون؟! هل نسوا لمّا وقعت مواجهات بين أتباع القائدَيْن المتوكي والگلاوي كيف أخذوا يجرون مذعورين بين الدروب، لا يلوون على شيء، فانتهز بعض اللصوص المغاربة، الذين تعجّ بهم المدينة، الفرصةَ للسطو على ممتلكاتهم، ونَهْب محلاتهم بل وتعقّبهم من خلف، ورَمْيهم بالرصاص، ولولا تدخّل جنود الباشا، بعد أخذ حصصهم طبعاً، لكان الوضع أدهى، وأمَرّ؟!

١ كانون الثاني/ يناير

لمّا مرّت هذه "العاصفة" بسلام، وعادت أجواء الثقة والهدوء، تمّ اعتقال رجلَيْن من الأعيان، كان لهما يد طُولى في ترويج هذه الإشاعات بدافع الفتنة والإخلال بالنظام، وهذه خطوة شجاعة، وإجراء فعّال، ساهم إلى جانب خبر رُسُوّ أربعة آلاف جندي بموگادور في تهدئة الرأي العامّ. كما بعث يهود موگادور رسائل ليهود مراكش، يدعونهم فيها إلى الاِستعداد للالتحاق بالحملة ضدّ متمرّدي حاحا.

إن الصراعات الداخلية والتناحر القَبَليّ ليس بالأمر الغريب على المغاربة، فذلك دأبُهم لقرون وقرون، تُغذّيها الأطماع السياسية، والزعامات الدِّيْنية، والسيطرة على المواقع الاقتصادية. لهذا، يجب أن نكون مُتيقّظِين في مدينة مثل مراكش، لأن هذا الهدوء الظاهر ما هو إلا رماد يخفي تحته جمراً ملتهباً، يكفي تحريكه ليصيرَ جهنّم حمراء! فشهور من الاحتلال لا

تضمن كامل السيطرة على المغرب، إن ذلك سيُكلّفنا وقتاً أطول، وجهداً أكبر، وجنوداً أكثر، وإمداداتٍ لا تُقدَّر.

إن احتلال المغرب لا يتوقّف فقط على توزيع الفِرَق العسكرية على كل شبر من أرضه، وإنما بتوفير قوى احتياطية، تتركّز في مواقع استراتيجية ذات أهمّيّة، لإقبار أيّ بذرة تمرّد في مَهْدِها. ولا شكّ أن مراكش في مقدّمة تلك النقط الحسّاسة، لأنها قبلة للحركات الصاعدة من الجنوب، وتعلَّمْنا من التاريخ أن الأُسَر المطالبة بالحكم تكون أكادير عاصمة سوس هي مهدها، ومنطلقها. إضافة إلى موگادور معقل حاحا الذين مردوا على التّمرّد منذ القديم. لذا وجب علينا تعزيز مراكز التموين والذخيرة، بمزيد من الحراسة. ومتى تمكّنّا من ذلك، سنضمن إحكام سيطرتنا وفرض الهدوء، وحصر دور سوس، وحاحا، والدير، والحوز، في الجانب التجاري، لا غير، كي تمدّنا بالزيوت، والجلود، والحبوب، واللّوْز، والسُّكّر هذا الذهب الأبيض الذي كان مصدر غنى وترف في عهد المنصور، فبفضل عانداته، تمكّن من تطوير عاصمَتَيْه مراكش وتارودانت، وهي حقيقة قريبة، غطّتْها الذاكرة الشعبية بأساطير، في مقدّمتها أسطورة قصر البديع الشهيرة. وما زالت بعض الأطلال في القصبة تشهد بذلك، مع أحد أبواب القصر المصنوع من النُّحاس الذي أصبح يُغلَق به باب الخميس.

اختار السلطان مولاي إسماعيل - الذي طلب يد أميرة كونتيّ - مدينة مكناس عاصمة له، وبالغ في تأنيقها، وتجميلها، ولمّا زار مدينة مراكش، هالتْهُ ضخامة قصر البديع وفخامته، شعر بالامتعاض والغَيْرة، كيف لا، والذاكرة تروي أنه كان بالقصر من الغرف مثل عدد أيّام السنة؟! وبينما هو مُستلقٍ على إحدى الكنبات للاستراحة من نَصَبِ السَّفَر، أجال بصره في السقوف المُذهّبة والثريا المُعلّقة، والجدران المنقوشة بزخارف بديعة

وأرضيّته المفروشة بالزرابي الوتيرة فوق الزليج الرخامي، وبينما هو مأخوذ بهذه التحفة الساحرة، إذ رأى عبيداً يحملون "مقارش"، فقال السلطان مُتفاجِئاً: "ما هذا؟" فأجاب العبيد: "جرت العادة، يا مولاي، أن نعدّ هنا ماء الوضوء". فأدرك السلطان مولاي إسماعيل إلى أيّ مكان دخل! فقال صارخاً من الغضب: "من العار أن يخصّص مكان بمثل هذه العَظَمَة لقضاء حاجة المرء البسيطة، محال أن يرضى الرسول بهذا"! فأعطى أمره بتدمير القصر، وحمل أثمن ما فيه من أخشاب نفيسة، وصحون رخامية، وأمتعة نادرة، إلى مكناس. فلم يبقَ من هذا القصر الجميل سوى أطلال حزينة، وثلاثة صهاريج جافّة، كان أحدها يُملأ بماء الورد.

كانون الثاني/ يناير

وضعت مراكش رجلَها على ركب التّمدّن والتطور تحت قيادة العقيد مانجان والباشا الحاجّ التهامي ذي الفكر الثاقب، والحركية الدائمة. وتمّ تعيين ضابط، يتولّى المصالح البلدية، وشقّ قنوات التطهير بالمدينة، فلم تعدْ ثمّة بِرَك آسنة، ولا مزابل. وبُنيت المجازر خارج الأسوار في انتظار خَلْق بلدية مختلطة، تضمّ أعيان الأهالي والضّبّاط والأطبّاء، ليوكل إليها تدارس قضيَّتي الوقاية والمجارير. وكان يلزم كل "مقدّم" حيّ بتطبيق القرارات التي خرجت بها اللجنة.

تلقّى السّكّان هذه الإجراءات باستحسان كبير بعد أن كانت مطموسة في مكاتب الإدارة المغربية التي كانت قاسية في معاملة الفقراء، أمّا نحن، فسنُعيد إليهم كرامتهم وإنسانيّتهم. كما تأسّست مدرسة فرنسية - عربية مكان مسجد "الرجال الزرق"، ودشّنت كذلك حديقة رائعة، بالقرب من الكتبية، وأسوار مستشفى الأهالي Mouchamps – باسم الطبيب

الفرنسي الذي قُتل بمراكش سنة ١٩٠٧-، كما بُني مستوصف وسط الحَيّ الشعبي لاستقبال المرضى مجّاناً، ومدرسة فرنسية لليهود بالملاح، وقاعة للفحص. ومكّنتْنا عملية جَرْد واسعة من إحصاء أملاك المخزن من أراض، وبنايات، وحدائق، وزياتين بُدِّدت أو بيعت بأثمنة بخسة. وشيدت طُرُق في مسالك وعرة، بتعاون مع سواعد الأهالي والعسكريّيْن، تربط بين مراكش والدار البيضاء، ومازگان وموگادور. وتقلّصت مُدّة الرحلة بين الدار البيضاء ومراكش لأقلّ من يوم، وانخفض ثمن تذكرة الركوب إلى مائة فرنك. وشيدت فنادق، تكلّف الباشا نفسَهُ ببناء إحداها، ليستقبلَ السّيّاح الذين سيحجّون لمراكش للتّمتّع بروعة وجمال الأطلس الذي تعلوه القِمَم الثلجية الناصعة، وشُقّت طُرُق صعبة تحت أقدام الجبل، وشارع فسيح، يسهل التّجوّل بمحاذاة أسوار المدينة.

يُقدّر عدد ساكنة مراكش بالثمانين ألف، بينهم المئات من الأوروبيّيْن. وفتحت عدّة مطاحن، وازدهرت تجارة البهائم، والأصواف، والحبوب، والجلود، والزيوت، والبيض والشموع. وخُصّصت ساحات واسعة خارج الأسوار للأوروبيّيْن الذين سيأتون للاستقرار بين أحضان أشجار النخيل الفاصلة بين المعسكر والمدينة. وتمّت برمجة محطّة قطار ومسرح ومدارس في المستقبل القريب. وتفادياً لأيّ مضاربات عقارية، فُرض إلزامٌ على كل مَن اقتنى أرضاً بالشروع في إعمارها. ونَظَراً لمؤهّلات مراكش المناخية، وغنى أراضيها، وقربها من الأطلس، فستصبح مركزاً هامّاً للمستعمر.

شباط / فبراير

تُشرف فِرَقُنا على حراسة بابيَ شمال المدينة وجنوبها، بتنسيق مع رجال الباشا، ولم يُسجّل أيّ اصطدام للأهالي مع المقيمين الأوربيّيْن،

ولحزم الباشا، وعدم تساهله، وحُسن تدبيره لشؤون الساكنة. وتسبّبت طقوس عيساوة العنيفة القائمة على طَعْن الأجسام بالسكاكين في خلاف بين العقيد مانجان الذي استشار الباشا عن إمكانية منعها، لكن الباشا ردّ عليه قائلاً: "لِمَ نحرم هذه الطائفة من ممارسة شعائرها، وهم اعتزلوكُم، ولم يمسّوكم بسوء؟ اتركوهم ينزلون لشوارع المدينة، ولتتكلّف فِرَقكُم بحراستهم".

وذلك ما تمّ بالفعل، فقد مارسوا طقوسهم في أجواء احتفالية دون مشاكل، وبرهن السّكّان في أكثر من مناسبة عن حسن نواياهم. فكم مرّة جاؤونا بأوربيّيْن دخلوا مساجدهم سُكارى، ورموها بالأوساخ، وشتموا المُصلّين دون أن يُلحقوا بهم أذى، وإنما اكتفى كبراؤهم بتقديم شكاوى وتظلّمات لدى الباشا. فما علينا سوى التّصرّف بحكمة وتعقّل، ليسهل علينا رَبْط جسور التفاهم وتحسين الأجواء مع المغاربة. لكننا، في المقابل، لا يجب أن نتساهل مع أولئك الذين يسعون لإثارة الأحقاد الدِّيْنية والعِرْقية.

آذار / مارس

تراجعت الحركات عن تارودانت، فوجب تعيين رجل جريء، وقائد محنّك، ليقود هجوماً على عاصمة سوس. فهذه المجموعات غير مؤهّلة، وتفتقد للتنظيم والفعالية اللازمَيْن. وأذكر أنه سبق للحاجّ التهامي أن قال للعقيد مانجان: "إني قادر على الوصول إلى تارودانت في أقلّ من شهر، والرَّمْي بالهيبة خارج الصحراء". وما ذلك بعزيز على رجل مثل الحاجّ التهامي الذي أُوتي من الشجاعة والذكاء والكاريزما ما يُرشّحه، ليكون قائداً ناجحاً. فقد علّمَنا كيف أبلى البلاء الحسن في مواجهة الهيبة، وكيف اخترقت برنوسه رصاصة، لمّا كان عائدا من مطاردته. ورأيْنا، شهرَيْن بعد ذلك، أي

في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، دورُه الكبير في التّصدّي لمسيوة الذين كانوا يرمون مدفعيّتنا بالرصاص، أجمل ما في الرجل عشقه "للبارود". لذا، لم يجد الجنرال ليوطي أصلحَ منه لإخماد الفتنة في سوس.

آذار / مارس

يحترم البربرُ نساءَهم أكثر من العرب، ففي الوقت الذي لم يكونوا يجدون غضاضة في زيارة الأوروبيّيْن لهنّ، كانت العربيات يعشنَ في بيوت أشبه بالمعتقلات، لا يتعاملنَ سوى مع العبيد، ويعشنَ حياة مُملّة، ليس لهنّ سوى التّحلّي بالمجوهرات، وتربية "صعاليكهنّ" والموسيقى، كما هو الشأن لأولئك الشركسيات اللواتي يعزفن البيانو بنغمات تركية، ولم يكن لهنّ أدنى حظٌّ من الثقافة، وإنما جُلّ اهتماماتهنّ محصورة في الحديث عن الأزواج والمكائد الغرامية.

الفصل التاسع
في بلاد تادلة

الثلاثاء ١٨ آذار / مارس

توصّل العقيد مانجان البارحة بتلغراف من المقيم العامّ، يأمره فيه بالتّحرّك صوب وادي زم لمواجهة تادلة "السائبة" التي تنامت تهديداتها لمراكزنا. وتشرّفتُ بأن أكون من جملة الضّبّاط الذين سيرافقون العقيد في هذه المهمّة.

قضينا ليلة بيضاء في تحفيزالضّبّاط، وتوزيع المهامّ عليهم، ثمّ إيقاظهم، وحزم الأمتعة، والبحث عن السّيّارات وسط المدينة النائمة!! صادرْنا سيّارَتَيْن، ركبْنا إحداها، وخصّصْنا الثانية لحَمْل معدّات المطعم، وسرير، وسرج. ووطّدْنا نفوسنا على الإقامة مع رفاقنا في محطّاتهم المتواضعة في انتظار وصول الخيام المحمَّلة على ظهور البغال، لأن سيّارتنا الصغيرة لا يمكنها تحميلها...

قطعْنا بلاد الرحامنة بسهولها الحمراء، والآلاف من اليرابيع تعدو أمامنا مذعورة من هذه الوحوش المتسلّلة في صمت، بعجلاتها المطّاطية المرنة والخفيفة.

عبرنا أمّ الربيع، إلى بلاد الشاوية، لتصبح التربة سوداء، وبحلول الثالثة بعد الزوال وَصَلْنَا إلى برشيد، حيث ينتظرنا الجنرال ديت Ditte والقبطان دوگان Daugan بسيّارَتَيْن مزوّدَتَيْن برشّاشَيْن، وحملانا في اتّجاه وادي

زم، وَصَلْنَا لمحطّة بن أحمد حوالي الساعة الخامسة بعد أن قطعْنا أراضٍ خصبة بالشعير، وتلالاً مَكسوّة بأزهار وردية. كانت السماء مُلبّدة بالغيوم، وحُبلى بالأمطار في أجواء باردة، ارتعدت لها فرائصُنا، واصطكّتْ أسناننا.

علمْنا أننا لن نتمكّن من البلوغ إلى وجهتنا وادي زم. ووصلتْنا معلومات، تفيد أن الطابور سينطلق في اتّجاه الشمال دون أن يترك فِرَقاً تُؤمّن حمايتنا من هجمات العدوّ على سيّارتنا في هذه الطريق المُوحِشة.

بدأنا نسمع صوت قذائف المدفع آتية من جهة مركز وادي زم. لقد شهد هذا الموقع، منذ بضعة أيّام، مواجهة شرسة مع العدوّ، فقدْنا فيها الكثير من الرجال، سواء منهم مَنْ دُفن في ساحة المعركة، أو مَنْ مات بعد ذلك متأثّراً بجروحه البليغة في مستشفى برشيد، حيث استقبلَنا الرفاق هناك بالترحاب وكامل العناية، وإن كانت مراكزهم صغيرة، لا تتّسع للجرحى كلهم، أمّا أنا، فقد خُصّص لي سرير في غرفة التمريض.

هاجم العدوّ أحد الدواوير الحليفة، واقتلع أعمدة الخطّ التلغراف بين بير مزوي ووادي زم، فلم تعدْ تصلنا أيّ أخبار عن الجبهة في الأمام! أو تلقّي أيّ أوامر عمّا سنفعله غداً! فالمسافة الفاصلة بين مركز بن أحمد، ومركز وادي زم خمسة وسبعون كيلومتراً، يتوسّطها الخطّ الوحيد الذي يربطنا بالعالم الخارجي هو الخطّ الرابط بين مركز وادي زم والتلغراف اللاسلكي في الدار البيضاء الذي ستصلنا منه، حتماً، آخر التعليمات والمستجدّات.

١٩ آذار / مارس

لحقتْ بنا أمتعتنا، ولم نتوصّل بأيّ جديد هذه الليلة، فانطلقْنا بالسّيّارَتَيْن في اتّجاه بير مزوي في طريق، قيل لنا عنها إنها آمنة إلى حدّ ما،

وبالفعل، لم نصادفْ سوى قوافل جمال، بادلْنا أصحابها التّحيّة مبتسمين، وكان السائقون الإسبان يقودون البغال الضخمة المربوط بعضها إلى بعض في شكل سلسلة، تتدلّى من أعناقها أجراس كالقلائد.

يبدو أن المنطقة خصبة، فعلى طول الطريق هناك مزارع الشعير الخضراء فوق التلال، تتخلّلها بعض الأزهار، وحدائق الكروم المحاطة بالأسوار الحجرية، والخيام الداكنة، وقطعان الأبقار والأغنام ترعى في المروج الواسعة ... لكننا كُنّا نتقدّم ببطء شديد، يكتنفنا الضباب فوق طريق مُبلّلة برذاذ المطر.

التقيْنا جرحى مبعوثين إلى "التمريض" ببن أحمد. وعندما انطلقْنا حوالي الساعة الثامنة وصلْنا قلعة أولاد عبدون التي تحصّنت فيها السّريّة المغربية للنقيب فومي Fumey وقسم من الجنود "المستعمرين". استغرق الوصول إلى بير مزوي ساعة كاملة، فوجدناه محروسا بسريّة من الزواف، وقسم من الفيلق الألبيننى الكامل التجهيز عدّة وعتاداً. ولم تعد تفصلنا عن وادي زم سوى ثلاث مراحل، وبدأتُ الشعور بعدم الأمن والتّوجّس. فمنذ أسبوعَيْن فقط، غير بعيد من هنا، قرب دوار بني سمير، هاجم آلاف الأعداء جنود المقدّم مانجان. لكن حركة من تادلة هاجمت الدوار نفسه يوم السابع عشر من آذار / مارس.

تحرّكْنا بأقصى سرعة للخروج من هذه المنطقة غير الآمنة إلى وجهتنا الرئيسة وادي زم. مررْنا ببني سمير الذي تحوّل لساحة حرب، فهناك المئات من جثث الخيول والحمير، بعضها تنهشُها الكلاب، وكثير منها يلفظ أنفاسه الأخيرة. وعند سماعها أزيز السّيّارة رفعت رؤوسها، ورمقتْنا بعيونه، كأن لسان حالها يقول: أغيثونا ... وبين الأحجار جثّة أحد المحاربين، ارتسمت على وجهه ابتسامة بلهاء، بعينَيْن شاخصَتَيْن، وفكّ أبيض محطوم ...

بدت سقوف منازل بني سمير ومركز وادي زم فوق المرتفع الصخري لامعة تحت أشعّة الشمس، وفي المنبسط نباتات شوكية نادرة. كانت هناك حركة غير عادية، فالسّكّان الذين احتموا بأسوارنا في أثناء الهجوم خرجوا لجَمْع جثث أهليهم "وتغسيلها"، ودَفْنها. وأخذ الغنائم الرخيصة التي خلفها العدوّ وراءه. بعد ذلك نصبوا خياماً بئيسة فوق الأحجار قرب سور المركز طَلَبَاً للأمن بعد أن فُجعوا بفَقْد سبعة عشر ومائة قتيل، معظمهم من النساء والأطفال. وحملوا جرحاهم فوق نعوش، صُنعت كيفما اتّفق، وسط عويل النساء الثَّكْلَى والأرامل، بينما بعضهنّ يحملنَ أكواماً من الحطب والشوك على ظهورهنّ بوجوه مكشوفة، وشعور تطلّ من تحت المناديل، تعلو وجوههنّ الصفرة والشحوب، ورسمنَ فوق أرنبات أنوفهنّ، وعلى الأكفّ نقوشاً بصباغة حمراء، وعلى الذقون أشكال زرقاء، وتَمَنْطَقْنَ بخِرَقِ ثوبٍ بالية.

٢٠ آذار / مارس

غادرْنا وادي زم على الساعة السابعة نحو قصبة بني سمير، حيث لازالت جثّة المحارب التادلاوي ممدّدة، وإلى جانبه الهراوة التي ضربه بها نساء الدوار، الخيول جميعها التي تركناها تحتضر نَفَقَتْ. تجاوزْنا أولاد عبدون، وبن أحمد، وبرشيد، لنحطّ الرّحال بالدار البيضاء في تمام الساعة الواحدة بعد الزوال، لنُفاجأ بقرار المقيم العامّ إعادة بعثة العقيد مانجان إلى وادي زم.

٢١ آذار / مارس

انطلقْنا على دفعَتَيْن، الأولى صباحاً بسيّارة الرشّاشة نحو الدار البيضاء.

بينما ركبتُ أنا في الثانية، ولم يحالفنْي الحظّ مثل باقي الرفاق الذين تمكّنوا من الوصول إلى بير مزوي في المساء لكثرة الأعطاب، فاضطررتُ لقضاء الليلة بمعسكر أولاد عبدون ضيفاً معزّزاً مُكرّماً عند النقيب فومي ورفاقه.

٢٢ آذار / مارس

وصلتُ إلى بير مزوي في الساعة الثامنة تحت أمطار خفيفة، أضفتْ على المعسكر مسحة من الكآبة، زادت من وطأتها الأمطار العاصفية التي ضربتْ خيامَنَا طيلة الليل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل العاشر
في مواجهة الزياني

٢٣ آذار / مارس

علمْنا بتأهّب الزَّيّاني(*) ورجاله لمواجهتنا. هذا الرجل الذي كان مُجرّد اسمه يبعث الرعب في النفوس، لأنه الأكثر تنظيماً وحنكة في قيادة المعارك، فأعطى العقيد مانجان أوامرَه للفيلق الألبيني بتخصيص هذا اليوم بأكمله لنَقْل المؤن والمعدّات الحربية كلها من مركز بير مزوي إلى مركز وادي زم البعيد بنحو ثلاث ساعات، وإصلاح الخطّ التلغرافي الذي دمّره العدوّ.

حاولت دوريات أصدقائنا ببير مزوي، تحت إشراف "القايد" عمر الشجاع، إبعاد بعض فرسان العدوّ الآخذة في التّحرّك إلى السفح.

غداً، سنغادر بير مزوي نهائياً، ولن نُبْقِيَ، هناك، سوى على مركز واحد

---

*) موحا أوحمو الزَّيّاني (١٨٥٧ . ١٩٢١): من كبار المقاومين الأمازيغ. اشتهر بمعركة لهري. لمّا سمع باحتلال الدار البيضاء، استنفر قبائل زَيان ومَنْ والاهم من القبائل المجاورة، إلى أن حلّ بقلب قبائل الشاوية. وحّد موحا أوحمو وموحا أوسعيد جهودهما لمواجهة القُوّات الفرنسية الغازية تحت قيادة الكولونيل مانجان، وألحقا به خسائر فادحة، تراجع بسببها إلى منطقة تادلا. وعن انتصارات هذا الجيش الأمازيغي، قال المارشال ليوطي: "هذا الجيش يواجه الموت بمثل أعلى موحّد". حاول الجنرال هنريس، كما حاول قبله ليوطي استمالة القايد موحا أوحمو، الذي كان يقول دائماً: "لن أرى مسيحياً إلا من خلال فُوَّهة بُندُقيّتي وأصبعي على زناد الرَّمْي"، لأنه كان يُوقن أنه على رأس قبيلة معروفة بالشجاعة النادرة وقُوّة الشكيمة، على حدّ اعتراف الجنرال غيوم نفسه: "لا تكمن قُوّة الزَّيّانيّيْن في كثرة عددهم، بقَدْر ما تكمن في قُدرتهم على مواصلة القتال، بالاعتماد على ما كانوا يتحلّون به من بسالة وتماسك وانتظام". انظرْ: أحمد بن قاسم المنصوري: كباء العنبر من عظماء زَيّان وأطلس البربر؛ تحقيق: أ. أحمد بلحسن، ط١، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ٢٠٠٤.

للتموين، بينما سنُركّز اهتمامنا كله على وادي زم، كما ستلتحق بنا فِرَق إضافية، لتدعيم مواقعنا. أقلعت السماء، وإن أبقتْ على عبوسها بلونها الرمادي الكئيب. بينما، هناك، على السفح الممتدّ إشراقة الشمس تبعث الدفء فوق مزارع الشعير، والقمح التي تطلّ سنابلها بين الأزهار الصفراء.

٢٤ آذار / مارس

رفع الطابور المعسكر في اتّجاه وادي زم. ولازالت الغربان تحوم حول جثث الخيول النافقة في المكان الذي سلّم فيه يوم الخامس عشر المقدّم مانجان إلى عصابات تادلة. استرجعْنا مشاهد مروّعة لذلك اليوم الدامي يوم السابع عشر، لمّا شنّ العدوّ هجومه الكاسح على الدوار المحصّن لبني سمير.

وإمعاناً من بني سمير في التنكيل بأعدائهم التدلاويّيْن، وإشفاء لغليلهم، أقدموا على نشر جثثهم على قارعة الطريق، لتنهشها الكلاب. فكان منظر البطون المبقورة، واللحوم الحمراء المسلوخة عن العظام البيضاء، مع الروائح التي تزكم الأنوف منظراً مروّعاً، تقشعرّ منه الأبدان، وتشيب له الولدان.

إن التمثيل بجثث العدوّ المهزوم، وإطعامها للكلاب والطيور عادة مغربية مُغرِقة في الوحشية. ولمّا حاول العقيد مانجان إقناع شيخ القبيلة بمواراة تلك الجثث التراب، احتجّ قائلاً بأنهم يستحقّون أكثر من ذلك، لغدرهم بالمدافعين عن الحصن، لمّا نادوا كل واحد باسمه، فتوقّفوا عن إطلاق النار، وأمّنوا لهم، وفتحوا لهم الأبواب، لكن الكثير منهم كان قد تسلّل عبر منافذ جانبية في السور.

٢٥ آذار / مارس

وَصَلْنَا، أخيراً، إلى وادي زم، وهو حصن شيد على مرتفع، يطلّ على سرير واد قليل الجريان، وحوله التلال الصخرية الجرداء التي اتّخذها العدوّ منذ عدّة شهور شرفات لقصف الأسوار. وليس داخله سوى "أكواخ" [٢٠٤] مَبْنِيّة بالخشب، وبعض الخيام، والمؤن. يعيش الحيوان مع الإنسان جنباً إلى جنب وسط أكوام من الحطب والصناديق الخشبية. أُصلح الخطّ الهاتفيّ تحت خيمة. واتّخذنا الاحتياطات كافّة لأيّ حصار مُرتَقَب، وذلك بوَضْع مُربّعات التبن في مداخل السور، مع حاجز قصبي تحسّباً لأيّ هجوم مباغت، فاتّخذْنا بعض الإجراءات الضرورية كإغلاق الممرّات الضّيّقة كلها التي يمكن أن يتسلّل منها العدوّ، مع وضع ألغام في الممرّات المؤدّية لمنبع الماء الذي تتزوّد منه الحامية. وتعرّض هذا المركز، منذ أن تأسّس في كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٢، لعدّة هجومات. وتبادلْنا، في هذا اليوم نفسه، طلقات نارية مع العدوّ، ولمّا ضاق الحصن بطابورنا الضخم، انقسمْنا إلى فرقَتَيْن، وعَسْكَرْنا خارجه فوق المرتفعات المجاورة.

أكّد لنا أحد جواسيسنا أن موحى أوحمو الزَّيَّاني بمعيّة ألف محارب وبُندُقيّة يوجد على بُعْد ستّ مراحل من المركز في الغابة، بمعسكر بطمة عيساوة، فقرّر العقيد مانجان مباغتته عند منتصف الليل، فهذا القائد البربري هو خصمنا اللدود الأكثرعناداً، يتحصّن بالمنطقة الغابوية التي تُغطّي جبال بلاد زَيّان المنارة الحقيقية للمغرب الأوسط، ويظنّ أنه في مَنأى عن أسلحتنا التي تقصف القبائل المجاورة التي يُرغمها على الانضمام إليه للجهاد ضدّنا.

شَعَرْنا بتحرّكاته مع قبيلتَي بني مطير وبني مگيلد للهجوم على مراكزنا الشمالية بالحاجب، وصفرو، ومواقعنا الجنوبية بوادي زم، كما كانت حركتا

تادلة، وبرابر الجبل تُهدّدان البروج، ولم يكن معسكر كريستيان Christian المتمركز ببلاد زعير، بدوره، بعيداً عن تهديداته، فأبدى رجالنا حماساً منقطع النظير لبدء الهجوم.

ولمّا كُنّا على أتمّ الاستعداد للانطلاق في الساعة العاشرة وثلاثين دقيقة - بعد فترة قصيرة من النوم - وَصَلَنا تلغراف من الجنرال ليوطي، يأمرنا فيه بالتّريّث. وما إن أوقفت الفِرَق استعداداتها، وهَمّ الجميع بالرجوع إلى مضاجعهم، حتّى وصل تلغراف آخر مُفاجِئ، يُؤذِنُ ببدء الهجوم ومطاردة الزَّيَّاني على الساعة الثانية عشرة وثلاثين دقيقة بعد منتصف الليل بدل منتصف الليل.

يضمّ طابورنا ثلاثة آلاف من المشاة (سنغاليّيْن، وزواف، وألبينيّيْن، واستعماريّيْن، و"رماة" Tirailleurs جزائريّيْن)، وأربع رشّاشات، وعشرة مدافع، وأربعمائة فارس، وثمانمائة جمل، تحمل المؤونة والذخيرة الاحتياطية. وانقسم الطابور إلى فرقَتَيْن كبيرَتَيْن، تقوم الأولى بالمناورة برئاسة المقدّم مانجان، بينما تتولّى الثانية حماية القافلة بقيادة العقيد: گيدون دو ديف Gueydon de Dives، تحرّكْنا نهاراً دون مشاكل تُذكَر، وحده القمر الملثّم بالسُّحُب يتابع تقدّمنا فوق المراعي الشاسعة والتلال المَكسوّة بصفائح صخرية بيضاء. كلّما سمعْنا نباح الكلاب، عرفْنا أن ثمّة دواوير قريبة، وإن كانت غير مَرئية.

نبّهَنا المرشدون منذ الربع الأخير من الليل إلى وجود دشرة مسوّرة بحزام قصير من الحجارة الجافّة بداخلها عدّة مطامير مملوءة بمؤونة القبيلة من الشعير والقمح، لا يحرسها إلا نفر قليل من أهل القرية، بينما نزح معظم السّكّان إلى السهول للإقامة في "عِرْبَات" مع قطعانهم. بنى البراكسة إحدى الفخذات الصغيرة لقبيلة السماعلة، هذه الدشرة فوق

تلّة إسوة بباقي الدشرات الأخرى. وقال المرشدون إنه من الممكن أن يكون السماعلة يحرسون أسوارها. لذلك تلقّى الخيّالة الأمرَ بمحاصرة الحصن، وعدم السماح للمقيمين فيه من الفرار في اتّجاه الشرق لإخبار معسكر موحى أوحمو، فركض السبايسيون والگوميون المغاربة في المرتفعات المحيطة بالدشرة. وأطلق المدافعون طلقات نارية، فنزل الخيّالة أرضاً بعد أن أخذوا المواقع المناسبة على الميمنة والميسرة والمؤخّرة تحسّباً لأيّ هجوم مباغت من الخلف. وما إن تقدّمت طليعة الطابور نحو الدشرة حتّى فرّ الأعداء خارج الأسوار عبر الشعبة الموجودة في الجهة المقابلة، فاستحال على الخيّالة مطاردتهم داخلها لوعورة مسالكها، وضيق ممرّاتها، ولم يبقَ أمامهم سوى إطلاق النار.

أشرقت شمس اليوم الموالي، وأخذت الأرض تنخفض كلّما تقدّمْنا جهة الشرق، لنجد أنفسنا أمام سلسلة جبلية، حجبت الأفق بنتوءات مُسنّنة. فقال مرشدنا: "إن معسكر موحى أوحمو خلفها".

ولمّا دخلت طليعة المشاة في مواجهة مباشرة مع العدوّ تناهى إلى أسماعنا صوت القذائف، وصداها يُجلجل فوق المرتفعات، ثمّ سرعان ما اتّحد الطابور والقافلة في السهل. ولمّا تعذّر على المشاة التمركز بين هذه الشِّعَاب، قرّر العقيد مانجان الإبقاء على قطع من الطابور بالدشرة تحت حراسة فيلق من الألبينيّيْن. ودفعت الجمال بدورها خارج الأسوار. وبينما اتّجه قسم من الطابور ناحية الشرق، سار القسم الأكبر منه بمحاذاة الشعبة، وأجبروا العدوّ على التراجع نحو اليسار، كما تكلّف الفيلق السنغالي المسيطر على المرتفعات بالتّصدّي لغارات السماعلة على اليمين، في الوقت الذي تابع فيه الزواف والجنود المغاربة المساعدون مطاردة الأعداء من مرتفع إلى آخر. كما أسهمت المدافع المثبتة فوق الجبال في تمهيد

وتأمين الطريق أمام المشاة، لتمكينهم من التّقدّم نحو الوادي، حيث التحق بالزّيّانيّيْن كثير من المتعاطفين والمؤيّدين. فلم يجد الطابور بُدّاً من التّحرّك لمهاجمتهم تاركين للفيلق السنغالي مهمّة إيقاف زحف السماعلة.

ارتكب أحد الجنود من حلفائنا، ينتمي لقبيلة بني سمير، خطأً قاتلاً عندما تخطّى خطّ الرماة محاولاً الإمساك بخروف، فحسبه جندنا من الأعداء، فرموه بسَيْل من الطلقات، وعبثاً حاولْنا ثَنْي الرماة عن إطلاق النار، لكن الرجل كان قد خمد بين الصخور. وبينما كُنّا نأسف على ضياعه، خرج كالجرذ من مخبئه، وأخذ يعدو نحونا تحت وابل من الرصاص، لكنه لم يمسّ بسوء، يا لحظّ الرجل!! نجا بأعجوبة.

على الساعة العاشرة، تراءى لنا هناك في الوادي على بُعْد مرحلة، معسكر موحى أوحمو المُكوّن من ثلاثمائة خيمة بين البيضاء والسوداء. فأعطى العقيد مانجان الأمر للخيّالة، والسبايسيّيْن، وخيّالة الحَرَس، للزحف على العدوّ، ورغم الطريق الصخرية والمتشعّبة، وجحيم القصف المنهمر من فوق المرتفعات، تمكّنت الخيول من التّسلّق، والوصول إلى الخيام الكبيرة للعدوّ المصنوعة من وَبَر الجمال. وفي أقلّ من خمس عشرة دقيقة، وَصَلْنَا للمعسكر، لكننا وجدناه فارغاً. ترجّل الخيّالة، وأخذوا مواقعهم فوق المرتفعات، وشرعوا في تبادل النيران مع العدوّ الذي أخذناه على حين غرّة، حاول أن يُلَمْلِمَ صفوفه في هجوم كاسح، ليسترجع المعسكر، أُصيب على إثره أربعة سبايسيّيْن، وقُتل فَرَس الملازم (léscadron Le Biham)، وأُصيبت ستّة خيول أخرى، وجمح حصان أحد السبايسية فارّاً في اتّجاه العدوّ، وفَقَدْنا كثيراً من المؤونة، بل إن فريق الملازم فورتول Fortoul اضطرّ للانسحاب من مرتفع الجنوب، أمام الحشود الكثيرة للأعداء. ورأيتُ الرقيب بارتلمي Barthélemy قد وضع أمامه جثّة لأحد السبايسيّيْن.

لم نخرج من هذا المأزق إلا بفَضْل القذائف التي أطلقتْها المدفعية في الطليعة، فمرّت فوق رؤوسنا تُوَلْوِلُ، وفرّقَتْ صفوف الأعداء، فتمكّن المشاة والگوميون المغاربة والمستعمرون من التّقدّم، واسترجاع المواقع. وبدأت كتائب زَيّان تتراجع نحو الشرق في اتّجاه وادي گرو عبر وادي كثير الأشجار والأعشاب الجافّة. وأخذ الطابور وضعية التّعقّب والمطاردة فوق المرتفعات، ولم تعد تصويبات العدوّ دقيقة، لأن قذائف المدفع أفقدتْهُ تماسكه ورباطة جأشه. وهكذا حصلْنا لأوّل مرّة على مكان أبعد من معسكر موحى أوحمو، ثمّ جاءَنا فارس، يصيح فوق جواده، بأن فيلق السنغاليّيْن في الجناح الأيسرقد ألحق به السماعلة خسائر كبيرة، وهُم الآن يُطوّقونه من الجهات جميعها، ولاسبيل لإنقاذه إلا بتدخّلنا، فاضطررنا، مرّة أخرى، لإيقاف المطاردة، وإسعاف الفيلق المحاصر.

بحلول الساعة الثانية وصل "كابورال" من المشاة حاملاً رسالة من القبطان دوشمان Duchemin يُخبرنا فيها أن الفيلق السنغالي صامد ضدّ ألف من السماعلة، وأنه لم يخسر سوى رجلَيْن، وثلاثة جرحى، وينتظر مَدَدَكُم. أثلجت الرسالة صدورَنا، ورفعتْ معنوياتنا من جديد، وعلمْنا أن الفارس بالغ في تهويل الأمر. ها هو الفيلق السنغالي يعلو رأس الجبل، بعد أن آزره "المشاة"، وفرّ السماعلة عن بكْرة أبيهم.

وفي الساعة الرابعة، رجعْنا كلنا إلى دشرة البراكسة، فوجدنا الألبينيّيْن، الذين ردّوا صبيحة اليوم هجوماً صغيراً، قد سبقونا إليها. فقدْنا سبعة رجال، وأُصيب سبعة آخرون. لكن التعب والإعياء قد بلغا منّا مبلغاً عظيماً، فنحن لم نأكل لقمة خبز، أو شربة ماء منذ منتصف الليل. خضْنا معركة طاحنة، دامت ستّ عشرة ساعة متواصلة.

تمكّنّا من السيطرة على دشرة أخرى على بُعْد ألف ومائة متر من تلك

التي يحتلّها الألبينيون. وبنيْنا معسكرنا بينهما وسط السهل المَكسوّ بالأعشاب وحقول الشعير.

وحقّ لفِرَقِنا أن تفخر بهذا النصر المجيد. أظهر السبايسيون شجاعة نادرة وانضباطاً عسكرياً غير مسبوق، وتمكّنوا من إذلال موحى أوحمو الذي كان يعدّ نفسه سيّد الجبل وأسد والغابة. لكنه ولّى هارباً إلى وادي گرو للرجوع إلى معاقله ببلاد زَيَّان. ألم يكن يفاوض السلاطين مفاوضة النّدّ للنّدّ؟ ألم يكن مرهوب الجانب، وأجبر مولاي حفيظ على التّودّد إليه، ومصاهرته لمّا تزوّج إحدى بناته؟ أليس هو مَنْ تعالى على الرّدّ عن رسالة الجنرال موانيي إليه سنة١٩١٠ رغم أن فيها شروطاً مُذلّة لحكومتنا؟ أليس هو مَنْ هدّد طابور أوبير Aubert عندما دخل تادلة، بقَطْع الطريق عليه، إن هو تجاوز الحدود؟ فعلاً، إن سقوط زعيم زَيَّان كان له أكبر الوَقْع، وأبلغ الأثر.

الفصل الحادي عشر
عند السماعلة

٢٧ آذار / مارس

بأفول نجم زعيم زَيَّان توالت الاستسلامات، وسقطت المداشر، كما تسقط أوراق الخريف. فأخذت فرقُنا تجوب الضواحي بكل حُرّيّة، وتستولي على مخازن الحبوب التي خلّفها السماعلة وراءهم. تَبعَنا قسم من بني سمير، وعَسْكَرَ بالقرب منّا في ملاجئ من الحجارة أو "نوايل". وكانت النساء يطحنّ القمح بالرّحى، ويبعن لفرقنا رغائف من الخبز الطازج. وأصبحت المخازن مَلأى بالمُؤن والحطب، وخشب التدفئة. واستطاع بنو سمير المساكين الذين نُهِبَتْ ممتلكاتهم يوم السابع عشر آذار / مارس تجميعَ المؤن والحبوب، وشَحْنها إلى مداشرهم، كما غنموا خيام زَيَّان، واسترجعوا ما اغتصبوه منهم.

وبين الفينة والأخرى، كُنّا نسمع في طليعة المراكز طلقات معزولة هنا وهناك من فرسان تادلة، لم نكن نُلقي لها بالاً. وجاء "صالح"/سيّد أبي الجعد هذه الشخصية المحترمة التي تحظى عائلته بتشريف وتقدير كبيرَيْن منذ قرون لملاقاة العقيد، ويشفع للقبائل كلها التي أبدتْ عن استعدادها للاستسلام، لما كانت له من حظوة عند فرنسا. كما أن دور الوسيط هذا سيعود عليه بأرباح هائلة، يأخذها من القبائل المنهزمة، تُرافقه شخصية مُريبة، علمْنا أنه مترجمه وكاتبه الخاصّ، وهو دُرْزِيٌّ، يتكلّم الإنجليزية والفرنسية.

٣٠ آذار / مارس

ما زال الطقس سيّئاً جدّاً، فقد كاد الملازم دو لامورالیس De la Moralais القادم قبل البارحة من الطائرة أن يعودَ أدراجه فجأة لهطول مطر شديد ليلة أمس، ناهيكَ عن الرياح العاتية التي عبثتْ بالخيام قبل أن تُسوّيها بالأرض، وازداد غضب الطبيعة، فسلّطت بَرْدَهَا القارس على الرجال الذين سقطَ كثير منهم ضحية نزلات بَرْد شديدة، كادت تودي بهم. ولم تستثنِ الخيول التي وقفتْ تحت الأمطار مرتعشة، لأن مراقدها تحوّلتْ إلى بِرَك مياه مُوحِلَة ... فأجبرَنا على تأجيل تحرُّكنا نحو السماعلة المُصرِّين، دائماً، على حَمْل السلاح في وجوهنا ليوم غد.

٣١ آذار / مارس

بحلول الليل، أقلعتِ السماء، وفي صباح اليوم الموالي، انطلقْنا تحت غطاء ضباب كثيف. وغرقْنا في بحر من الأوحال، لأننا كُنّا نتحرّك في سهول حمراء محروثة، سَاخَتْ فيها قوائمُ الدّواب والرجال.

تنفَّسْنا ملء رئاتنا في مروج، لوّنتْها أزهار باسمة، وأخذت الخيول تقضم رؤوس سنابل الشعير اليانعة، وعلى يميننا فوق القِمَم البعيدة، يراقبنا أعداؤنا مُتسمّرين على جيادهم، فلا شكّ أن أحد الجواسيس قد أخبرهم بقدومنا.

ودون سابق إنذار، سمعْنا إطلاق قذائف مدافع معسكرنا على جموع العدوّ، لمّا حاولوا مهاجمته، فلم نجدْ بُدّاً من الإسراع إلى دخول المعركة، ونجدة رفاقنا تاركين مهمّة حراسة القافلة داخل أسوار الدشرة لفرقَتَيْن سينغاليَّتَيْن، عَلَونا المرتفعات كلها، فلم نرَ عدوّاً، ولا حليفاً. وحده هزيم

القذائف يصمُّ الآذان، ويتردّد صداه بين الفجاج والمرتفعات، إلى أن تمكّن السبايسيون، على سفح الجبل، من رصد نقط بيضاء بعيدة، قيل لنا إنهم فرسان العدوّ، ساورتْنا بعض الشكوك، فاستعنّا بمناظيرنا للتّحقّق من الأمر، فلم تكنْ سوى صخور بيضاء جامدة، زادت من ألقها ولمعانها أشعّة الشمس، فخالها رجالُنا برانس بيضاء.

وأمام إلحاح أصدقائنا للالتحاق بهم، صعدْنا إليهم عبر مسلك جبليّ صخري، لم نتسلّقه إلا بشقّ الأنفس لكثرة صخوره ذات النتوءات الحادّة، ونباتات شوكية، يعدّها الأهالي تهويلا ومبالغة "غابة" وما هي في الغابة من شيء، إن هي إلا مرتفعات غير صالحة للزراعة، اتّخذ منها السماعلة مجالاً رعوياً وسط أسراب طيور الحجل، وأوكار الأرانب، وجحور الثعابين.

لم يبقَ يفصلُنا عن تلك النقط البيضاء سوى ألفي متر، يا للعجب! صدقت عيون الرجال، وكذبت مناظيرنا!! إنه معسكر للمغاربة، ميّزْنا فيه بين السروج الحمراء والبرانس البيضاء والحفر السوداء التي حفرتْها حَدْوَات الدواب تحت أشعّة الشمس. كما رأينا أعمدة الدخان تتعالى فوق المعسكر ... فأصبحْنا نترقّب هلعين أن يقصفونا في أيّ لحظة. لكنْ، شَغَلَتْهُم رشّاشات وهدير قذائف مدفع فرقة كريستيان، لإحداث ممرّ يربطنا بهم. لكنْ، رابَنا أمر أولئك المغاربة القابعين كالتماثيل فوق رؤوسنا: فإن كانوا أعداء، قصفُونا، وإن كانوا أنصاراً، جاؤوا إلينا!!!

وحده النقيب كيري Kerré خلّصنا من هذه الحَيْرة، وفَكّ خيوط هذا اللغز لمّا قال: "إننا أمام طليعة فرقة كريستيان تقوم بحماية ظهور أصدقائهم، وتردّ على طلقات العدوّ المرابط فوق المرتفعات".

بعد ساعة، اجتمعت فِرَقُ الطابور كلها، وأحْصَتْ خسائرها: قتيل

واحد، وثلاثة عشر جريحاً من فريق كريستيان، في أثناء صَدّه للسماعلة. قرّر رؤساء الفِرَق أن يُعسكِروا قرب منبع ماء صاف، يفصل بين المراعي والمزارع، يُدعى جراح.

فاتح نيسان/ أبريل

كانت ليلة هادئة، لم تخدش سَمْعَنا أيّ طلقة رصاص، وببزوغ طلائع الفجر توجّهت إحدى الفِرَق للتّزوّد بالشعير بدشرة أولاد كردة المجاورة، كما ذهب بنو سمير "للتنقيب" على مخازن عدوّنا القديم، فولد كردة هو زعيم السماعلة. كم كان الضباب كثيفاً، هذا الصباح، فمدى الرؤية لا يكاد يتجاوز بضعة أمتار. لكن الطقس، رغم ذلك، كان دافئاً وساحراً.

غادرَنا طابور القبطان إبو Ibos زوالاً في اتّجاه معسكر كريستيان بعد أن التقط رجاله أنفاسهم، وأخذوا قسطاً من الراحة، فودّعُونا والبسمة تعلو وجوههم رافعين بعض مَنْ كانت إصاباتهم خفيفة فوق محامل على البغال. ولمّا مرّوا أمامنا، وقفْنا تحية إجلال لجثّة أحد المارسونيّيْن في طريقه إلى الدَّفْن داخل المركز، كي لا تمتدّ له يد المغاربة، وتقوم بالعَبَث بجثمانه.

توارى الأصدقاء عن أعيننا، فرجعْنا إلى المعسكر تحت أشعّة الشمس، حيث الخيام الرمادية اتّخذت شكل مستطيل فوق المرتفع الصخري المُطلّ على الوادي. وأخذ الرجال "يصبنون" ملابسهم في مياه أحد الروافد والتلال أمامهم تسدّ الأفق.

هنالك، وراء الكتل الصخرية الزرقاء لجبال زعير، حيث تُحلّق أسراب من الصقور، يختبئ معسكر كريستيان. أقمْنا اليوم بجراح حتّى يستريح الرجال وخيولهم من بعد ذلك العناء والعَنَت كلَيْهما.

٢ نيسان/ أبريل:

غادرْنا صبيحة هذا اليوم المنعش مُخلِّفين وراءنا ذلك المجال الصخري الكئيب الذي يرعى فيه السماعلة قطعانهم، ثمّ أفضى بنا سهل خصب إلى مرتفعات،عجزت خيولنا عن تسلّقها، فتراجعْنا تاركين المهمّة للفِرَق الكاكية، ثمّ تلاشى الضباب تحت أشعّة الشمس الدافئة.

رفضت القبائل المجاورة أن تبيعنا الشعير اللازم لعَلَف الدواب، فأوكلْنا مهمّة البحث عن المخازن في المداشر التي نمرّ منها، كما جرت العادة، لمنْ لهم تمرُّس وخبرة بالتنقيب عن المطامر، وإفراغها، وهم الگوميون المغاربة، والسبايسوين الجزائريون، فأبلوا البلاء الحسن، فأنجزوا المهمّة على أحسن وجه، وكشفوا مجموعة من المخازن، ثمّ قفلْنا راجعين إلى المعسكر القديم بدشرة البراكسة.

٤ /نيسان/ أبريل

لا شيء يُذكَر في الطابور خلال اليومَيْن المنصرمَيْن إلا المطر الغزير الذي عبث، ليل نهار، بالخيام بعد أن تقاذفتْها الرياح الهوجاء. ولمّا اشتدّ البرد القارس، تضاعفتْ معاناة القبائل التي تكبّدت خسائر فادحة جرّاء الحروب الأخيرة، فبعثت إلينا مفاوضين، بجلابيب رثّة، خرقها الرصاص. يشكون إلينا سوء أحوالهم بعد سطو فِرَقِنا على مدّخراتهم من الحبوب.

إلا أن بعض المتمرّدين العنيدين لا زالوا يشقّون عصا الطاعة، ومُصرّين على التّمرّد والمواجهة، وفي مقدّمتهم أيت الربع المقيمين على ضفَّتَي أمّ الربيع شرق معسكرنا والساعين، تحت قيادة زعيمهم موحى أو سعيد، للتحالف مع بني عمير ضدّنا. وسرعان ما بلغنا أنهم على بُعْد نصف يوم

من معسكرنا، وأن ابن الزعيم حوسى أوحمو كان أكثر تحمّساً للجهاد، وذلك من خلال رسالة غريبة، كشف عنها أحد مُخبرينا تقول بأن قبيلة طلبتْ من هذا الشّابّ البربري قيادتهم لقتال النصارى، وردّ عليهم قائلاً: "سُررنا برسالتكم التي تُخبروننا فيها أنكم متمتّعون بموفور الصّحّة والعافية، وعلمْنا كل شيء عن تحرّكات الكفّار ومَنْ يقف إلى جانبهم من الخَوَنَة الذين يُفترَض أن يحاربوهم ويُعلنوا الجهاد ضدّهم، لذا أقدم المسلمون المخلصون على مهاجمة أولئك العملاء يوم السبت، وقطعوا رؤوس ثلاثة منهم، وغنموا بعض بنادقهم. ثمّ استأنفوا غارتهم، بعد أن ارتاحوا يوم الأحد، على بني سمير، وحاولوا اقتحام الدشرة، واستئصال مَنْ تبقّى منهم، وقضى في هذه المواجهة عدد كبير من الطَّرَفَيْن، وأُصيب الكثير. وفي يوم الثلاثاء، رجعوا لنَقْل موتاهم، ومواراتهم التراب، ونَقْل المصابين إلى الخيام لإسعافهم. حفظكم الله ورسوله، ووقانا وإيّاكم من كل مكروه. وسلِّموا لي على كل "أسرتكم" الكريمة. والسلام عليكم. محمّد بن امحَمَّد المُسمّى ولد كردة".

وعلمْنا في المساء تصاعُد الغليان، وازدياد الحماس، لأن قبائل بني عمير نجحتْ في جَمْع ثلاثة آلاف بُندُقيّة، وتعبئة الحشود من أيت الربع، والشلوح، وتسليط أكثر من مائتَي خيال على مركز وادي زم، وترويج فكرة أن موحى أو سعيد سيرمي بالفرنسيّيْن إلى البحر.

٥ نيسان/ أبريل

حدث في هذا اليوم المُمطِر أمرٌ، أسفْنا له غاية الأسف، وهو ابتلاع بئر ضيّقة وعميقة أحد خيولنا، ولمّا أوشكنا على رَفْعه، بعد جهد جهيد، انقطعت الحبال، فانقطع معها أيّ أمل في إنقاذه. والمأساة نفسها تكرّرت مع ثلاث بقرات جرّاء الأمطار الغزيرة والضباب الكثيف. ازدادت الأوضاع

سوءاً داخل هذه الدشرة بنفاد مدّخرات المخازن، فاتّخذ منها الرجال ملاجئ، يحتمون فيها من قساوة البرد وغزارة الأمطار، لأنها واسعة ومنحوتة في الصخر.

ضرب العديد من التّجّار الجشعين خيامَهم حول مُخيّمنا غير مبالين بسوء الأحوال الجوّيّة. منهم الفرنسيون، والمغاربة، واليونانيون الذين تتضاعف أعدادهم يوماً بعد يوم. وكانوا يتقدّمون، دوماً، بطلبات تجديد رخصهم، ليُواصِلوا نشاطهم، كانوا يبيعوننا السجائر والشمع، والسُّكَّر، والشاي، والخمر، والمعلّبات بأسعار مرتفعة، وبين الفينة والأخرى يسوقون من مراكش قوافل، يحملون على ظهور الجمال حمولات كبيرة من "خضر" الملفوف.

السلعة الوحيدة التي كان يحظر ترويجها هي الخمور حفاظاً على صحّة، الجنود وانضباطهم، لاسيما أنهم كانوا يقضون معظم أوقاتهم في لعب الورق، والتّفكّه تحت الخيام مادامت مصلحة التموين تمدّهم بما يلزم من لحم، وخبز، وخضر جافّة، وسُكّر، وقهوة وخشب التدفئة، وتوفير العَلَف لدوابهم.

تحوّلت القافلة إلى سوق متحرّكة، فيها الجزّارون بملابسهم الزرقاء، وكتاب الرسائل، والخبّازون بأفرنتهم المُفكّكة. والأعيان على صهوات جيادهم يتهادون، وقوافل الجمال تنقل الحبوب، والحقائب، أمّا البغال، فتنوء بالقذائف والرصاص ولوازم الإسعاف مع الأَسِرَّة، والنعوش، والخيام، والأدوية، شأنهم شأن السنغاليّيْن الذين يحملون الأمتعة على ظهورهم، أما التّجّار، فيتبعون الجنود حيثما حلّوا وارتحلوا بقوافلهم المُثقَلَة بالسِّلَع المتنوّعة. ودأب بعض السبايسيّيْن على مساعدة الجزّارين في شراء، وذَبْح، وسَلْخ الأبقار والأغنام. وكنتَ تجد بين هؤلاء جميعهم صحفيّيْن، ومستكشفين، وعلماء، ومندوبي وكالات بيع السجائر، والمستثمرين في سوق الجلود.

الفصل الثاني عشر
معركة قصبة تادلة

٦ نيسان/ أبريل

اتّجه الطابور صوب أبي لجعد، بينما أيت ربع مرابطون بالسهل، والشلوح يتكتّلون بالجبل، ويعدّون العدّة تحت قيادة المتعصّب موحى أو سعيد. أمّا القبائل "خُدَّام" الوليّ الصالح لأبي الجعد "السّيّد"، فلجؤوا إلينا، يطلبون الحماية من تهديدات التجاني.

سرْنا في منبسط، تزهو فيه الأزهار بقاماتها الرشيقة، وتيجانها المرصّعة رافعة أعناقها، تنظر لخيوط الشمس الذهبية مستمتعة بشَدْوِ طيور السمان في الأخاديد، وسيمفونيات القبرات في جوّ السماء.

رافقَنا خيّالة السماعلة، حديثو العهد بالخضوع، مشدوهين بتحرّك الطابور المنظّم، فكانوا يُصدرون قهقهات صاخبة، ويطرحون أسئلة ساذجة، لأنه لم يكن لهم عهد بالأنظمة والمراسيم العسكرية: ولماذا هذه التّوقّفات المتكرّرة على رأس كل ساعة؟ ولمَ ترافقُنا هذه الرؤوس من الأبقار والأغنام كلها؟وهل يأكل جنودنا اللحم يومياً؟ قالوا ذلك، وقد برقت عيونهم، وبدؤوا يتلمّظون شفاههم، ويسيل لعابهم. فعلمْنا أنهم يشتهون اللحم الذي لا يأكلونه إلا لماماً، فغالب قُوت المساكين من الحبوب "المگلية"، ودقيق الشعير عسير الهضم. ولمّا رأوا فصيلة خيولنا الفرنسية العالية ذُهلوا، وشخصت عيونهم ...

Voir page 231.

DERNIÈRE PHASE DU COMBAT DE CASBAH TADLA
(Bombardement de Mechra Nefad. 7 avril 1913)

كلّما تقدّمْنا نقصت خصوبة الأرض، وتوارت الأزهار، وأصبحت الأعشاب أقصر فأقصر، والحجارة أكبر، وأكثر الأمر الذي أعاق تقدّمنا، وأعيا خيولنا. فسرْنا بمحاذاة رافد بين رابيات جرداء، ترعى فوقها قطعان لأولاد يُوسُف الذين بدت خيامهم قاتمة متّخذة شكل مستطيل فوق سهل رمادي.

مثلت أمامنا "أبي الجعد" وما هي إلا أضرحة كثيرة، وأسوار بيضاء، تستر بنايات مكدّسة، وصومعة تنتصب وسط المدينة ... وفي ضواحيها حدائق الزيتون والكروم ... وهناك في الأفق قمم الأطلس الأزرق ترصد رحلتنا.

أقمْنا معسكرنا عند الغروب فوق شعبة مزروعة بالشعير، ومحاطة بخمس آبار وافرة المياه. ولم تعدْ تفصلنا عن العدوّ إلا هضبة صخرية، يرى خلفها تصاعد دخان مُخيّمه، فتلقّيْنا أوامر بعدم إشعال النيران.

ما إن وصل العقيد مانجان حتّى تسلّل لعيادة حليفه الوفي "السّيّد" الذي كان طريح الفراش، فرحّبت المدينة الصغيرة ذات الأزقّة الضّيّقة والمُوحِلة بمقدمنا، وحيَّتْنا النساء مبتسماتٍ، ورغبنَ في محادثتنا على جنبات الطريق، فنحن في عيونهم الأبطال الذين أنقذوهم ممّنْ نَهَبَ قطعانهم وأسر رجالهم، ولا يزال خطره مُحدقاً على مَرمى حجر من المدينة.

أسرع أولاد يُوسُف على بكرة أبيهم لبناء الخيام تحت الأسوار استعداداً لصَدّ موحى أوسعيد زعيم الحركة هذا العجوز الأعور والأعوج، وشبه العِنِّين. ولمّا علم "السّيّد" بأننا ننوي مباغتته بقذائفنا، أمَدَّنا بخمسين من المشاة من بني زمور، ليكونوا في الطليعة دون بنادق، وإنما بأسلحة بيضاء متعطّشة لدماء أولئك الغزاة المعتدين. قبلْنا الاقتراح، ورحّبْنا به.

٧ نيسان/ أبريل

ورفع الطابور، على الساعة الثانية صباحاً، خيامَهُ، وحمّل قافلتَهُ تحت عتمة الليل وسط رغاء الإبل المُزعِج، وصراخ الرجال الأهوج. وما ظنّكَ بحشود، تزيد على أربعة آلاف رجل، وألفَي حيوان، تسبح في ظلمة حالكة؟!!

انطلق الطابور متثاقلاً لوعورة المسلك، طلع الفجر، ولم نقطع سوى كيلومترات معدودة. تبادل الخيّالة في مقدّمة الطابور طلقات مع بعض المحاربين من بعد شلوح الأطلس، وأيتُ الربع جيران خرجوا لملاقاتنا، لمّا وصلتْهم أخبار تحرُّكنا نحوهم. وأخذ حلفاؤهم من بني عمير مواقعهم على يميننا، وبدؤوا يتحرّكون بدأب ذات اليمين وذات الشمال.

لا خيار أمامنا سوى دَحْر العدوّ إلى قنطرة قصبة تادلة المقامة على نهر أمّ الربيع، ثمّ سَدّ الطريق أمامه حتّى لا يبقى له معبر، تجوز منه بضائعهم وقطعانهم آخذين بالحسبان الأهمّيّة الاستراتيجية لهذه القنطرة، لاسيما بعد ارتفاع منسوب النهر وقُوّة جريان مياهه بعد الأمطار الغزيرة التي شهدتْها المنطقة.

لكن العدوّ فطن لمناورتنا، فأراد ربح مزيد من الوقت، ليتمكّن من اجتياز النهر بما يكفي من الأمتعة، طيلة إقامته بالأطلس، إلا أن الرشّاشات والبنادق لم تُعطِهِ كبير وقت، "فالقياد" لا يفتؤون يتقدّمون، ويُلوّحون بأيديهم مُحفّزين الرجال على التّقدّم برَفْع الرايات البيضاء والحمراء فوق رؤوسهم. لاصوتَ يعلو فوق زمجرة القذائف التي تصمّ الآذان، وتُزلزِل الأرض تحت الأقدام.

لازالت فِرَقُنا تزحف قُدُماً نحو مدينة قصبة تادلة التي أشرفت علينا صوامعها حوالي الساعة العاشرة، لكن المسؤولين جعلوا السيطرة على

القنطرة على رأس أولويّاتهم، فأوكلوا المهمّة للخيّالة بغطاء من المدفعية لتأمين العملية. وما إن سمع الرُّعاة صوت القذائف وهي تقصف أسوار المدينة حتّى فرّوا تاركين وراءهم قطعانهم. وعَبَثاً حاول العدوّ إعاقة تقدّمنا نحو القنطرة بنادقهم على ضفَّتَي النهر وأسوار المدينة، لكن السبايسيّيْن ردّوا عليهم من الجهة المقابلة. ولمّا حاولت بعض قطعان الأغنام اجتياز القنطرة المَبْنِيّة بالحجارة، وبأبعاد غير متساوية، وطئتْها حوافر خيولنا، فكسرتْ عظامها.

على الضّفّة اليمنى ربضت المدينة خلفنا بأسوار بُنيت بأحجار وردية، وأخرى رمادية، أقامت فوقها اللقالق أعشاشها غير عابئة بالحرب. في الجوّ، تلمع الجوامير النُّحاسية للصوامع، وفي الأسفل، تأتلق مياه النهر تحت أشعّة الشمس، وأمامنا بُسُطٌ زاهية، ومراع خضراء تُناجي القمَم الثلجية للأطلس الخالد ... لكن العدوّ حَرَمَنَا تأمُّل هذه اللوحة البديعة، فصوت الرصاص، وصهيل الخيول، ورعد القذائف، ينتزعكَ من أحلامكَ، ويُكدِّرصفوكَ.

ما كانت طلقات مَنْ تبقّى مِنَ المدافعين في المدينة أن تمنعَ حلفاءنا من بني زمور البالغ عددهم نحو ألف بين شابّ وكهل وشيخ، بجلابيبهم المتّسخة، وخيولهم الطاعنة في السّنّ، والضامرة أن تمنَعَهم من الركض وراء القطعان النافرة ضاحِكين، يجمعون كل ما تصل إليه أيديهم، وقد بلغ بهم هذا الحمق والتّهوّر أن سبقُونا على يمين الطابور بعشرات الأمتار، ليجدوا أنفسهم مُحاصَرين من قِبَل الأعداء، لولا أن الخيّالة سارعوا لنجدتهم، وطَرْد أعدائهم نحو السهل.

تابع الطابور هذه الأحداث كلها من بعيد، لأنه لم يصل بعد إلى القنطرة، ومع ذلك، أرسل قذيفة نحو العدوّ، لتشتيت صفوفه، ومساعدة

الخيّالة على إسعاف أولئك المُعفّلين. وبعد تمكُّن مشاة الطليعة من السيطرة على الضّفّة اليسرى، التحق بهم الخيّالة، وجلسوا لالتقاط أنفاسهم، وسَقْي خيولهم.

وفي الساعة الواحدة بعد الزوال، اجتمعت فِرَق الطابور كلهم إلى قصبة تادلة، وتوقّفوا بضفَّتَي الوادي تحت "حماية" الطليعيّيْن" تراقب فرسان العدوّ وهم يتراجعون إلى الأطلس، بينما اجتمع كثير منهم على الضّفّة اليسرى، لأن وحداتنا قد أدركتْهم، فلم نُبقِ لهم من خيار سوى رَمْي أنفسهم في النهر للمرور عبر الممرّ الأمامي للمدينة، فَجَرَف التّيّارُ القويُّ الكثيرَ منهم قبل أن يبتلعَهم.

كان التعب قد أخذ منّا كل مأخذ إلا أن الفِرَق كانت مُصِّرة على إتمام العملية بمطاردة أخيرة، وحاسمة. فبنو زمور مُتمسّكون بقولهم إن موحى أوسعيد لا يزال مختبئاً بقصبته بمشرع نفاد المنبع ذي المياه الوافرة المُحرّكة للكثير من الطواحين المائية.

بعد ساعة من الاستراحة، استأنف الطابور تقدّمه من جديد، تاركاً خلفه فوق تلك المراعي الشاسعة الأعداء يحصون قتلاهم، وإن لم يستطيعوا حملهم، لأن الوقت قد باغتَهم.

لن أنسى ذلك الجوادَ الممدّد على الأرض دون حراك وهو يُصَعِّدُ زفراتٍ، تنفطر لها القلوب، ويرمقني بنظرات استنجاد، دمعت لها عيناي، لأني خيَّبتُ ظنّه، وعجزتُ عن مساعدته بعد أن استقرّت رصاصة طائشة بين جوانبه، وعلى بُعْد أمتار منه السرج الذي تخلّى عنه الفارس بعد أن أعياه حمله.

وعلى جنبات الطريق إلى مشرع نفاد قرب قصر إغرم لعلام تناثرت

الأواني والخيام التي كانت تُثقل انسحاب العدوّ، ثمّ ظهر حصن كبير عند قَدَم الجبل، أخذ شكل مُربّع، تحيطه أسوار حمراء، تُجاوره مساحات من الكروم.

لا زال الأطلس يتباهى بحلّته الزرقاء البهية، تعلوه غابات الأرز، وفي أعماقه، يخفي أكواخاً صخرية، نحتها الشلوح، واتّخذوا منها مخازن للحبوب، وفيما ندر من المنبسطات حقول صغيرة مزروعة، ونتوءات تُغطّيها أعشاب. وهناك في الأعلى القبّة البيضاء لضريح سيدي بن داود.

إن المنطقة الأغنى والمخازن الحقيقية للحبوب هو هذا السهل الفسيح الذي ترويه ساقية مشرع نفاد، حاول بعض الفرسان رمْينا بالرصاص من فوق أسوار القصبة. لكن قذائف المدفعية جعلتْهم يلوذون بجحورهم كالجرذان، وامتدّ القصف إلى المساكن المُطلّة على السور، وسرعان ما تعالى دخان الحرائق منها.

لم تعدْ مناظيرنا ترصد أثراً للثائرين الذين كُنّا نتعقّبهم وهم يتسلّقون كالنمل جدار الأطلس فارّين من قذائف المدفعية، أو يتوارون بين الشِّعَاب العميقة التي يتعذّر علينا ملاحقتهم فيها.

ضرب المعسكر خيامه بمشرع نفاد مُخيّباً ظنون موحى أوسعيد الذي اعتقد أن الطابور -بعد انتصاره - لن يخرجَ من قصبة تادلة، ولمّا علم بحضورنا سُقِطَ في يدِه، ولم ينعم بالراحة التي كان يأملها، بل أسرع إلى الفرار مُخلّفاً وراءه مراسلاته، وأمتعته، ورایاته من الساتان الأبيض هديةَ مولاي الحسن له، ووجبة عشائه المُكوّنة من خروف، ودجاج، وخبز قمح.

وكسرت قذيفةٌ يدَ ابنه الذي كان بصحبته. خسرْنا في هذه المواجهة قتيلَيْن، وسبعة وثلاثين جريحاً. وأبان رجالُنا فيها عن شجاعة وقُوّة تحمل،

ذلك أنهم قطعوا مسافة ستّين كيلومتراً من يوم السادس من نيسان/ أبريل على الساعة الحادية عشرة صباحاً إلى اليوم الموالي على الساعة الخامسة، وخاضوا خلالها حرباً ضروساً لأكثر من ثماني ساعات.

٨ نيسان/ أبريل

تسبّبتْ لنا نيران المطعم المتنقّل للعدوّ خلال هذه الليلة الهادئة كثيراً من الإزعاج والضيق. ما عاد يهمّنا أمر شلوح الأطلس، بقَدْر ما شَغَلَنا إخضاع أيت الربع، فولّيْنا وجوهنا شطر قصبة تادلة.

قبل أن نغادر مشرع نفاد على الساعة الثامنة صباحاً وسط أجواء رائعة، قصفْنا قصبة موحى أو سعيد، ودمّرناها عن آخرها، وتركناها أمثولة لمَنْ يعتبر.

واتّخذ رجالنا من هذا اليوم يوم عيد، لفرط ما أكلوا من رؤوس الأغنام التي غنموها أمس من العدوّ بعد مكابدة الجوع، والسَّهَر، والتعب. فكُنتَ ترى مئات جلود الخرفان الوردية تلمع منشورة فوق العشب الأخضر تحت أشعّة الشمس، وأعداداً هائلة منها رؤوس الأغنام نافقة في المروج بين النبات، ستكون هدية منّا للطيور الجارحة والكلاب الضّالّة ..

وَصَلْنَا إلى قصبة تادلة زوالاً، وعَسْكَرْنا على ضفَّتَي النهر. ثمّ وقعت اشتباكات قصيرة بين مئات الفرسان من العدوّ، والسبايسيّيْن الذين لم يُعطوهم فرصة للنزول من فوق صهوات خيولهم.

وجدْنا المدينة أشبه بساحة حرب، وفي وضعية مأساوية، لأن القبائل استغلّتْ غيابَنا، فنزحتْ إليها، وعاثت فيها فساداً ونَهْباً، فقد سالت

الأودية بجموع اللصوص، يسوقون خيولاً، وجمالاً، وبغالاً، وحميراً مُثقلة بحبوب المخازن. واقتحموا أبواب المنازل كلها بما في ذلك المساجد التي لم تَسلَم من توحُّشهم، ولم تشفعْ لها حرمتها وقداستها في نفوس أبنائها "المسلمين"!! ولحقها الخراب نفسه الذي لحق القصبة السلطانية بسواريها الممشوقة وزليجها العريق اللذيْن كان يفوح منهما عبق التاريخ، وأريج الحضارة، يحكيان للأجيال قصّة الأبطال الذين بنوها، وخلّدوا ذِكْرها، ألحق بها هؤلاء الهَمَجُ الرُّعاع من الدمار والخراب، في أربع وعشرين ساعة، ما عجز عنه تعاقُب الليل والنهار في أحقاب وقرون ...

أضحتْ ساحات المدينة مسرحا لتهارُش الكلاب الضّالّة، ومَبَاءَة لأسراب الذباب النهمة، أمّا مساكنها، فقد استوطنتْها الأشباح بعد أن هرب أهلها من التتار المغاربة، ولم يبق إلا المُتسوّلون ذوو الوجوه القذرة، والملامح المكفهرّة .. وحدها اللقالق قابعة حزينة فوق الأطلال المتداعية، والحمام البرّيّ يُردّد رثائية شجية، بينما البيزان تُقلّب وجوهها في السماء مرعوبة لهول ما رأت .. حتّى الأموات لم يَسلَموا من هذا العَبَث، فقد بُعثِرَت القبور، وكُشِفَت الجثث!!

قرّر حَرَس المدينة مَنْع دخول مَنْ يُشتبه فيهم أنهم لصوص، يرغبون في تحميل ما خلّفوه. في رحلة الرجوع، سرْنا ونهر أمّ الربيع عبر ممرّ ضيّق، يجري بين الصخور. وبين الفينة والأخرى يصطاد جنودنا أسماكَ النهر. لازالت القنطرة صامدة في وجه الزمن ونوائبه من رياح عاتية، وسيول جارفة، وأياد آثمة، حفرت فيها حفراً، تتعثّر بها الخراف الواهنة، فيزجرها السبايسيون، لتلتحق بمقدّمة القطيع.

الفصل الثالث عشر
ببني ملال

٩ أبريل

حُقَّ للطابور أن ينعمَ بفترة استراحة هنا بقصبة تادلة: بعض الرجال يغسلون ملابسهم، وبعضهم يرمي شباكه، أمّا الدواب، فترعى طليقة في المروج. أمّا التعساء، ففي بحث مُستمرّ عن مخازن الحبوب لتغذية هؤلاء الأفواه الجائعة كلها، والطليعيون الأبطال يراقبون فرق العدوّ التي لا تتوقّف عن استهداف المعسكر. إن الدخان المتصاعد يفضح تحرّكات أيت الربع وبني عمير في الجنوب الشرقي الذين لا يتوقّفون عن تأليب السّكّان ضدّنا، ودعوتهم إلى حمل السلاح، والجهاد ضدّ الكُفّار.

١٠ نيسان/ أبريل

قبل منتصف الليل بقليل، وفي الساعة الرابعة صباحاً، اسْتُنْفِر المعسكر إثر تحذيرَيْن، تصدّى لهما الحَرَس الليلي. نيران العدوّ المستعرة لا تخمد الليل كله. وعلينا أن نكون بالمرصاد لأيّ تكتل مُحتمَل.

شرع الطابور في التّحرّك عند الزوال، ورصاص العدوّ يلاقينا من كل اتّجاه، بما في ذلك الجهة العلوية لأمّ الربيع، حيث نسير في الضّفّة اليسرى. كانت المواجهة خاطفة.

مررْنا عبر دوار جميل لبني معدان، بُنيت منازله بالطين الأحمر

على شكل طوابق، بنوافذ صغيرة، وأكواخ رمادية، محاطة بأسيجة من الأشواك. بدا أمّ الربيع من هذا الموقع حلقة مغلقة واسعة ذات سواحل، فُرِشَتْ بالحصى الأزرق، وانتشرتْ حدائق الكروم في الأجراف على الضّفّة اليسرى. أقمْنا في أوّل دوار صادفناه، ورأى السبايسيون خلايا نحل، فأوقدوا النار، وأبعدوا النحل بدخانها، وشرعوا في جَنْي العسل بأيدٍ مكشوفة بعدما لفّوا أجسامهم في برانيسهم تفادياً لِلَسَعات النحل المدافع عن مملكته.

تواصلت المعركة ضدّ المغاربة الذين تتزايد أعدادهم باستمرار، إلى أن وَصَلْنَا إلى حدود القصبة الزّيدانية، وهي قرية ذات أهمّيّة قصوى لبني عمير، لغناها بأشجار الكروم، و"التوت"، والرّمّان، لكنها تبدو خربة رغم كبرها وإطلال أسوارها الحمراء العالية على الوادي. وقبل أن نأخذ مواقعنا فيها، اضطررنا لصَدّ هجوم ثمانمائة فارس، قدموا من قصبة تادلة على مؤخّرة الطابور، فتولّت المدفعية تشتيت شملهم.

وكان عبد الله بن جابر هو مَنْ يتولى قيادة بني عمير، واستنفرهم لمواجهتنا شخصياً في المعركة. فقد حشد آلاف الفرسان والراجلين المُغفّلين، لأنهم كانوا يعتقدون أن هراواتهم قادرة مشفوعة ببركة "الصلحاء" وحدها كفيلة بهزيمة الكُفّار. صوّب أحدهم بُندُقيّته لأحد السبايسيّيْن وهو يقول: "ماذا جئتُم تفعلون عندنا، أيّها النصارى الكلاب؟! مَنْ دعاكم؟" فأجابه السبايسي بأن أيت الربع هم مَنْ بدؤوا الهجوم على مركز وادي زم، فأفرغ شحنة بُندُقيّته في الأرض، وانطلق على جواده.

غداً سنتوجّه إلى بني ملال المستلقية تحت أقدام الأطلس لمعاقبة سُكّانها المُتورّطين في قَتْل أحد الزواف، وإصابة ستّة جرحى، وإلحاق الأذى البالغ بالعشرات من الخيول والبغال التي لم يعد يُرجى منها نفع.

١١ نيسان/ أبريل

لم يكن الأمر سهلاً، كما توقّعناه، فقد تحالف عرب السفح وشلوح الجبل، واتّخذوا من قصبة داخل بني ملال مكاناً للتّجمّع، وتنظيم صفوفهم استعداداً للتّصدّي لأيّ هجوم منّا. كانت المدينة رابضة عند ملتقى الأطلسَيْن، مُحصّنة داخل أسوار، وزاد من مناعتها الغطاء النباتي الكثيف الذي يُؤمّن لأهلها مكامن للاختباء والمناورة، فيُخيّل إليكَ أن فوق كل شجرة، أو وراءها، خطر يتربّص، كما رأينا الآلاف من المشاة المُسلّحين بجلابيبهم الفضفاضة، يُغطّون المرتفعات كلها.

كانت المدفعية دائماً هي سلاحنا الفعّال الذي كُنّا نحسم به المعارك، لكنها تواجه فوق هذه البلاد صعوبات جمّة. فالأراضي المحروثة والمُشبَعة بالمياه والسواقي العميقة التي تقطع المسالك، والأعشاب الطويلة التي تلتفّ حول العجلات، كلها حالت دون تقدّم هؤلاء المدفعيّيْن المساكين الذين يعانون وخيولهم الويلات من جَرّ هذه المعدات الثقيلة. أمّا السنغاليون، فَفَضَّلوا نَزْع أحذيتهم، ووَضْعها على أكتافهم، والمشي حفاة على انتعال تلك الأحذية الجِلْدية التي تضاعَفَ وزنها، لما علق بها من أوحال وأعشاب ... لكننا تحدَّينا هذه الصعوبات كلها، وواصَلْنا التّقدّم.

دون سابق إنذار، شرعت المدفعية في إرسال قذائف دقيقة ومتتالية على بُعْد ألف متر، تبعثها أعيرة نارية من فُوَّهات الرشّاشات، ورغم محاولات المدافعين الصمود في وجه هذا الهجوم الكاسح، إلا أنهم بدؤوا ينسحبون إلى داخل السور، أو الاختباء وراء الأشجار.

وفي الساعة الحادية عشرة، أُطلقت الأبواق متظاهرة بالاستسلام، ونهاية الهجوم، لكنْ، بمُجرّد ما وطأت أقدامنا ساحة المدينة، تساقط علينا الرصاص كحبّات المطر بين الأزقّة الضّيّقة، والمُوحِلة، والملأى بركام الأزبال

التي تراكمت منذ قرون، صعد فوقها حاملو الرشّاشات، ورجال المدفع لقَصْف الشرفات. أمّا الخيّالة، فخرجوا من اليمين للقيام بمسح شامل بين الأشجار، وفوق المرتفعات، ذلك أن المرابطين في هذَيْن الموقعَيْن هم مَنْ يُوجّهون ضربات أليمة، ويحولون دون احتلال المدينة.

قُتل من صفوفنا خمسة سبايسيّيْن فوق خيولهم، وبُقِرَتْ بطنُ ملازم مغربيّ آخر بعد تعثّر حصانه. جاء المشاة لدَعْمنا في التّصدّي للرماة المختبئين في الحدائق، والبساتين، وخلف صخور الأطلس البعيدة. مرّة أخرى، اتّخذنا من جبال النفايات منارات لمراقبة شرفات قصبة بني ملال، لاسيما نوافذها الضّيّقة، والمُسيّجة، وفي المقابل، لا ترصدنا نحن سوى عيون اللقالق فوق الأسوار التي لم تُروّعها، لا زمجرة القذائف، ولا أزيز البنادق.

خارج بني ملال جمال آسر، وداخلها قبح فاجر: في الأفق تُمتِّعُكَ زرقة السماء وهي تنحني لتقبُّل رؤوس قِمَم الأطلس التي علاها البياض، وشيَّبتْها السنون، وتسحركَ قامات أشجار الأرز الشامخة. لكنكَ متى فتحتَ أبواب أسوار المدينة الحمراء، خنقتْكَ دروبها الضّيّقة، وأرعبتْكَ منعرجاتها المظلمة، ولوّثتْ مَرآك ساحاتها السابحة في مياه آسنة، تنبعث منها روائح، تزكم أنفكَ، وتُشعركَ بالرغبة في الغثيان، وتحت الأسوار تسوؤكَ نجاسات البشر، وقاذوراتهم المتناثرة تحت الأسوار التي بناها الرجال، ولوّثها الأنذال ...

خرج كل ملالي قادر على حمل السلاح، ولم يبقَ في المدينة إلا أخلاط من العَجَزَة، والجذامى، والحمقى، يغطّون عوراتهم بخِرَق سوداء، ويحزمون رؤوسهم بأسمال زرقاء، أحاط بهم الذباب إحاطة السوار بالمعصم ...

دخلْنا منازل لليهود، فوجدناها مُلِئتْ مُعِداتٍ لصُنع الكحول "ماء الحياة"، ودخلْنا منازل للمغاربة، فوجدناهم ثمالى.

لم نغادرْ بني ملال إلا بعد أن دمّرْنا مساكن رؤساء الفتنة ومُشعلي نيرانها. وفي أسفل المنبسط، فاجأتْنا مجموعة من المشاة، تعقّبونا دون أن نفطنَ إليهم، بقَصْف، فَقَدَ على إثره أحد السبايسيّيْن حصانه بعد أن أصابتْهُ رصاصة في إحدى قوائمه، وجُرح أربعة رجال. وحالف الحظّ أحد رجالنا الذي اقتحم خطّ النار، وخرج منه ناجياً في أثناء تبادُلنا الرصاص مع العدوّ عند محاولته الالتحاق بنا بعد أن تخلّف في إحدى القُرى. وللمدفعية الفضل الأوّل في نجاته، لأنها بمُجرّد إخبارها بالوَضْع، كثّفتِ القصف على مواقع العدوّ، لتُفسح المجال لمؤخّرة الطابور، بضمِّه وحمايته.

الشِّعَاب هي حليف المغاربة وعدوّنا، لأنها كانت تُوفّر لهم المخابئ، لينصبوا كمائن لنا، ويتّقون بها من ضرباتنا. لذلك عمد حلفاؤنا المغاربة للتكتيك نفسه، فتراهم ينسابون كالأفاعي داخل الأخاديد، وبين الفترة والأخرى، يخرجون من جحورهم لتقديم المساندة للألبينيّيْن و"المستعمرين".

نفدتْ ذخيرة المغاربة، وفَتَرتْ شجاعتهم، وانطفأ حماسهم، فبدؤوا يتراجعون إلى قصبتهم. ثمّ شاهدنا في السفح تحرُّك خيّالة ببرانس بيضاء، يتهادون الواحد تلو الآخر دون أن يعيرونا أيّ اهتمام. علمْنا فيما بعد أنهم من بني عمير، جاؤوا لمساندة مدافعي القرية، لكنهم وصلوا بعد فوات الأوان. كلّفتْنا المواجهة قتيلاً واحداً، واثنَي عشر جريحاً، وأحالت أربعاً وعشرين بين حصان وبغل على الاستقالة من الخدمة العسكرية لإصاباتهم البليغة.

رجعْنا إلى قافلتنا على الساعة السادسة عبر سهل مُغطّى باللبلاب الوردي، والزنبق الأحمر، يُشبهُ وادي درنة، حيث تركْنا المقدّم مانجان مع فيلقَيْن، وقسم من المدفعية. وعَسْكَرْنا قرب مياه صافية، لنتناول وجبة الغداء التي تأخّر إعدادها إلى الأصيل بعد أن بلغ الجوع والإنهاك من الرجال والحيوان مبلغهما ...

١٢ نيسان/ أبريل

انتهت مهمّتنا قرب الأطلس بعد أن لقّنّا آيت ربع الجبل درساً، لن ينسوه. فاتّجهنا نحو معبر القصبة الزّيدانية، لنعبر للضّفّة اليمنى لأمّ الربيع عند بني عمير. وكنّا نتوقّع أن تلتحق بنا حركتهم التي رأيناها البارحة مساء تصل إلى بني ملال.

تطوّعت فِرَق السّبّاحين المغاربة والسنغاليّيْن الشجعان لتسهيل مرور القطعان، ومؤازرة المشاة المرتعشين من ماء النهر البارد، والحيوانات التي تقاوم التّيّار الجارف، ومَنْ كان على مشارف الغَرَق من الرجال. وفي حدود الساعة الخامسة، كان الكل قد اجتاز النهر العنيد بسلام: الرجال، والجمال، والخيول، والبغال، والمدافع، والأمتعة ... اللهم ما كان من بعض الأكياس التي سرقَها منّا التّيّار، كما سرقْنا بدورنا أحد الرجال من الموت، وبينما كُنّا منشغلين بإنقاذ الرجال، كاد النهر أن يبتلع قطيعاً من الجمال، لولا يقظة وتضحيات السّبّاحين الأبطال الذين خرجوا من المياه المتجمّدة، ترتعد فرائصهم، وتصطكّ أسنانهم. وحدها الأبقار كَفَتْنا عناء عبورها، لأنها تُتقن السباحة، أمّا الخراف، فحملها المغاربة على أكتافهم.

شرّ البلية ما يُضحك!! فقد رأينا بعض السنغاليّيْن عرايا، كما ولدتْهم أمّهاتهم، وقد ارتسمت على مُحيّاهم مسحة الجدّ والفخر حاملين البنادق على الأكتاف، وواضعين الشّاشيّات على الرؤوس، ومُلصِقين حقائب الرصاص بأجسامهم ... ذلك كله وهم يتبخترون، وواثقون من أنفسهم في اتّجاه فِرَقهم!!

ها هي طلائع حركة بني عمير تظهر، كما توقّعْنا، عند الزوال، وكانوا هم مَنْ بادر إلى فَتْح النيران، فضاعفوا معاناة أحد المنكوبين الذي كان يتلقّى

Voir page 273.

CASBAH TADLA. — PARTIE SUD-OUEST DE LA CASBAH

العلاج، لمّا اخترقت رصاصة الخيمة، واستقرّتْ في بطنه. لكن المدفعية أمهلت المهاجمين حتّى اقتربوا مجتمعين، ثمّ وجّهتْ إليهم قذيفة، أفقدتْهم تماسكهم، لتظهر بعد ذلك فِرَقُنا من الزواف، والمغاربة، فالتحموا مع العدوّ بالأسلحة البيضاء، وتتبَّعوهم في خنادق، وبين الشِّعَاب.

مزَّقت القذائف بني عمير وبني موسى شرّ ممزّق، وما هي إلا الخامسة مساء حتّى خَبَتْ نارهم، وضعفتْ شكيمتهم، فقفلْنا راجعين إلى المعسكر. كان من بين ضحايانا العشرة في هذه الموقعة القبطان بروني Brunet الذي أُصيب في رجله، وهو بطل شهم، يعود له الفضل في تدريب فيلق الزواف والمغاربة.

الفصل الرابع عشر
التقاء الفِرَق بمراكش

١٣ نيسان/ أبريل

أكسَبَنَا النصرُ مهابةً في نفوس المغاربة، فانطلقْنا دون حوادث تُذكَر إلى مراعي محمّد النفاتي بوادي گروم، لنُعسكر لبضع أيّام في انتظار وصول المؤونة.

١٤ نيسان/ أبريل

اليوم، تمّ نَقْل المصابين إلى مركز وادي زم لتلقّي العلاجات اللازمة. ومرّ النهار بدون أيّ مواجهة، ولم نسمعْ ليلاً إلا طلقات معزولة هنا، وهناك، ولمّا استسلم الرجال للدَّعَة والسكون، وارتاحوا من التهديدات الخطيرة للعدوّ، شنّتْ عليهم عاصفة قوية هجوماً مباغتاً، فَعَبَثَتْ بغسيلهم المعروض على أشعّة الشمس، وحلّقتْ به بعيداً، فحاولوا جَمْعَ ما بقي منه بين الأعشاب الكثيفة فوق مرتفع صخري، يعجّ بالثعابين.

إن إعادة بناء المعسكر أمرٌ في غاية الصعوبة، ويتطلّب وقتاً وجهداً، وكثيراً من الحنكة والتجربة. فمساحته أكثر من سبعمائة متر، وساكنوه يربون عن أربعة إلى خمسة آلاف رجل. يأخذ المشاة ورجال المدفعيّيْن مواقعهم في المقدّمة، ، بينما الخيّالة يحيطون بالإسعاف في الوسط. ويزداد الأمر تعقيداً، إذا كانت الأرضية غير مستوية أو صخرية، أو وسط أشجار، تحجب الرؤيا، وكنّا حريصين على إقامة معسكراتنا قرب نقط الماء، والتزام الحيطة والحذر قرب التّجمّعات السَّكَنية.

١٥ نيسان/ أبريل

وَصَلَتْنا المؤونة المُنتظَرَة، ولايزال بنو عمير يتردّدون علينا بين الفينة والأخرى. والأخبار كلها التي وَصَلَتْنا كانت متضاربة بين رغبتهم في الصلح، وعزمهم على مواصلة التّحدّي والمواجهة. وحتّى نكسرَ شوكتهم، ونقضي نهائياً على تمرّدهم، تحرّكْنا فجر هذا اليوم في اتّجاه أكبر تجمُّع لهم، وهو سوق الأربعا. ولمّا علمْنا أن الآبار لن تُلبّي احتياجات الطابور كلها، حمَّلْنا ظهور الجمال ما يكفينا لمطاردتهم لخمسة كيلومترات. وكم كُنّا محظوظين لمّا جادت علينا السماء بمياه غزيرة إثر عاصفة رعدية، ضربت المنطقة، فملأت ساقية الحرار التي تمتدّ من محمّد نفاتي إلى سوق الأربعا، ففاضت مياهها على جانب الطريق المليء بالقبّرات، وطيور السُّمّان الرمادية المخطّطة بالأسود، واليمام، وطيور الدّرّيج "الأبيض" تظهر وتختفي بين الأعشاب القصيرة.

تحرّكْنا وسط هذا المجال الصحراوي الغريب بحذر، لأن الرعاة أبعدوا قطعانهم، واختفوا لحَمْل السلاح، وعُجْنا على مُخيّمات قديمة، لم يبقَ فيها سوى أثافٍ، كانت تُنصَب فوقها القدور، وبقايا جيف، تحوم حولها طيور الرَّخَم.

توقّفْنا لتناوُل وجبة الغداء قرب الساقية، وهي تروي نبات الخردل، ونحن نسمع نقيق ضفادع خضراء لامعة. مُساعِدُونا من بني زمور هم الأكثر توثّباً وحماساً للهجوم على دواوير سوق الأربعا، لا لحمية دِيْنية أو دافع سياسي أو صراع قَبَلِيّ، وإنما رغبة في السطو والنَّهْب.

غريب أمر هؤلاء المغاربة، فبعدما كُنّا نحسبهم مُتّحدين ضدّ الكُفّار الغزاة، اتّضح لنا، بما لا يترك مجالاً للشّكّ، أنهم مُتفرّقون ومُنقسمون، فبني زمور والسماعلة بقيادة زعيمهم ولد كردة، على سبيل المثال، يُناصروننا ضدّ إخوانهم بني عمير ناسين روابطهم الدِّيْنية والقَبَلِيّة.

تحرّكت هذه الحشود من البرانيس الرمادية المتّسخة بما أُوتيت خيولها من سرعة نحو دواوير بني عمير الذين سبّبوا لنا كثيراً من الحَرَج والإزعاج، وإن كُنّا نعلم أن خسارتهم لدواويرهم أهونُ عليهم من خسارة قطعانهم. لكنْ، سيكون للانهزام تداعيات مادّيّة ونفسية بالغة.

قرية سوق أربعاء بني عمير تجمّع سُكّاني كبير، يتكوّن من دواوير، اتّخذت شكلاً دائرياً، مَبْنِيّة بلبنات طينية، تُصنع عن طريق مَزْج التراب مع التبن بالماء، ثمّ وَضْع الخليط في قوالب مستطيلة، وتُعرَض تحت أشعّة الشمس، لتجفّ، وتصبح أكثر صلابة. تمتدّ هذه الدواوير على طول السفح، تتوسّطها قبّة بيضاء لأحد الأضرحة. آبار المنطقة كثيرة، لكنها محفورة في صخور صلبة بعيدة الغور، قد يصل عمقها إلى خمسمائة قَدَم. لذلك يُعوَّل كثيراً على ساقية حرار لريّ سهول الشعير الفسيحة.

عرَّجتُ على الضريح المبْنِيّ بالطين بجانب شجرة زيتون ذابلة، ودلفتُ إلى باحة نصف مظلمة، تأوي عجائز وشيوخ أشبه بالأشباح المخيفة وسط تلك العتمة، بثياب رثّة، ووجوه، خطّ الدهر عليها قصص البؤس والتعاسة في سطور غائرة ... وأسراب من الذباب تغطّي الجفون الذابلة، والعيون الشاخصة ... وتفوح من هذا المكان "المُقدّس" رائحة كريهة لمرضى مكبّلين بالحبال، ويُضرَبون حول قبر الضريح المكسوّ بقطعة من ثوب الساتان ذات اللون الرمادي الكئيب. وعُلِّقت على الجدار صور ألمانية، تُجسِّد فارساً عربياً، بلحية سوداء، يطعن بسيفه فرنسياً ضخماً بقرنَيْن في وضعية مثيرة للشفقة.

١٧ نيسان/ أبريل

دقّتْ ساعة العودة إلى أمّ الربيع لإخضاع تادلة، واللقاء بالفِرَق القادمة من مراكش بوادي العبيد للتنسيق معها لضرب بني موسى المجتمّعين قرب

النهر لحماية المعابر المؤدّية إلى قطعانهم في الضّفّة الأخرى. أمّا بنو عمير، فقد تركناهم في حالة ترقّب وخوف بعد أن أبلغْنا كبراءهم بسيدي صالح بأننا سنهاجمهم في عُقْر دارهم، كما سنقضي على حلفائهم من بني موسى، وهما آخر القبائل المتمرّدة في جهة تادلة. كُنّا نتقدّم في بلاد، يُغطّي سماءَها الضبابُ الكثيفُ، وعلى أرضها المستوية ترسم الأزهار لوحاتٍ بديعةً.

لا مفرّ من المواجهة، فقد سمعْنا بنادق بني موسى في السفوح، وبارود الشلوح يردّد أصداءَهُ الجبلُ. فتقدّم مشاتُنا حاملين الرشّاشات وراء المدفعية، وشرعوا في الرّدّ على صفوف العدوّ الأمامية التي ما لبثتْ أن تفرّقتْ، لأنه لا عهد لهم بمثل هذا القَصْف الكثيف، ولا حول لهم ولا قُوّة على مجاراة الرشّاشات والقذائف.

جازف "القايد" ولد زيدوح ذلك العجوز، البدين، والأعور الذي سبق أن استقبل بحفاوة طابور أوبير Aubert سنة ١٩١٠ بالركض نحونا تحت وابل من الرصاص، وهو يُلوِّح بعَلَمه الأبيض دون أن يعبأ به أحد من رجالنا، فقد تعبوا من مناورات وتحايل المغاربة الذين لا نيّة لهم في وقف إطلاق النار ... لكن حليفنا القديم حالفه الحظّ، ونجا بأعجوبة.

برّر "القايد" تأخّره، بأنه لم يتمكّن من إقناع قبيلته بالخروج إلينا إلا بصعوبة بالغة، وحمل إلينا خبر وصول طابور مراكش إلى ميدان المواجهة أمس مع بني موسى. بعد ذلك تقدّمَنا الرجل إلى عبور أمّ الربيع، لنُعسكر بالضّفّة الأخرى تحت ضوء البدر المضيء حوالي الساعة العاشرة ليلاً، وإن كان التّيّار القويّ قد جرف بعض الأمتعة والحيوانات، وأغرق أحد المدفعيّيْن الجزائريّيْن مع بغلته.

توقّفت المعركة على الساعة السابعة، وتشتّتَ العدوّ، وتراجع نحو

الأطلس تحت قصف المدفعية القويّ الذي جعلهم ينسحبون إلى غير رجعة. أمّا نحن، فخسرنا جندياً وخمسة جرحى.

١٨ نيسان/ أبريل

قاد "القايد" ولد زيدوح الطابور إلى حدود دواره بعد توقّف قصير قرب قصبة مُدمّرة فوق منبسط صخريّ، فوقه قبور ومخازن حبوب بالعشرات. وقضى رجالنا النهار كله بين اصطياد السمك، والاستمتاع بأشعّة الشمس.

بعثتْ قبائل بني موسى الذبائح مُقرّة بالهزيمة، ومُعلنة الاستسلام، لأن الرعب دبّ إليها، لمّا رأت تحرُّكنا في اتّجاههم، وحضور الفرقة المُسلّحة القادمة من مراكش إلى أراضيها، إضافة إلى الخسائر التي تكبّدتْها في الآونة الأخيرة، فذبحت ثيران "الترگيبة" أمام خيمة المنتصر، كما جرت العادة بذلك.

١٩ نيسان/ أبريل

التقى صبيحة هذا اليوم على الساعة التاسعة طابور تادلة بقيادة مانجان، وطابور مراكش بقيادة سافي Savy في الموعد المحدّد بدار "القايد" مبارك.

ظهرت القرية فوق الأجراف المُطلّة على وادي العبيد بمنازلها الطينية الحمراء، تحرسها اللقالق بعد أن هجرها معظم سُكّانها تاركين الأبواب خلفهم مُوصَدة بالأعشاب الشائكة، وصعدوا مع قطعانهم خوفاً من أن تطحنَهم رَحَى الحرب، ولم نجد في استقبالنا سوى الشيوخ الذين لم يُنكروا

مشاركتهم في إطلاق النار، أمس، على طابور سافي، بدعوى أن القبيلة كلها في حرب. وأحسسْنا أننا غير مُرحّب بنا، لعدم اكتراثهم بنا، لأننا سبق أن مرزْنا بأرضهم مرَّتَيْن بطريقة خاطفة، ثمّ إنهم لا يملكون ما يُقدّمونه لنا.

لم يجرؤ طابور على العبور من وادي العبيد، لأنه كان يُنفِّس عن غضبه بتيّارات جارفة في ممرّ شديد الضِّيق، لا يتعدّى عرضه متراً. وقرّر إكمال رحلته نحو مراكش بعد أن أقام لبعض الوقت عند السراغنة.

الفصل الخامس عشر
العودة عبر أمّ الربيع المعارك الثلاث لسيدي علي بو إبراهيم

٢٠ نيسان/ أبريل

نزحْنا بدورنا إلى دار ولد زيدوح عبر سهل شاحب متأثّر بالسنة الجافّة، وتوقّفْنا قرب أشجار الزيتون الجميلة لأرفالة لتناوُل وجبة الغداء. حاولْنا الحصول على مخازن شعير نحن في مساس الحاجة إليه غير مبالين بسِعْرها المرتفع، لكنْ، لم نجدْ كمّيّات قادرة على الاستجابة لاحتياجاتنا الكبيرة، لاسيما أن مدّخراتنا ممّا أخذناه من عَلَف من بني موسى ودار "القايد" مبارك لم تكن كافية، كما أن عمليات التنقيب على أماكن تخزينها لم تُسفرْ على شيء. فرجال السفح، هنا، يُخبِّئون الحبوب في مخازن باطنية، تعلوها قشرة غليظة من التربة في الأراضي المحروثة، يصعب كشفها. لكنْ، حالفنا الحظّ، اليوم، في الحصول على مخازن، سُوِّيَتْ أبوابها مع الأرض تحت أشجار الزيتون.

يقع دوار أرفالة في الممرّ المؤدّي إلى داخل الجبال عبر المسالك القديمة للمحلات الشريفية المتنقّلة بين فاس ومراكش، تخترقه ساقية بماء وفير ونمير، تُقابلُنا، في الأفق، مرتفعات الأطلس المتوسّط المكسوّة بأشجار اللّوز، والمزارع الخضراء.

تسلّق الألبينيون والمغاربة الأجراف العالية، فوجدوا فيها أكواخاً منحوتة، تطلّ على السهل الصخري العاري إلا من شجيرات صغيرة وكثيفة وبنايات من الطين والتبن "الجصص"، بسطوح تتوسّطها فتحة مُطلّة على ساحة داخلية.

اكتفى البربر بمراقبتنا من المرتفعات العديدة، لأنهم لم يكونوا يرغبون

في أن نَطأ أرضَهم، فأخذوا يتحرّكون في الأعالي راجلين وراكبين، ثمّ سمعْنا طلقات نارية من بنادق "بوحبة" تردّد صداها بين فجاج الأطلس، تلتْها أعيرة نارية ضعيفة، وشتائم كثيرة، لم نعرْها كبير اهتمام.

وجاءت وفود انتيفة وأيت عياد "أولاد عياد" يجدّدون ولاءَهم إلينا، وتتبرّأ من الهجمات التي نتعرّض إليها وسط الجبال مؤكّدين أن أيت عتاب هم المسؤولون عنها. ومع أننا لم نُلقِ بالاً لهذه الهجمات الخجولة إلا أن رصاصة طائشة أودتْ بحياة أحد الجنود الألبينيّيْن وهو يأخذ بخطام بغله.

نفد مخزوننا من الشعير، وأصبحت انتيفة هي مُموّلنا الوحيد خاصّة قائدهم صالح أوراغ الذي التقيناه في تشرين الثاني/ نوفمبر الماضي بجمعة انتيفة في الجهة الأخرى من الأطلس.

٢٢ نيسان/ أبريل:

بعثْنا إلى الحَرَس الخلفي في مركز البروج، نطلب منهم أن يمدّونا بالمؤونة، وخلد الرجال والحيوانات إلى عطلة مُستَحقَّة. انتهزتْ كثيرٌ من القبائل توقُّفنا لتقديم طاعتها، ورَبْط علاقات معنا، ثمّ تطوّر الأمر، ليتكوّن قرب المعسكر سوق صغير، باعنا فيه الأهالي الحطب، والشعير، والحيوانات(أبقار، وأغنام، وماعز)، والخبز، والبيض، والدجاج والأسماك بأثمان تفضيلية، في جوّ ساده التفاهم والانسجام. وسرعان ما تكوّنت حِلَقُ الحكواتيّيْن، والبهلوانيّيْن، ومُروِّضي الثعابين، وكثر الحجّامون الذين يمصّون الدماء الفاسدة من أعناق الرجال، ويحلقون الرؤوس، ويُشذّبون اللّحى، أمّا المتسوّلون و"الصلحاء"، فيطوفون دروب "السوق" كلها ... إنها أجواء لا توحي بأننا قبل أيّام كُنّا في مواجهة عنيفة على تراب تادلة مع بني موسى المرعبين! ...

٢٣ نيسان/ أبريل

سيذهب غداً العقيد مانجان إلى البروج، ليلتقي بالجنرال ليوطي، للتشاور حول السُّبُل الكفيلة بإخضاع تادلة كُلّيّاً، ليعمَّ الهدوء ربوع المنطقة كلها. أمّا الطابور، فسيبقى بدار ولد زيدوح لأيّام أخرى في انتظار أن تصبح قصبة تادلة العاصمة السياسية الجديدة لتادلة، لأنها أكثر رحابة، ومشاهدها الطبيعية أقلّ قسوة ... أمّا دار ولد زيدوح، فليست سوى سهول صخرية، وضفاف نهر معزولة، ومنازل طينية خربة وبئيسة.

٢٥ نيسان/ أبريل

سبقتْنا إلى البروج هذا المساء أخبار عن هجوم مُحتمل على دار ولد زيدوح ... قبل أن نصل إلى هذا المركز الجميل عبرْنا منبسطاً رتيباً، وخالياً من الأشجار إلا سنابل قصيرة من شعير، وبعض الأعشاب النادرة، ثمّ صعدْنا تلالاً، قيل لنا إنها غنية بالفوسفات، تتوسّطها واحة، تنتشر فيها أشجار الرّمّان المُزهِرة، والكروم الخضراء، والصّبّار المُزهِر، والنخيل الباسق، ودوالي العنب، تعلوها أسراب الطيور، تطلّ على هذه الجنّة من فوق المرتفعات بنايات بيضاء.

قبل أن نغادر البروج للعودة إلى المعسكر القاسي بدار ولد زيدوح، جاءَنا نبأ رجوع الجنرال ليوطي إلى الدار البيضاء. كان علينا أن نقطع تسع مراحل مسرعين تحت حراسة خفر من السبايسية المغاربة الذين يقودهم القبطان ديشامب، فوق مستعمرات اليرابيع، ساخت في جحورها قوائم خيولنا المسكينة. ورُعي الكثير من قطعان الأغنام، والجمال، والحمير، والبغال، بأمان مؤشّر على بداية استباب الهدوء بالمنطقة. الحدث الوحيد الذي رابَنا هو ركض خيول بعض زعماء الأهالي، تطارد أحد الأرانب.

وجدْنا المعسكر هادئاً، كما تركناه، وخابت التّوقّعات كلها عن تعرّضه لهجوم مُحتمَل ليلة البارحة. وسرعان ما تأكّد عزم بربر الجبل على مطاردتنا بالحبال، والعصي، والسكاكين. وجاء مبعوث من معسكر العدوّ المَبْنِيّ بسيدي علي بوبراهيم يخبرنا عن قرب موعد الهجوم، فقد يكون مساء هذا اليوم، أو صباح يوم غد. قالها الرجل وهو يفتعل ابتسامة مشوبة بخوف، ربمّا لأنه لازال مرعوباً من حُرّاس الخفر الذين كادوا أن يقتلوه لدخوله إلى المعسكر في وقت متأخّرمن الليل، كما يحتمل أن يكون عميلاً مزدوجاً، يخاف أن يُكشَف أمره.

بوصول التعزيزات التي كُنّا ننتظر، تضاعف عدد رجالنا، فوصل لأكثر من ستّة آلاف رجل: ثلاثة سرايا، وأربع فِرَق مدفعية، انقسموا على ثلاث مجموعات، تولى قيادة الأولى العقيد گيدون دو ديف Gueydon de Dives والثانية المقدّم مانجان والثالثة القبطان بيتريكس Bétrix. تتناوب كل واحدة منها على تأمين سَيْر الطابور، وحماية القافلة في حال نشوب المعركة.

٣٠ نيسان/ أبريل

كانت تهديدات الحركات أخطر ممّا أخبرَنا به جاسوسنا. خضْنا أربع معارك قوية وطويلة في السفح يوم السادس وعشرين نيسان/ أبريل بعين الزرگة، وفي الأيّام الثلاثة الموالية، كانت لنا مواجهة بالجبل بسيدي علي بو إبراهيم لتفريق الآلاف من المحاربين العرب والبربر، لاسيما الذين تجرّؤوا على مهاجمة معسكرنا في واضحة نهار يوم السادس والعشرين من نيسان/ أبريل وليلة الثامن والعشرين.

وأظهر شلوح الجبال من أيت عطا، وأيت عتاب، وأيت بوزيد تمرّساً

بالقتال وبسالة وثباتاً، ومقاومة شرسة، حيث كلّفتْنا هذه المواجهات أربعة وثلاثين قتيلاً، وسبعين جريحاً. وتلقّى ثلاثة رجال طعنات قاتلة في خنادق المعسكر يوم الثامن والعشرين. وفي الليلة نفسها، جازف سنغاليو الطليعة بتسلّق الأجراف الصعبة للاشتباك مع العدوّ في مواجهات بَدَنية مباشرة، لكنْ، رُفع ستار ظلام الليل، ليكشف تراجيديا مروّعة، فعلى مسرح الأحداث مذبحة مروّعة: جثث ممزّقة بوحشية، أو محروقة، أو مذبوحة من الوريد إلى الوريد على الطريقة الإسلامية "الحلال"، وأخرى أصبحت جرّاء الطعنات الكثيرة، والموزّعة على الجسم كله مثقوبة كالغربال، وأخرى طُمِسَت ملامحها، لأنها دُقَّتْ بالحجارة ... ولم يجدْ رفاقهم ما يُنفّسون به عن حنقهم، ونقمتهم، إلا أخذ العهد على أنفسهم بالانتقام لهم شرّ انتقام.

كان لـ "صلحاء" زاوية سيدي علي بوبراهيم اليد الطولى في كل ما حدث بتوجيه ومباركة من رجال الهيبة الذين أبعدْناهم إلى سوس، لكنهم استمرّوا في نَفْث سمومهم في نفوس مريديهم، وزَرْع أفكارهم العدوانية والعنصرية في قلوبهم، حتّى إذا أينعت، رموا بهم في مستنقع الدماء يقتلون، ويروّعون بينما يتوارون هم في الكواليس المظلمة.

فالزوايا هي أبواق الحركة الهيبوية، الناشرة لتعاليمها. فالهيبة رغم الحصارالمضروب عليه، لم يتوقّف عن تهييج السّكّان برسائله الدموية التي تولّى توزيعها مئات "الرّقّاصة" تحت مظلّة هذه المؤسّسات الدِّيْنية والمعاقل الروحية "الزوايا".

برهَنَ رجالنا المغاربة، والجزائريون، والسنغاليون أو الفرنسيون، بما يدع مجالاً للشّكّ، عن حنكتهم العسكرية، وتمرّسهم بخوض مثل هذه المعارك القاسية، لاسيما في أثناء مطاردتهم البطولية للعدوّ بعين الزرگة، إذ تمكّنوا يوم السادس والعشرين من قَتْل أكثر من ستّين بربرياً طعناً بالسيوف. كما تعقّبهم

المشاة بالقذائف، ولو أنهم أبقوا على مسافة آمنة بين صفوفهم، وتدرّب قائدوهم على قيادة "الخطوط " الطويلة، لما خسرنا أولئك الرجال كلهم.

شعرْنا بالحرج، لما كُنّا نتفقّد قتلانا في الساحات التي شهدت مواجهات مثيرة. فكل جثث قتلانا تحمل آثار طعنات سكاكين أو خناجر، وعانيْنا الويلات، لمّا أخذنا العدوّ على حين غرّة تحت ستار الظلام الحالك ليلة الثامن والعشرين. وحدها ومضات نيران بنادق "بوحبة" تدلّنا على أمكنة الفرسان الأشباح. واختلط وابل من الشتائم والصخب مع دَوِيِّ الرشّاشات، وقصف المدافع التي حالت دون سماعنا تحذيرات وصول العدوّ إلى الخنادق.

وَصَلْنا إلى الميدان الذي شهد المواجهات الثلاثة الأخيرة مع البربر المتعصّبين لمّا زجّوا بالنساء والبُلْهِ، والفتيات، والعجائز في الخطوط الأمامية، لبعث الحمية في نفوس الرجال، بما كنّ يُوجّهنَ إلينا من شتائم ولعنات، وقعها على أنفسنا أشدّ مضاضة من وقع القذائف. فقد وجدْنا من بين القَتْلى فتاة في الثالثة عشرة من عمرها، وعجوزاً تحمل في حزامها كيساً مليئاً بالرصاص، تبيّن فيما بعد أنه لأحد الرماة السنغاليّيْن المقتولين سنة ١٩١٠ بتادلة في أثناء مرور الطابور الباسل لأوبير Aubert.

ثمّ غادرْنا اليوم الزياتين المُزهِرة والفوّاحة لسيدي علي بو إبراهيم أسفل مرتفع، تربض فيه قرية، تتوسّطها زاوية بأسقف خضراء، وقبّة أخرى بيضاء معزولة لضريح وَليّ صالح. وارتسمت في مخيّلتنا ميادين المواجهة فوق الصخور المكسوّة بشجيرات "الزقوم" في الأطلس، والقصور العاتية، ومنازل البربر بجدرانها الحمراء وشرفاتها المستوية.

ولن ننسى ذلك التماسك القوي لجنودنا رغم اختلاف جنسياتهم ودياناتهم!

فقد قُتل النقيب ريكيستون Réquiston في أثناء هجوم المرتفعات إلى جانب أحد رجاله من الزواف، لمّا كان يتسلّق إحدى المرتفعات! وقُتل مايي الطبيب الرئيس برصاصة غادرة، بينما كان يُقدّم الإسعافات لأحد المصابين ليلاً رغم تلقّيه تحذيراً من أحد السنغاليّيْن: "لا تذهبْ، يا دكتور، فسيقتلك المغاربة"، فأجابه: "إن مكاني حيث يكون المصابون".

ورجعنا عبر ضفاف أمّ الربيع إلى معسكرنا القديم بعين الزرگة، دون أن نرى أثراً يُذكَر للعدوّ الذي فَقَد أيّ قدرة على حمل السلاح. ولمّا لم يجد جنودنا ما يفعلونه، أخذوا يتسابقون - مازحين - إلى إخراج العقارب من سُكُوكِها.

٣ أيار/ مايو

نحن في راحة منذ البارحة في عمق الوادي على ضفّة النهر قرب القصبة الزيدانية القلعة الكبيرة ذات الأسوار العالية، حيث حارسُنا يوم الثاني عشر من نيسان/ أبريل، لكنْ، لم تعد تسكنها اليوم سوى أسراب من طيور الحمام البرّيّ، وأزواج من اللقالق. وأرسلنا صبيحة اليوم مائة وعشرين بين مصاب ومريض إلى وادي زم، بواسطة في سيّارات الإسعاف. وأمدَّنا الخَفَر بقافلة محمّلة بالمؤونة والملابس. فالبِذْلات العسكرية لرجالنا أصبحت رثّة، والأحذية بالية، والسجائر مفقودة.

منّا مَن استمتع بالسباحة، ومنا مَن جلس يصطاد على جنبات النهر تحت ظلّ أشجار الرّمّان المُزهِرة أو الكروم الوارفة للبساتين، بينما أحد الخيّالة المجانين يقصفنا بالرصاص بين الفينة والأخرى دون أن يكترث له أحد ..

ولازالت حركة قصبة بني ملال في حالة تأهّب للحرب، قد لا تبادر إلى

الهجوم، لكنها لن تتردّد في الدفاع عن المدينة. ولجأتْ إلى تكتيك هولاندي، يقضي بفتح السواقي ومجاري المياه كلها لإعاقة تقدّم المدفعية والخيّالة.

٤ أيار/ مايو

لازالت بعض الطلقات النارية تُدوّي فوق المعسكر هذه الليلة. ولما أُخبرْنا عن اقتراب الهجوم، شرع حُرّاس الخنادق في فَتْح النيران بالرشّاشات لإرهاب المتربّصين، وإخمادهم. ولم يخدش هدوء الليل إلا صراخ أحد المصابين في صفوف الأعداء، ثمّ ساد صمت عميق. وفي محاولة أخيرة ويائسة، حاول نحو مائة من الخيّالة قصفَنا، لكن فرقة من السنغاليّيْن طاردتْهم، إلى أن ابتلعهم الظلام.

عكس ما كُنّا نتوقّع، فقد تأخّر استسلام القبائل. فتادلة، وأيت الربع، وبني عمير، وبنو موسى كانت تتوجّس من انتقام الشلوح بعد الرحيل المرتقب للطابور. وما دمنا لم نبنِ مركزاً رَسْمياً، يؤكّد رغبتنا في احتلال البلاد، فلن تلتحق بنا سوى بعض الدواوير الصغيرة، وبذلك ستذهب الجهود كله التي بذلْناها أدراج الرياح.

والغريب هو تنامي تهديدات هؤلاء الشلوح للعرب، وهم الذين كانوا لا يجرؤون على مواجهتهم، بل يفرّون إلى الجبال، ويعتصمون بها. إن رغبتهم في الحصول على مراعي في السفوح تجعلهم لا يتردّدون في التحالف مع العرب ضدّ العدوّ المشترك. وهم محاربون بالفطرة، تثير غاراتهم الرعب والهلع في نفوس خصومهم.

كان مجيئنا إلى هذه المرتفعات الجبلية تلبية لإلحاح حليفنا زعيم بن سمير على تخليص نسوة من قبيلته، أُسرن يوم السابع عشر من آذار

/ مارس، وفي مقدّمتهنّ ابنته بنت بيگة ذات السادسة عشرة من عمرها التي بدت شاحبة في أسمالها الحمراء والبيضاء لهول ما رأتْ من سوء معاملة ومضايقات وإهانات، فالمسكينة لم تتنفّس براحة إلا بعد سماعها بدخولنا إلى سيدي علي بو إبراهيم.

انبهر الأهالي بالقدرة الخارقة لأفراد الفيلق الرابع عشر للألبينيّيْن على تسلّق المسالك الصعبة للأطلس في أثناء هجوم سيدي علي بو إبراهيم رغم قصر قاماتهم، ولمّا أخبرناهم أنهم يتحدّرون من مناطق جبلية أعلى من الأطلس، أصبحوا يُلقّبونهم بـ "الشلوح الفرنسيّيْن".

الفصل السادس عشر
معسكر قصبة تادلة

٥ أيار/ مايو

عدْنا إلى قصبة تادلة، ولم يزل الوادي سريع الجريان، وإن انخفض مستوى منسوبه، وانحسر عرضه إلى اثني عشر متراً، ممّا سهّل على رجالنا صيد أسماكه البيضاء الوفيرة بمهارة واحترافية.

تولّى العَجَزَة إعادة إعمار المدينة بعد أن بعثوا شبّانهم لمقاتلتنا ضمن حركة بني ملال عند قَدَم الأطلس. واصطفّ جدار من الفرسان فوق السهل، وأرسل طلقات إيذاناً بوصولنا. فردّت عليها المدفعية بقذيفَتيْن، شتّتا شملهم، وبثّتا فيهم الرعب والذهول، فتراجعوا إلى الجبل حاملين معهم جرحاهم وخيباتهم.

لازلنا غير مطمئنّين للأوضاع السياسية، ولا سبيل لإيقاف تمرّد السّكّان، وإخضاعهم إلا بتهديدهم، والتضييق عليهم في مصادر عيشهم. وحتّى نكسر شوكة المتحصّنين بالأطلس، معقل المتمرّدين، كان علينا اختيار أحد أمرَيْن:إمّا اقتحامه، وفي ذلك مغامرة غير مأمونة العواقب، أوإقامة مركز يسدّ في وجوههم المسالك إلى مزارعهم التي اقترب أوان حصادها، ورَعي قطعانهم، والنزول للسفح للتّزوّد بالمؤن. وأخوف ما يخافه العرب هو إضرام النار في محاصيلهم، ومتى لوّحنا بهذا التهديد، فسيُهرَعون إلينا للتفاوض، والبحث عن "تسوية". نعلم أنها طريقة وحشية ودنيئة، ولكنها الحرب!

٨ أيار/ مايو

عرفت الليالي الثلاثة الأخيرة أحداثاً مثيرة، فقد نجح تادلاويون في التّسلّل دون أسلحة داخل المُخيّم، وسرقة أربعة بُندُقيّات، ومباغتة أحد الزواف، وتقييده، ثمّ طعْنه. كما دأبوا على رمْينا بالرصاص على الساعة الحادية عشرة كل ليلة.

ورغم أن المدفعية ردّتْ على هذه الاستفزازات بإطلاق قذائف، تردّد صداها في أعالي الجبل، فإن الأهالي لم يكفّوا عن إطلاق النار على خيامنا طيلة الليل، مع سيل من الشتائم واللعنات. وما لجؤوا لهذا الأسلوب إلا لعَجْزهم عن تنظيم حركات وعمليات ميدانية قادرة على مواجهتنا.

قصبة تادلة ليست خزّاناً مهمّاً لحبوب المنطقة فقط، وإنما مركز تجاري، تُشحَن منه حمولات كبيرة من خشب الأرز الوافد من بلاد زَيّان في قوارب في اتّجاه تارماست بوادي العبيد، لتُحمل بعد ذلك على ظهر الجمال إلى مراكش، والمُدُن الداخلية الأخرى. كانت القطع الخشبية من الأرز تُباع بثلاث دوروات في بلاد زَيّان، وبخمسة في قصبة تادلة، ثمّ تُباع للشركة المغربية بسبعة في تارماست. لهذه الاعتبارات كلها كان وجودنا في المنطقة يُقلِق الأهالي، ويقضّ مضاجعهم، ويهدّدهم في عيشهم اليومي.

وصلتِ البارحة، كما كان متوقّعاً، الطائرة التي يقودها الملازم دو لامورالِيس de La Moralais وبدل أن تهبط في الساحة المخصّصة لها الموسومة بشعلات منيرة، اتّجهت، خطأً، نحو أعلام بيضاء، يحملها بعض الأهالي، ويتّجهون نحونا لإعلان استسلامهم، فتحطّمت، لكن الطيار ومساعده خرجا سالمَيْن، ولم يُصابا سوى بجروح طفيفة، ومثل هذه الحوادث مألوف في هذا النوع من الطائرات الأحادية السطح، وإن كانت تتميّز بالسرعة والقدرة على المناورة. إن الطّيّارين يجدون صعوبة

كبيرة في منطقة، تفتقد لمركز مُنظّم للطيران، ولمخازن الوقود، وورشات الصيانة، أومآرب تقي هياكلها المصنوعة من الخشب والخيش من شدّة الحَرّ نهاراً، وقسوة البرد ليلاً.

٩ أيار/ مايو

عاد الملازم دو لامورااليس البارحة من وادي زم بعد أن استُبدلت بطائرته أخرى، يقودها الرّبّان Garros، فهبطت دون مشاكل. ثمّ ما لبثتْ أن قامت بالتحليق فوق السهل الذي يفصل بين أمّ الربيع والأطلس، وفوق الجبل مع ما تتطلّبه الأمر من حذر ويقظة فوق هذه "البلاد" المقفرة ... واختبأ السّكّان والخيام والقطعان عند قَدَم السلسلة، بالقرب من قصبة بني ملال بين أشجار الزيتون. وأصبحت الطُّرُق المؤدية لقصبة تادلة كلها تحت أعين فرقنا المُتأهّبة لإعطاء إشارات التنبيه في حالة رؤية أمر مريب، أو تحرّك غريب.

واصل الطّيّار تحليقه فوق الدواوير على ارتفاع سبعمائة متر، كما استمرّ فرسان من الأعداء في القيام بجولات استطلاعية حول المعسكر دون إطلاق رصاصة. وبحلول الليل، عمّ الهدوء، لأن المتسكّعين باتوا يخافون قذائفنا التي لن تتردّد في قَصْفهم وملاحقتهم، والتعليمات الصارمة التي أُعطيت لجنودنا، بعدم التساهل مع أيّ كان. فأمس، ورغم أن أحد الزواف أصاب أحد الأعداء إصابة بالغة كسرتْ رجله، إلا أنه سحبها وراءه، وهي تخطّ الأرض دماً. أمّا السنغاليون، فكانوا أكثر قسوة والتزاماً بالتعاليم، و"القايد" الجيلالي المسكين كان أوّل ضحاياهم، لمّا اشتبهوا به قرب الوادي، وهو يتوضّأ، فقادوه رغم توسّلاته ومحاولته إقناعهم بأنه قائد بني زمور، وأنه حليفهم، وصديق للعقيد مانجان، لكن ذلك كله لم يشفع له عندهم. وما إن أحضروه أمام العقيد حتّى صرخ محتجّاً: "يبدو أن لا أحد أصبح يعرفني هنا".

L'AMAN AUX CHEFS DU TADLA

Voir page 274

تابع الأعداء مذهولين كيف اتّخذت عناصرنا مآذنَهم أبراجاً للمراقبة، ومنصّة للرشّاشات قرب أعشاش اللقالق الحاضنة لبيوضها، تحاكي بمناقيرها طلقات الرشّاشات غير عابئة بأجواء الحرب والتّرقّب. وتحوّلت فِرَقُنا إلى خلايا نَحْل في تحرّك مُستمرّ، وعمل دؤوب: فهؤلاء السنغاليون يُعيدون بناء "مساكن" المدينة على دعائم قوية، ويشقّون السواقي، والمُكلّفون بالأشغال الشّاقّة يهدمون المنازل المتداعية المحيطة بالقصبة، لخَلْق مدار حول المدينة، يُسهِّل حراسة جنبات المركز المُرتقَب.

كان للقصبة العتيقة والضخمة التي بناها السلطان مولاي إسماعيل المعاصر للويس الرابع عشر جلالا وهيبة، وهي تنتصب شامخة فوق صخور الضّفّة اليمنى للوادي، وتتابع جريان الوادي السريع نحو القنطرة الحجرية، بأسوارها الرمادية المتأثّرة بتعاقب الليل والنهار، واتّخذت طيور الحمام من فتحاتها الكبيرة، وفناءاتها المُربّعة، أماكن لإقامة أعشاشها. وبداخلها جامع عتيق قرب بقايا قصر، تشهد على فخامته قِطَع الزليج المتبقّية وأحجار أبوابه المنحوتة، وبالقُرب منه مسجد جديد عميق وبارد، طُليت جدرانه بالجير، وتتدلّى من سقفه سلاسل، كانت تشدّ "فوانيس"، لم يبقَ لها وجود. ويتوسّط قاعة الصلاة المفروشة بحصائر من الدوم منبر كبير، وفي أحد أركانه "نطفية"، بها ماء أعذب وأنقى من مياه النهر الصفراء، أو ساقية "إغرم لعلام" التي تصبّ في وادي أم الربيع.

كان قسم كبير من القلعة وخزّانات الحبوب "مطامير" تحت الأرض، وعلى أطرافها فوق الصخور مجموعة من الأكواخ والنوايل خُصِّصت للعبيد، ليكونوا في صدارة مَنْ يتصدّى لأيّ هجوم مُحتمَل على القلعة.

١٠ أيار/ مايو

جاء عبد الله بن جابر أحد أعيان بني عمير إحدى أهمّ قبائل تادلة رُفقة مئات الفرسان الأشدّاء، ليُعلن خضوعه واستسلامه بشروط، على رأسها إرجاع قطيعه الذي صادرْناه بعد أن أخلفَ موعده لحضور جلسة تسوية الأمر بيننا وبينه، لمّا احتلّ طابورنا قرية سوق الأربعا قلب قبيلته، والاكتفاء ببَعْث إخوته. وكان يظنّ نفسه حذقاً، بإبعاد قطيعه عند القبائل الخلفية في الأراضي الخاضعة ببلاد الشاوية، ظنّاً منه أننا لن نصلَ إليها، غير مُدرِك أن بَذْل المال كفيل بأن يكشف عن المستور.

عبد الله بن جابر هذا أسمر، منكمش الوجه، لفحتْهُ أشعّة الشمس الحارقة، فبدا أقرب إلى السواد، أسفله لحية مترنّحة، تطلّ عيناه الضّيّقتان كنقطتَيْن وسط جفنَيْن منتفخَيْن، وبملابس رمادية، فوقها جلباب ناصع البياض .. وعدناه بأننا سنستجيب لطَلَبه بعد حين، لكنْ، هيهات هيهات أن نُعيد له قطيعه! أمّا مسألة القيادة، فالأمر رهين بأن يُقنع صديقه موحى أو سعيد زعيم تحالف أيت الربع وشلوح الجبل بالاستسلام.

١١ماي

حلّ الليل، وبينما نحن نسمع تبادُل طلقات بين جنودنا والعدوّ، هبّتْ رياح قوية، هزّتْ جوانب الخيام، فتحوّلْنا إلى النوايل التي أقامها السنغاليون بعد جهد جهيد، لتناوّل العشاء، لكنها لم تكن صالحة للإقامة.

كان اليوم مُثمِراً بمجيء عبد الله بن جابر مستسلماً، ممّا سيُسهّل السيطرة على كل تادلة إلى غرب أمّ الربيع، والتّفرّغ لتعيين قيادات جديدة

وقوية على رؤوس القبائل، الأمر الذي لن يكونَ سهلاً وسط الصراع والتنافس على الزعامَتَيْن الدنيوية والروحية.

تشهد تادلة صراعاً بين قطبَيْن دِيْنيَّيْن كبيرَيْن، هما زاوية تارماست، وزاوية أبي الجعد ممثّلة في زعيمها "السّيّد" سليل العائلة الدرقاوية المؤيّدة بفضل الله وبركته الذي وافاه الأجل قبل خمسة عشر يوماً، وعيّن ابنه عبد القادر، وهو شابّ في العشرين من عمره، بهيئة حسنة، وسحنة سوداء، مع آثار جدريّ، تغطّي وجهه، لكنه لقي معارضة قوية، من طرف أحد أقربائه الأغنياء، يُدعى عبد الله بن العربي، يزعم بأنه الأحقّ بالبركة من "السّيّد" الذي سرقها منه، ولم يكن يستحقّها.

فاحتارت السلطة الفرنسية مع منْ ستتعامل؟ ولمنْ تنحاز؟ فاختارت الحكمة والتّروّي والحياد، تاركة تسوية الأمور الدّيْنية لأهلها. أمّا الآن، فإن صاحب البركة هو الشّابّ عبد القادر، لأنه يَلقى تأييداً من الأغلبية الساحقة من الناس.

ورغم أن الشّابّ كان في أوج انتصاره، إلا أنه فضّل عدم التّدخّل في شؤون الزاوية الجارة تارمست، وتنحية منافسه "الفقير" المُلتحي حليفنا ومساندنا في المعركة التي انتصرْنا فيها بسيدي بو إبراهيم.

(أبي الجعد) وتارماست زاويتان متجاورتان، تقومان بكَبْح جماح التهافت على الدنيا، والانغماس في شهوات الحياة وملذّاتها. لكن الشخصية الأكثر غرابة، وإثارة هي شخصية شابّ دُرْزِيّ، يُسمّى سي لحسن، جمع بين الوسامة والوداعة، ينظر باستحياء، ويتكلّم بهدوء، ويمشي بسكينة ووقار، يتكلم العربية، والفرنسية، والإنجليزية. وكان الناس يستغربون من الحظوة والمكانة الخاصّة التي كانت له عند السّيّد، وهو يده اليمنى، ومستشاره

في تدبير المنازعات كلها التي تنشب بين القبائل. كيف وصل هذا الدُّرْزِيُّ إلى هنا؟ولِمَ اختار (أبي جعد) موطناً له؟ قيل إن السّيّد قربه، وعطف عليه، لأنه الوحيد الذي كان يخوض معه في مسائل علمية عميقة، وقضايا فلسفية شائكة. عرفْنا عنه أنه يدّعي انتسابه لعائلة أميرية، وأنه سافر إلى أوروبا، وشارك في حرب الأتراك في أثناء الثورة العربية الأخيرة، وبقي على اتّصال مع أهله. ثمّ ماذا يفعل هذا الرجل "المفقود" في قلب تادلة بعد أن توفيّ (السّيّد) الذي كان يتواصل معه روحياً وفكرياً؟

١٢ أيار/ مايو

استغلّ الشلوح العاصفة الرعدية والظلام الدامس، ليسطو على خزّانات الحبوب/ "المطامر" في السهل على بُعْد مئات الأمتار من المعسكر، لكنْ، خانتْهم السّرّيّة اللازمة لمثل هذه العمليات، فوصل ضجيجهم إلى مسامع الحُرّاس. فوَجَّهتْ إليهم المدفعية قذيفة فرقتهم، ولم يُمهل الحُرّاس أحد اللصوص الذين ألقوا عليه القبض في شعبة قريباً من المعسكر مُسلّحاً بمدْيَة حادّة، فأردوه قتيلاً انتقاماً لأحد الحُرّاس الذي جرّده مُتسلّلون عبر فتحة أسفل السور، وقتلوه بطعنات غادرة.

١٤ أيار/ مايو

رغم سقوط الكثير من الشلوح المُتمرّدين بين قتيل وجريح، فقد صمدوا أمام طلقات الرشّاشات وقذائف المدافع لِليالٍ طويلة. وكنّا نجد بضواحي المعسكر، صباح كل يوم، بِرَكاً من الدماء لضحاياهم.

فَتَرَتْ هِمّة عبد الله بن جابر في مواصلة الحرب، وقرّر البقاء داخل

المعسكر، لما هاله من الاستعراضات الجيّدة، والركض المنظّم للخيّالة، وكيف كانوا يتدرّبون على التصويب نحو دمى، تمثّل أهدافاً مُحتملة. وسأل رجال المدفعية أن يشرحوا له كيف يتمّ تشغيله. فقدّموا له درساً تطبيقياً لمّا قصف المدفع من عيار ٧٥ مجموعة من الفرسان/ الخيّالة، ظهروا في الوادي. واستغرب عبد الله كيف أن المدفعيّ يُشعل النار في المدفع بعود ثقاب، ومن الخراطيش النُّحاسية الطويلة والنقية. وكان لا يكفّ عن إظهار إعجابه بالمدفعيّيْن الذين يُحدِثون خسائر كبيرة في صفوف الأعداء. لكنه لم يكن يطيق الرائحة الكريهة المنبعثة من القذائف. وقال للقبطان دونافورت Donafort الذي يُترجم لنا انطباعاته: "ماذا تضعون بداخلها؟". واقتنع عبد الله بن جابر بأن يكتب لصديقه موحى أو سعيد، ليُخبره بأن لا جدوى من المقاومة، لأنه لا قِبلَ له على مواجهة فِرقِنا العسكرية. لكن القائد العنيف لـ (أيت ويرّا) بعد الفراغ من قراءة الرسالة، أمر رجاله بالاستعداد لمواجهتنا من جديد.

دخلتْ إحدى البربريات تجري بساقَيْن طويلَتَيْن في العقد الرابع من العمر المعسكرَ، تحمل رسالة من زعيم الثورة موحى أو سعيد إلى عبد الله بن جابر، ضمنها عبارة غريبة: "في المكان الذي تعرفونه، وللأمر الذي تعلمونه".

إنها بداية المفاوضات، من أجل السلام، يبدو أن موحى أوسعيد اقتنع، أخيراً، بأن ما نهدف إليه هو تثبيت النظام بالبلاد. وأخبرناه بأننا أقمْنا مركزاً بقصبة تادلة للإشراف على إعادة ترميم القصبة المخرّبة، وإغلاق الفتحات في السور، وهَدْم المنازل الآيلة للسقوط، ورشّ الأرضية بالجير، للتّخلّص من الحشرات، ودَعْم القنطرة، وتزيينها، وإصلاح الطريق المؤدّية إلى وادي زم ... إنها رسالة واضحة للمعارضين كلهم بأننا ماضون في مشروعنا الإصلاحي، وأن لا خيار أمامهم سوى الانخراط فيه، والتعاون معنا.

كان احتلال قصبة تادلة قلب البلاد، وخزّان أيت الربع من القمح والشعير والمشرفة على القنطرة التي تمرّ منها السِّلَع والبهائم والناس ضربةً قوية للمُتمرّدين، جعلتْهم بين خيارَيْن، لا ثالث لهما: إمّا أن يبقوا منبوذين وبؤساء في أعماق الأطلس، أو النزول من تعاليهم وعجرفتهم، والجلوس لمائدة التفاوض والحوار، لاسيما وقد استحوذْنا على المجالات الرعوية كلها التي لا غنى لهم عنها، بما في ذلك الأراضي التي كانوا يتقاسمونها مع العرب. إن الشلوح، كما قال أحد القياد "مثَلُهم كمثَلِ طيّاركم، مهما حلّق عالياً، لا بدّ له من الهبوط للتّزوّد".

إن لتأسيس المراكز على طول الأطلس إيجابيات كثيرة، أبرزها الحدّ من حركية البربر المستعدّين، دائماً، للانتشار في السفح كخلايا النمل، وأسراب الجراد، وسَحْق أعتى المنافسين، فجينات المحاربين تسري في دمائهم، ولا ينقصهم الذكاء والتفكير في مصلحتهم، لأن الجوع، وهو أشرس الأعداء، سيُرغمهم، حتماً، على التّعقّل والتفكير في التحالف معنا، وإقامة مبادلات تجارية، تعود بالنَّفْع على الطَّرَفَيْن، وتمدّ جسور التفاهم بيننا.

ولعلّ من أكبر الأخطاء التي وقع فيها سلاطين المغرب هو الوقوف عند الحدود الطبيعية للجبل، وعدم الانفتاح على ساكنيه، لذا علينا أن لا نُكرّر الخطأ نفسه.

نعم، نجحْنا في السيطرة على قصبة تادلة، لكن التّحدّي الأكبر هو تعزيز وجودنا فيها، لتصبح بوّابة لبلاد زَيَّان، وإحكام قبضتنا على خنيفرة عاصمة الأطلس، للتّوجّه بعد ذلك لتازة. ثمّ نُتوِّج ذلك باحتلال سوس إلى ملوية وتافيلالت. وعندما يتمّ تطويق الأطلس من الجهات كلها، سنبدأ في استمالة البربر، واستدراجهم، ليصبحوا حلفاءَنا، وهي السياسة نفسها التي نهجناها لإخضاع مراكش.

الفصل السابع عشر
في أبي الجعد وعند بني عمير

١٩ أيار/ مايو

لم تعلن أيت الربع، بعدُ، استسلامها. لذا أبقينا على فرقة عسكرية، تنتظر ما ستُسفر عنه المفاوضات، في حين تحرّك الطابور وسط الأراضي الخاضعة لبَسْط سلطته، وتنظيم هياكل الحكم.

وحَلَلْنا بأبي الجعد، هذه المدينة "المُقدّسة" المعزولة وسط صحراء بلا عشب، ولا ماء، ولا ظلّ .. لاشيء سوى بحر من الحجارة، يضفي على المشهد قبحاً ووحشة ..

أجمل ما في المدينة زاويتُها البيضاء ذات القُبَب الخمسة، بالأسقف الدائرية، والمَكسوّة باللونَيْن الأخضر والوردي، وتُطلّ من بين الأضرحة الكثيرة صومعتان رشيقتان فارعتا الطول، لا تضاهيهما سوى أشجار النخيل الباسقة، وزاد من جمال الفضاء وروعته أشجار الزيتون النضرة التي ترويها سَوَاقٍ رقراقة، بمياه عذبة ومنعشة.

وما إن تخرج من هذه الجنّة الفيحاء حتّى تجدَ نفسكَ في جحيم من القذارة، والروائح الكريهة المنبعثة من أكوام الأزبال. أمّا الأحياء، فضيّقة ومزدحمة بالمحلات التجارية الكثيرة، فالمدينة تعرف رواجاً تجارياً هامّاً، لأنها نقطة التقاء بين الأطلس وزَيَّان وتادلة.

إن هذا الرواج التجاري للمدينة جعلها وجهة أثيرة للمُومِسات والشّواذ،

كما أن نساء المدينة غير المحتجبات لا يجدنَ غضاضة في تفرُّس الوجوه. يقول السّكّان مفتخرين إن بالمدينة خمسة حمّامات عمومية كفيلة بتطهير كلّ مَنْ تمرغ في حمْأة الرذيلة.

حالة المساكن جيّدة على العموم، يدأب أصحابها على غَسْلها بالجير، وتزيين أبوابها الخشبية، وقد صُمّمت بشكل ذكي، يسمح بدخول أشعّة الشمس إلى مرافقها كلها.

ولمسْنا تفهّماً كبيراً من الساكنة، واستعداداً لتقديم يد العون لفِرَقِنا، كي تتمكّن من شقّ الطريق وسط هذه الأكوام من الحجارة الصلبة، أمّا أطبّاؤنا، فقد بادروا إلى إسعاف الوافدين عليهم من المصابين بمرض الجدري في ساحة شاسعة، تحوّلت إلى مستشفى في العراء.

٢١ أيار/ مايو

بعد أن قضيْنا يومَيْن بأبي الجعد، اتّجهْنا نحو سوق الأربعاء لخطبة ودّ بني عمير، وتوطيد العلاقة معهم، فاستقبلُونا، بدورهم، بحفاوة وترحاب، نحن الذين تبادلْنا معهم قبل أقلّ من شهر إطلاق نار عنيف.

إن كان طَبْع هؤلاء العرب قد تغيّر فعلاً، فإن طبيعة بلادهم لم تتغيّر، فالسهول، كما عهدناها، مَكسوّة بالعشب الرقيق، والساقية التي تعبر هذه المروج قلّ صبيبها، بفعل ارتفاع درجة الحرارة. وعند اشتداد الحَرّ عند الهجيرة تهبّ زوابع من الغبار، تعلو وتعلو حتّى تبلغ عنان السماء، ثمّ تعود، فتهدأ.

جاء مئات الخيّالة من بني عمير، يتقدّمهم زعيمهم الحيوي عبد الله بن جابر، وهم يرمقون المحلّة التي جرّعتْهم وفرسان تادلة الأقوياء مرارة الهزيمة

على يد مدفعيّيها الجزائريّيْن، وبني جِلْدَتهم من المسلمين والعرب، كما كُنّا نقرأ في نظراتهم الإعجاب بخيول فرنسا الضخمة، وقُوّة البغال التي تحمل القذائف، والسنغاليّيْن المُسلّحين بالبنادق السريعة، ممّا لا يفتح لهم مجالاً لارتكاب أيّ حماقة، كما أبدوا استغرابهم من نجاح الوحدات جميعها في الوصول إلى المكان المخصّص وسط مُربّع المعسكر في الوقت المحدّد بانضباط وهدوء، ومن الطريقة التي رُصفت بها الخيام .. ولمّا جاء دورهم، تقدّم آلاف الفرسان يرتدون جلابيب وبرانس بيضاء، كل دوار على حدة، بنظام وانتظام يسوقون تسعمائة خروف، ومائتَي حمولة /كيس من الحبوب هدية للطابور إقرارا بهزيمتهم. ولم يُخفوا امتنانهم للمُموِّن، لمّا عوّضهم بسخاء عن هذه الهدايا كلها، واعتذروا لنا عن عدم تمكّنهم من تقديمنا الدجاج، لأن الطابور كان قد أتى عليه كله في أثناء احتلاله الدواوير.

٢٢ أيار/ مايو

عاد الاطمئنان للساكنة، وأصبح الدجاج متوفّراً في الأسواق حتّى إن أعداده رَبَتْ عن حاجة الجنود. كان هذا اليوم مميّزاً، لأن أعيان بني عمير أجمعوا، أخيراً، على أن يكون زعيمهم في الحرب عبد الله بن جابر قائداً عليهم. الأمر الذي أسعدَنا، فالرجل حيويّ وقادر على إخضاع المُتمرّدين والمحاربين من بني عمير. ولم يبقَ للسلطان سوى تعيينه رَسْمياً، كما جرت العادة بذلك.

وتمّت عملية تنصيب "القايد" في الهواء الطلق دون حدث، إلا ما كان من عبارات الاستهجان والرفض التي قُوبل بها ترشيح أحد القياد القدماء لنفسه، فالرجل لا قدرة له على قيادة قبيلة من حجم بني عمير، فتوارى الشيخ الوسيم ذو اللحية البيضاء المشذّبة، والملابس الأنيقة والفخمة أمام هؤلاء الرُّعاة القُساة.

ما أصعب الحياة في بلاد بني عمير! فأشعّة الشمس لا تُخفّف من لهيبها أشجار، تُلطّف الأجواء، وتزيد ضراوتَها الخيامُ السوداء التي نسجتْها النساء من وَبَر الجمال. أمّا الآبار، فعميقة، لا تجود بمياهها إلا لذوي السواعد القوية القادرين على سَحْب الدلاء الكبيرة بالحبال الطويلة والخشنة. أمّا العواصف الغبارية، فضيفٌ ثقيلٌ في هذه البيئة الصحراوية القاسية سرعان ما تتحوّل إلى عواصف هوجاء، يزمجر رَعْدُها، ويخطف الأبصارَ برقُها، وتُوَلْوِلُ رياحُها في مشهد قاتم وكئيب.

٢٤ أيار/ مايو

غادرْنا سوق الأربعاء مساء تحت ضوء القمر، وبدأت المزروعات تختفي تدريجياً، لتُفسح المجال أمام الأعشاب الرقيقة التي تستأثر بها قبيلة بني عمير دون غيرها، وأدّتْ لامبالاةُ جنودنا إلى رَمْي أعقاب السجائر في السهول اليابسة بفعل حرارة الشمس الحارقة إلى انتشار النيران بسرعة في الهشيم اليابس. الجفاف هو سيّد المكان، لم تسلم منه عين قيشر التي كانت تجود بسخاء على الإنسان والنبات والحيوان بمياهها العذبة.

وَصَلْنَا ضريح "سيدي عْمر" قرب شجرة أكاسيا الوحيدة التي صادفناها إلى حدود الآن، ويملأ الفضاء ضجيجُ طيور الدوري التي تبني أعشاشها بين الضّفَّتَيْن. راقَ منظر هذه الواحة مرافقِينا من بني عمير، فأخذوا يضحكون كاشفين أسنانهم الصفراء الفاقعة وسط وجوههم المحروقة بأشعّة الشمس، وعلّق أحدهم: "هنا ترعى قطعاننا إلى حدّ التخمة، وتشرب طيلة النهار، فتسمن بسرعة". أسرع الرجال إلى بناء الخيام، ثمّ انصرفوا مُتحمّسين إلى صَيْد الأسماك الكبيرة التي لم نكن نتوقّع أن نجدَها في مثل هذا الوادي الصغير.

Voir page 289.

ADIEU AU 14e BATAILLON DE CHASSEURS ALPINS
(Boujad, mai 1913)

عجبْنا لهذا الهدوء، وقد كُنّا قبل شهرَيْن نُعسكر في المكان نفسه، ونخوض معارك طاحنة مع الحركات التي كانت تُغيّر يومياً على مركز وادي زم. وبحلول الظلام، لا نرى فوق الأجراف المُطلّة على الوادي سوى ألسنة النيران الحمراء وهي تلتهم ما تبقّى من العصف المأكول فوق السهول القاتمة ...

الفصل الثامن عشر
في انتظار خضوع أيت الربع

مكتبة
t.me/soramnqraa

٢٥ أيار / مايو

رغم توقّف العمليات، واصلت فرَقُنا العسكرية زياراتِها التّفقّدية، للتّأكّد من جنوح الدواوير كلها للسِّلْم قبل أن يبدأ الأهالي المجنّدون يوم فاتح حزيران/ يونيو شقّ الطريق الصعبة التي ستربط بين وادي زم وقصبة تادلة. وأنهت الحامية بهذا المعسكر الخارجي إغلاق الخنادق بالأسلاك الحديدية، لتأمين حماية المدينة، وإعادة تهيئة القصبة القديمة، لاتّخاذها قلعة للدفاع وتخزين المؤن.

٢٦ أيار / مايو

في أثناء قيام السنغاليّيْن بهَدْم الأسوار العريضة المحيطة بقصبة تادلة، سقطت قطعة منه على أفراد الفرقة سيّئة الحظّ التي سبق أن تكبّدت خسائر كبيرة في معركة بير مزوي يوم الخامس عشر آذار / مارس الأخير، ويوم الثامن والعشرين من نيسان/ أبريل، في أثناء الهجوم الليلي في الجبل بسيدي علي بو إبراهيم على ثمانية عناصر منها، وجُرح سبعة آخرون.

٢٧ أيار / مايو

وَصَلَتْنا أخبار سارّة اليوم: فقد تمكّنت الحركات التي بُعثَتْ منذ شهر تشرين الأول/ أكتوبر إلى وادي سوس من الانتصار على الهيبة، وطَرْده خارج

تارودانت. وتمّت السيطرة على المدينة كلها يوم الرابع والعشرين من أيار/ مايو بقيادة حلفائنا من كبار "القياد".

وصل الحاجّ التهامي مع أهله من گلاوة إلى وادي سوس عبر فجّ تلوات. ووصل العيادي مع الرحامنة، والطّيّب مع گندافة عبر فجّ الگندافي. واجتمعوا ثلاثتهم تحت قيادة أخ السلطان مولاي الزين الذي التحق بهم بعد ثلاثة أشهر من حصار المدينة، ثمّ انضمّ إليهم كبير "قياد" سوس، ووزير حرب الهيبة في أوج قُوّته، ومؤازره في الخول لمراكش حيدا أوموبس. أمّا زعيم متوگة عبد المالك، فنظّم حركة، اكتسحتْ أمسكرود، ونسّقتْ مع حاحا، للسيطرة على أگادير. فلم يبقَ أمام الهيبة سوى الفرار إلى ما وراء تيزنيت تاركاً أمر سياسة شؤون تارودنت للباشا الجديد حيدة أوموبس.

ما كُنّا لننتصر على الهيبة، لولا المساندة القوية التي لقيْناها من قِبَل "القياد" الكبار الذين لم يبخلوا علينا بالمال والرجال منذ أن وطأتْ أقدامنا مراكش، والدَّعْم الوحيد الذي قدّمناه لهم هو المدفعية تحت إمرة ملازم جزائري. الأمر الذي مكّننا من التّفرّغ لتنظيم حركات نحو شمال الأطلس.

٢٨ أيار/ مايو

ما إن رأت أيت الربع القسم الأكبر من الطابور يغادر قصبة تادلة حتّى تجرّأ المعارضون منهم على التّسلّل للقُرى، وإفراغ مدّخراتها من الحبوب، واستهداف الحُرّاس في ممرّات القصبة، وقصف مركز الشرطة عبر بابها الخشبي الثقيل. أمّا الألغام التي زُرعت حول الأسوار، فلم تُجْدِ نفعاً، إضافة إلى أن الشلوح نجحوا في تفادي الرشّاشات، لأنهم حفظوا المواقع التي نُصبت فيها فوق صوامع الساجد.

طفح الكيل برجالنا، وعِيل صبرهم، فأصبحوا ينتظرون على أحَرّ من الجمر الوقت الذي تدقّ فيه ساعة الانتقام، فخرج في الليلة الماضية عشرون من المارسونيّيْن، ومثلهم من السنغاليّيْن والمغاربة الگوميّيْن، يقودهم ضبّاطهم بإشراف من النقيب فيل Velle بأقدام حافية حوالي منتصف الليل، ودون رصاص مُتسلّلين تحت جنح الظلام على ضفاف الوادي حتّى إذا وصلوا إلى المعبر، الذي ألِف الشلوح أن يدخلوا منه إلى المدينة، سمعوا ضجّة خيول وبغال، يحرسها رجال تحت ستار الظلام لنقل الحبوب التي سينهبها اللصوص، فوجّهت إليهم قذيفة، ففرّوا مذعورين، لا يلوون على شيء، وارتمى كثير منهم في الوادي للعبور إلى الضّفّة الأخرى، وتمّ أسْر كثير منهم.

أقْدَمَ رجالنا على هذه العملية بإتقان، وبدماء باردة، وفي صبيحة اليوم الموالي، سمعْنا أنين منبعثاً من قعْر إحدى المطامر لأحد اللصوص من الشلوح الذي أصابه أحد جنودنا الليلة الماضية في عجزه، فلم يقو على تحمّل الألم، فكشف عن مخبئه، عسانا نُسعفه.

كان من بين الأسرى لصّ ضليع أبيض البشرة، ذو جسم رياضي، جمع بين الرشاقة، وصلابة العود، بعينَيْن زرقاوَيْن بَرّاقتَيْن، فاعترف واثقاً من نفسه: "شاركتُ في عمليات السطو الليلية كله الت ي تعرّض لها معسكركم، وأنا مَنْ تسلّل إلى الخيمة، وأخذ البُندُقيّة قبل ثمانية أيّام، بعد أن قطعتُ لجام الحصان دون أن يفطنَ إليه صاحبه، لكن أحد حُرّاسكم وجّه إليّ طلقة، أخطأتْني، وأردتْهُ قتيلاً ... إني أستطيع تسلّق الأسوار، مهما تكن منيعة، ودخول الأمكنة، مهما تكن حصينة!! أترغبون في أن آتيَكُم بسيف موحى أوسعيد الذي اشتراه ابنه بمائتَي دورو من قاع خيمته دون أن يشعرَ بي إنسٌ ولا جنٌّ؟ أمْهِلُوني يومَيْن فقط، وسيكون بين أيديكم، أم أنكم تودّون استرجاع ذلك الجواد الأدهم الرائع الذي سُرق منكم؟!"

لمّا سمعنا عروض هذا اللص المتمرّس، أمَرْنا الخَفَرَ بأن يضعوه تحت حراسة مشدّدة.

٢٩ أيار/ مايو

تمكّن ذلك اللّصّ من فَكّ قيوده، وسرقة مفتاح "الحقول"، ثمّ مرّ راكضاً كالسهم بين الخيام، واخترق الأسلاك الشائكة المحيطة بالمعسكر، واختفى كالشبح.

٣٠ أيار/ مايو

حان موعد الحصاد. ونزح أيت الربع من الجبال آمنين مطمئنّين إلى حقولهم، فاكتفيْنا بمتابعة حشود الحصّادين من فوق الصوامع. يبدو أننا لم ننجحْ بعد في إخضاعهم، وإذا أمهلْناهم حتّى يحملوا محاصيلهم إلى الجبل، سيسخرون منّا، وسيدّخرون من المؤونة ما يمكنهم من المقاومة لوقت أطول.

أُعطي الضوء الأخضر للملازم دو لا موراليس، ليقوم بطلعات جوّيّة فوق ممتلكات المتمرّدين، ورَمْيها بقنابل، استُقدمَت من فرنسا لحَرْق محاصيلهم. نجحتْ تلك العملية في تدمير معنويات العدوّ، وزَرْع الهَلَع في النفوس، أكثر من نجاحها في إلحاق الخسائر المادّيّة المتوقّعة. وأخبرْنا أيت الربع أننا سنُوقِف تلك الطلعات الجوّيّة، وسنُفسح لهم المجال لجَمْع محاصيلهم متى أبدوا استعدادهم للاستسلام والخضوع.

الفصل التاسع عشر
ضدّ بربر القصيبة

٧ حزيران/ حزيران/ يونيو

عادت الفِرَقُ العسكرية إلى وادي زم بعد أن عبرتْ تادلة الشمالية كلها، وحظيت باستقبال رائع من القبائل. أمّا أيت الربع الذين تمتدّ أراضيهم على طول ضفَّتَي أمّ الربيع، فبقوا مُصرّين على عنادهم واستكبارهم، لأنهم رأس التّمرّد والعصيان، وهم المسؤولون عن الفوضى والاضطراب اللذَيْن عَمّا ربوع تادلة كلها. كيف لا، وهم المَدعومون بالشلوح المرابطين بالأطلس قلعتهم الحصينة للانطلاق لاعتراض سُبُل القوافل، واغتيال المَدَنيّيْن العُزّل؟! بل كانوا يبسطون أيديهم للضواحي المجاورة، فيعيثون فيها فساداً قتلاً وغصباً، ومنذ الرابع والعشرين من أيار/ مايو، لا يكاد يمرّ يوم أو يومان دون الهجوم على القصبة، أو المعسكر الصغير المجاور لها، بل إن ابن موحى أوسعيد كان قاب قوسَيْن أو أدنى من اختطاف رفيقنا الملازم ديلهوم Delhomme.

بلغ الأمر بهذا العجوز العنيد أن جاء المنبهي وزير الحرب الأسبق لمولاي حفيظ شخصياً من طنجة إلى قصبة تادلة، لا لشيء سوى للتفاوض معه، ومحاولة ردّه عن غَيِّه. فاستقبله، أوّل الأمر، بتقدير واحترام يليق بقائد قديم، سبق أن كان تحت إمرته، لكن الجموع سرعان ما انهالتْ على مبعوثنا بعبارات السخط والاستهجان، فرجع من حيث جاء خاوي الوفاض دون أن يفقدَ الأمل في معاودة الكَرّة. لكن ثعلب الأطلس رفض بتعالٍ وعجرفة أيّ

دعوة أخرى للتفاوض. وفطن المنبهي إلى أن موحى أوسعيد قائد الحركة رهين لإملاءات تابعيه.

استمرّت الهجمات على المركز، فأحسّ المنبهي، في خيمته الفارهة، بخيبة الأمل، وهو يرى مساعيه للصلح تتهاوى أمام عينَيْه. وقال بعض أيت الربع من الذين لاذوا بالجبل: "إننا لن نخضعَ لسلطانكم، ولو كلّفَنَا الأمرُ دماءَنا، وأهلينا، وذوينا، وقطعاننا، مادام أسْرَانا عند الشلوح".

ولمّا رأى المنبهي أنه وصل إلى الباب المسدود، أقنع الجنرال ليوطي بأن لا مفرّ من اللجوء إلى خيار القُوّة والحرب لتركيع موحى أو سعيد. لذا أعطي الأمر برجوع الطابور إلى قصبة تادلة على ضفَّتَي أمّ الربيع وبداية الاستعدادات لخَوْض معركة الحسم، فاجتمع الضّبّاط كلهم مع العقيد مانجان، ليُطلعهم على تفاصيل خطّة المواجهة.

حُدِّد يوم غد موعداً للتّوغّل داخل الأطلس، للهجوم على عرين الأسد العجوز في قصبته. لا شيء في الأفق سوى حقول الشعير، يغطّيها الشحوب. فسنابلها الصفراء تُطأطئ رؤوسها كاسفة، يعرّي بعضها بعضاً، لأن المناجل تتربّص بها تحت سماء زرقاء صافية، تلفّ رؤوس الجبال المشرفة من بعيد على القُبَب البيضاء للأضرحة وسط الحدائق الوارفة والوديان المنعشة. أمّا نحن، فلا نرى سوى الزوابع الغبارية تحت الشمس الحارقة.

٨ حزيران/ يونيو

ما إن بدأ النعاس يداعب جفوننا حتّى رنّ المنبّه على الساعة الحادية عشرة ليلاً. هبّ الجميع من فراشه، والطقس مكفهرّ، يُنذِر بشرّ مستطير، وأثارت حوافر الخيول والبغال سحابة من الغبار، زادت من قتامة المشهد. أُعطيت

الإشارة وسط الظلام بانطلاق خمسة آلاف رجل، وأربعة عشر مدفعاً، وثلاثة آلاف من الدّواب، سَوَّتْ بحوافرها سيقانَ القمح والشعير اليابسة بالأرض.

وانقسم الطابور كالعادة إلى ثلاثة أفواج، لتسهيل إدارة الحرب. تقدّم المقدّم مانجان في الطليعة، بينما أخذ العقيد ماتيو موقعه في المؤخّرة، ليتولّى حماية ظَهْر باقي الفِرَق، وتكلَّف القبطان بيتريكس Bétrix مَدعوماً بالمدفعية، ليكون رهن إشارة العقيد مانجان، لتزويد الفِرَق كلها، بما تحتاجه من إمدادات، وثلّة من الخيّالة، لا تفتأ تتحرّك جيئة وذهاباً، تتوثّب لتنفيذ تعليمات القيادة كلها.

كان الطابور جاهزاً للتّصدّي لأيّ هجوم أنّى وحيثما كان، وشرعت الفِرَق تتحرّك بشكل عَرَضي في طوابير صغيرة ومتباعدة. بلغ منّي الإرهاق مبلغه، فالتحفتُ بمعطف أحد السبايسيّيْن، لأغفو حتّى حين، لكن لسعات الحشرات المؤلمة طَردت النوم من عينَيّ .. عاد الطابور للتّحرّك قبيل الفجر، فركبْنا خيولَنا من جديد وسط طقس بارد، عجز عن طَرْد النعاس من جفوننا، وإن ارتعدت فرائصنا.

أشرقت الشمس على بساتين إغرم لعلام الخضراء التي كانت على مَرمى حجر منّا، تتوسّطها أطلال قصبة قديمة. وبعد أن كانت فرقة الخيّالة تصول وتجول وحدها داخل الميدان، سمعنا إطلاق نيران من أعلى الجبل المجاور، فأسرعت السّريّة إلى الاحتماء بالأسوار. إنهم البربر، وحلفاؤهم التدلاويون، يكمنون وراء الصخور، ويتناوبون على قَصْفنا، فأردوا أحد رجالنا قتيلاً، فثارت ثائرة رفاقه المارسونيّيْن، وما إن فتحت المدفعية النارَ فاتحة الطريق أمامهم حتّى تسلّقوا المرتفعات بيسالة وإقدام. وللمدفعية الفضل الأوّل في صَدّ هجمات العدوّ، وإرغامهم على الإيواء لجحورهم، والبحث عن مخابئ وراء الصخور كالجرذان.

طاردْنا البربرَ وحلفاءَهم إلى مشارف ضريح سيدي بن داود وسط حزام من الأشواك الكثيفة عند مدخل الجبل. فتسلّل المشاة إلى العَرَصَات لملاحقة الفارّين، والالتفاف حول الأجراف المطلّة على الممرّ العريض، لكن الخصوم استمرّوا في رَمْينا من فوق بالحجارة الكبيرة مستغلّين عَجْز المدفعية عن اختراق الأشجار الكثيفة، والأعشاب الطويلة، فاختلط أزيز البنادق بعبارات بالشَّتْم والسّبّ.

يا للمفجأة!! فالجبال التي كُنّا نظنّ أنها جافّة، تخفي بين صخورها وأشواكها وصبّارها منابع مياه، تغذّي جداول، تسقي أشجاراً كثيرة. لاحظْنا أن البربر بدؤوا يملّون من زراعة حقول الشعير، وبدؤوا يتطلّعون إلى المحاصيل الجيدة من القمح بنوعَيْه الصلب والطري، كما كانت لديهم على الأطراف أحواضاً كثيرة من البطيخ.

ولمّا لم تستطع المدفعية من عيار ٧٥ مواصلة التّقدّم، أُسندت إليها مهمّة حماية الفرقة التي كانت تحت قيادة العقيد ماتيو من خلف، وتقدّم العقيد مانجان من الزحف معتمداً على السنغاليّيْن، والمدفعيّيْن الجزائريّيْن الذين جُبلوا على اقتحام الأهوال وتحدّي المرتفعات، والتّصدّي للعدوّ مهما كان، مُحمَّلين الأسلحة والعتاد على ظهور البغال.

سرْنا والوادي الذي ينعرج تارة نحو اليمين، وأخرى ذات الشمال دون كلل أو ملل، وفي مجراه استوقفتْنا شجرة خَرُّوب عملاقة. استمرّ تراجع الكثير من الفرسان، لمّا رأت طلائع الطابور فوق الأجراف الحادّة الأسواره العالية، حتّى هتف مرشدونا بأعلى أصواتهم، ومشيرين بأصابعهم:إنها القصيبة!! وجهتنا المُرتقَبة أسفل هذه الصخور. فاجتمع الخيّالة، وسريّة من المساعدين المغاربة مع ألف من فرسان تادلة المناصرين لنا. فتلقّى الجميع الأمر بالتّقدّم أمام الطابور، وزيادة السرعة بصورة تدريجية من قائد

السّريّة بيكار Picard الذي أبلى البلاء الحسن في قيادة الحملة ضدّ الهيبة بسيدي بوعثمان في أيلول/ سبتمبر الأخير، وبرهن عن حنكة عسكرية، وشخصية قيادية، عزّ نظيرهما بالتّقدّم أمام الطابور.

سهّلت أرضية الوادي الرطبة، والمكسوّة بالقمح على الخيول الركضَ وسطها، والقفزَ على قنوات السَّقْي العريضة رغم عُمقها. ذلك كله تحت قصف شديد من من علو أربعين قَدَماً، أُصيب على إثره أحد الخيّالة برصاصة، اخترقت فكّه، فحملْناه لآخر الطابور، كما قُتل جواد الملازم جانرو Jeannerod، فأردفه أحد رجاله خلفه.

واصل الخيّالة تقدّمهم، ولم نرَ أثراً لأيّ قرية أسفل الصخور، إلى أن شاهدَ رفاقُنا التدلاويون أتباعُ "القايد" الجيلالي لبني زمور، وسي عبد القادر، وأخلاط من فقراء ومريدي وخدّام ضريح أبي الجعد دواراً صغيراً على يسار المرتفع، فاكتسحوه، ونهبوه في لمح البصر.

ولمّا أشرف القبطان بيكار على نهاية الجُرْف الطويل على بُعْد مرحلة، تكشّفتْ له قرية القصيبة المُكوَّنة من مساكن مزدحمة قُبالَة الأطلس، تَرفَل وسط البساتين المحاذية للوادي، بسوق تتوسّطه ساحة صغيرة، تضمّ مَبَانٍ طينية قصيرة، لبعض البربر.

استمرّ هطول الرصاص من عَلٍ دون أن يُصاب أحد. تجاوز القبطان القصيبة، واختار أن يتوقّف فوق مرتفع صخريّ مَكسوّ بالأشجار، حيث أخذ الجنود مواقعهم، وشرعوا بدورهم في الرّدّ على طلقات العدوّ التي تُلاحقهم، ثمّ استأنفوا تقدّمهم، ليعبروا في أقلّ من نصف ساعة مرحلَتَيْن.

الساعة تشير إلى العاشرة، والمشاة على بُعْد ستّة كيلومترات!وتمكّن القبطان بجرأته وحزمه من تجاوُز المسافة التي حُدِّدت له قبل الانطلاقة

بأكثر من ثلاثة إلى أربعة كلمترات، غير مكترث بالتحذيرات التي ما فتئ نقباؤه يُوجّهونها إليه.

وظهر العدوّ، أخيراً، بأعداد أقلّ بكثير ممّا رآها جنودنا سابقاً، واستمرّوا في التّقدّم نحونا، بمعاطفهم الزرقاء، وتنبّه أبطالنا إلى مشاة آخرين مقبلين من الشرق، فدوّى الرصاص في الأرجاء كلها، أسفر عن مقتل عدد من الجنود والخيول في صفوفنا. كما نجح البربر في التّسلّل من صخرة إلى أخرى، إلى أن وصلوا إلينا، وتمكّنوا من سرقة جوادَيْن من يَدَي فارسَيْهما، ونفدت المؤونة، وتأخّر وصول المشاة، فندم القبطان بيكار على مجازفته بالتّقدّم، وعدم التّقيّد بالتعليمات التي وُجِّهت إليه، فقرّر التراجع.

ضاعت منّا نصف ساعة، وأُصيب كثير من الرجال، والخيول، وتفكَّك الرجال .. لكن الفرقة التي كلّفها القبطان بيكار استطاعت احتلال المرتفع في الجهة المقابلة للجُرْف، لتأمين تراجعه عبر الوادي عبر الحافّة الشمالية، لتفادي الرماة المتربّصين في المرتفعات. علماً أن الأمر سيُكلّفنا قسماً كبيراً من فرقة خيّالتنا الرائعة، لأن التلال التي تبدو من بعيد مسلوكة ملأى بالصخور، والأشجار، والنباتات الشوكية.

لمّا رأى القبطان أن البربر قد طوّقوا فريق الملازم گوتيل Goutel نادى الخيّالة ثلاث مرّات متواليات بأعلى صوته للتّجمّع "اجتمعوا، لا يمكننا أن نتخلّى عن رفاقنا!". لكن أمر الرجوع أصبح في حكم المستحيل، فالمسالك صعبة، وأعداد العدوّ في تزايد مُستمرّ. كما أُصيب جواد القبطان، فأخذ ملازم يضربه بعرض السيف، ليستحثّه على التّحرّك، وتسلّق ضابطان سُلّماً صخرياً، ، أمّا القبطان الذي كان على يميننا، فقد توارى عن أعيننا خلف الأعشاب الكثيفة والعالية، إلى أن رآه السبايسيون من أعلى التّلّة، يخرّ على وجهه على إثر إصابته برصاصة مميتة في الظَّهْر، فانقضّ عليه

المغاربة بخناجرهم، ومزّقوه شرّ مُمزّق، ولمّا أخذتِ الحَمِيَّةُ الملازمَ راكت برانكاز Ract Brancaz هبّ لنجدته، بمعيّة بعض رجاله، لكنه ما إن قُتل أحد المهاجمين، حتّى أحاطوا به، وقتلوا جواده، ولولا أن أحد العُرفاء حَمَلَهُ فوق جواده، ومَرَقَ به مروق السهم بين صفوف العدوّ، لَعَبَثَتْ به الخناجرُ كسابقه.

منعت المرتفعات الصخرية العتيدة الخيّالة من التّقدّم، فأصبحوا هدفاً سهلاً لبنادق المغاربة المشرفين عليهم من فوق، فتحوّلوا إلى موقع الدفاع، لكنهم خسروا كثيراً من أحصنتهم، فأردف بعضهم بعضاً، وأرغموا على النزول من جديد، إلى قاع الوادي.

إلا أن النقيب ديشامب Deschamps، والماريشال دي لوگيس مورات des Logis Murat استدارا ببسالة وجرأة، وهجما على البربر، كما ترجّل الملازم بوني – مازيمبيرت Bonnet –Mazimbert على فَرَسِهِ، وبقي ثابتاً وراء الصخر، يقاتل بمسدّسه، إلى أن استقرّت رصاصة في صدره، ومات بين الصخور.

استحال صعود المرتفعات بدون الخيّالة. وانتشر البربر فوق حقول القمح! ممّا سهّل على النقيب مازيرات Mazerat، وهو من الرُّماة المَهَرَة، قَتَلَ كثيراً منهم ببُندُقيّته المتطوّرة والسريعة من فوق حصانه رغم أن رديفه يضع يَدَيْه على كتفَيْه، ويجفل عندسماع أيّ رصاصة تجانبه ...

تنفَّسْنا ملء رئاتنا، لمّا ظهر أصدقاؤنا خيّالة تادلة، الذين كانوا مُحتمين بالجدران القصيرة لأحد الدواوير وسط الوادي، وخفّفوا من وطأة هجمات العدوّ، ومكّنوا خيّالتنا من إعادة تنظيم صفوفهم، وإعادة التوازن لتشكيلاتهم، وازداد الأمر انفراجاً بالتحاق المشاة بباقي الفِرَق.

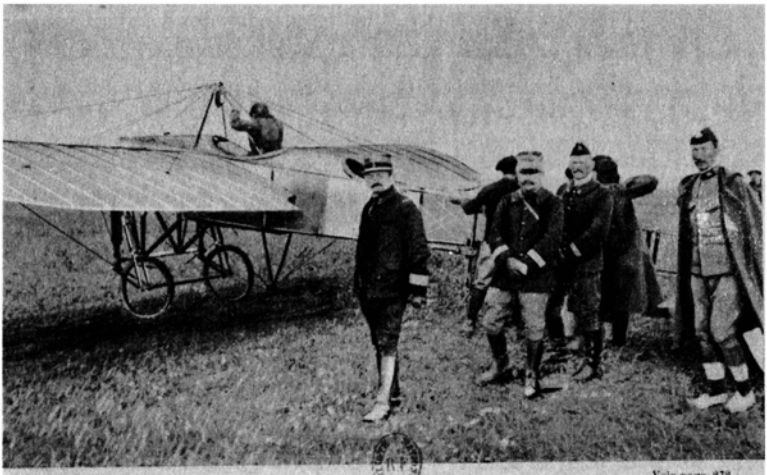

Voir page 272.

LIEUTENANT AVIATEUR DE LA MORLAIS PARTANT EN RECONNAISSANCE

في حدود الحادية عشرة صباحاً، شرع السبايسيون رُفقة المساعدين المغاربة في إحصاء عدد الضحايا، وهم ثلاثون قتيلاً، وخمسة جرحى. وبينما كُنّا نجمع جثث قَتْلانا من ساحة المعركة، بعد انسحاب العدوّ، رأينا أحد "الحدّادين" يُلوِّح بيَدَيْه لمدفعيّتنا فوق قمّة صخرة، وبعد أن استرجع أنفاسه، حكى لنا المسكين كيف نجا بأعجوبة من الموت والأسر بعد أن قُتل فَرَسُهُ، وهوى من أعلى الجُرْف، لكنْ، لحُسن حظّه، سقط على سرير من الأعشاب الكثيفة، وقاه من شدّة الارتطام بالصخور المُسنّنة، ولمّا لم يبقَ بينه وبين البربر إلا خطوات، سقطتْ قذيفة بينهما، فنجا، وولّوا هاربين، فخرج من مخبئه، وبدأ في تسلّق الصخور حتّى رأيناه.

أعاد العدوّ الهجوم على الطابور الذي كان منشغلاً بجَمْع جثث الخيّالة. وأخبرَنا مرشدونا أن قصبة موحى أوسعيد توجد شرق القصيبة، فأمر العقيد مانجان بمواصلة الزحف في ساحة ملأى بالجثث والخراطيش، ثمّ ظهرت فجأة فوق أحد المرتفعات الأسوار العالية لحصن موحى أو سعيد. لم تتأخّر المدفعية في تصويب فُوَّهات المدافع جهة جدران القلعة، فأحدثت بها عدّة ثغرات، كما أسقطت عشرين بربرياً فاتحةً الطريق للمشاة للانتشار في العَرَصَات.

بعد أن حقّق الطابور هدفه، تراجع حوالي الساعة الرابعة بعد الزوال، وتمّ تأجيل تدمير قرية القصيبة، إلى أن يلتحق بالفرقة الموجودة بسيدي بن داود قبل حلول الليل. تجاوزْنا القصيبة أمام عيون عدد هائل من الأعداء، وهم يمشون فوق سنابل القمح بسراويلهم الحمراء دون أن يجرؤوا على الاقتراب من مؤخّرة الطابور، وعلمْنا أنهم سيختفون قريباً في هذه السهول الممتدّة.

كلّفتْنا هذه المواجهة ثلاثة قَتْلى من المشاة، وعشرين جريحاً. لحقْنا فِرقة العقيد ماتيو والشمس تأفلُ في مغربها، وأقمْنا المعسكر فوق الهضبة المُطلّة على تادلة.

الفصل العشرون
الحرب الثانية للقصيبة

مكتبة
t.me/soramnqraa

٩ حزيران/ يونيو

ما كُنّا لنغادر المنطقة دون تأديب القصيبة التي كانت تأوي المغيرين على خيّالتنا. لذا جمع العقيد مانجان ضبّاطه، وذكّرهم بشجاعة خيّالتنا وقوّادهم، ودعاهم "للصلاة من أجلهم" قبل التّوجّه للأطلس، للانتقام لهم، واسترجاع رفات القبطان بيكار. وعقدوا العزم على قصف القصيبة، ثمّ حَرْق مَنْ فيها، قبل الرحيل إلى قصبة تادلة، حيث ستكون نهاية هذه "الرحلة"/المغامرة.

تقرّر أن نخلد اليوم للراحة، وإرسال الجرحى والقَتْلى مع حَرَس القافلة إلى قصبة تادلة التي يتطلّب الوصول إليها خمس ساعات مشياً، ثمّ يعود المرافقون في اليوم نفسه لأَخْذ الترتيبات كلها للقيام بالعملية المرتقَبة غداً ..

لم يكن اختيار مكان إقامة المعسكر مُوفّقاً بالقرب من الضّفّة الجبلية، إذ كُنّا في مَرمى الأعداء الذين سهُل عليهم رَمْينا من فوق المرتفعات، كما كلّفَنا جَلْبُ الماء الكثير من الوقت والجهد. كانت المدفعية الموجودة وسط المعسكر وحدها القادرة على إخراجنا من هذه الورطة، لكن الشلوح أبدوا مقاومة كبيرة، لمّا كانوا ينبطحون أرضاً، كلّما صوّبت لهم قذيفة، ثمّ لا يلبثون أن يطلّوا برؤوسهم كالعفاريت وسط الدخان طيلة النهار. ثمّ أُعطي الأمر لحاملي الرشّاشات بمَنْعهم من النزول للنزوح للسفح، بينما توجّه المشاة إلى القصبات المجاورة لإخراج المتسلّلين إليها عبر

الشِّعَاب. أُصيب خلال هذه المناورة عدّة رجال، في مقدّمتهم القبطان الذي اخترقت ساقُهُ رصاصة، وسنغالي فجّرت رأسَهُ قذيفةٌ بمركز الشرطة.

عند الأصيل، عادت الفرقة المبعوثة إلى قصبة تادلة، وتمّ اعتقال بربري تحت جنح الظلام في إحدى الخرجات للقصبات المجاورة، ولم نظفرْ منه ببعض الإفادات الهامّة إلا بصعوبة بالغة من قبيل طلب موحى أو سعيد السَّنَد والعون من جاره الزَّيَّاني المهزوم يوم السادس والعشرين من آذار / مارس، ومن علي أمهاوش المحارب الشرس بالأطلس الكبير.

كما كان متوقّعاً، فقد تعرّض معسكرنا لهجمات متوالية، وقُصفت إحدى واجهات المعسكر، وتمكّنت إحدى فِرَق العدوّ من اختراق الخنادق، وعلمْنا أن أعدادهم ناهزتْ عشرة آلاف بربري، أضاءت نيرانهم أعالي الجبل، يترقّبون نزول ستار الظلام، للهجوم بخناجرهم المتعطّشة للدماء. فأُعطي الأمر عند الغروب بهَدْم الخيام المستهدَفة، وإطفاء الأنوار، وتكثيف الحراسة حول الخنادق، وجعل جنود الاحتياط في حالة استنفار مُستمرّة.

١٠ حزيران/ يونيو

بمرور الوقت، تبدّدتْ مخاوفنا، لأن العدوّ اكتفى بقَصْف واجهَتَيْن، ردَّتَا عليه بقُوّة. تُرى هل هَالَهُ ذلك الرّدّ السريع والحازم، فأحجم عن معاودة الكَرّة؟أم أن توقّعاتنا لم تكن في محلّها؟ لقد عاد الهدوء لأطراف المعسكر كله ..

لمّا كُنّا نسير في الوادي المسدود، رأينا مجموعات هامّة من الأعداء، في واجهة الأطلس، تسير مثلنا في اتّجاه القصيبة، لا شكّ أنها تُنفّذ إملاءات موحى أو سعيد الذي دعاها للتّجمّع.

توقّفْنا في الساعة الثامنة، لنُحيّي بإكبار واحترام شجاعة الملازم الطّيّار دو لامورالیس الذي سبقَنا إلى القصيبة، للتّعرّف عن أحوالها وتمشيط المسالك تحسّباً لأيّ مفاجأة. كما عبّرْنا له عن إعجابنا بمهنيّته، وتحكّمه في الطيران، إذ تمكّن من إنزال الطائرة بسلام رغم إصابتها بعطل ميكانيكي! وتابعْنا باعتزاز وفخر ذلك النَّسْر وهو يبتعد في الأجواء، ولمّا حلّق في عُلو قريب من الأجراف، وجّه إليه البربر سيلاً من الرصاص، لكنه سرعان ما علا، واختفى.

لمّا طال غيابه، أخذْنا نُقلّب وجوهَنا في السماء خوفاً عليه من أن يكون قدأصابه مكروه، وإن قيل لنا إنه سيعود لقصبة تادلة عبر مسار آخر، ثمّ تهلّلتْ وجوهنا، لمّا لمحْنا نقطة سوداء، تغمز الطابور وراء سُحُب شفّافة وسط سماء زرقاء صافية، ثمّ عمّت الفرحة أكثر، لمّا ظهر الجناحان الأصفران للطائرة، وسُمع هدير محرّكها وهو يصمّ الآذان.

وقف الطابور بموازاة مع الجُرُف الذي يتحرّك فيه البربر ببنادقهم. وإذا ما حاولنا التّحرّك، فسنكون هدفاً سهلاً لقنّاصتهم. تساءلْنا عن إمكانية وجود ممرّ، نتسلّق منه، يقودنا إلى القصيبة، ولمّا حاولنا الاستعانة بأسيرنا الذي ضبطناه أمس، ادّعى أنه لم يسبقْ له أن زارها، بل تجرّأ وقال إنه لم يأتِ قطّ إلى الجبل، وإن كانت يداه مخضّبَتَيْن بالبارود عندما أسَرْناه.

لم تُفلح معه لا أساليب الوعد ولا الوعيد. ثمّ تحوّلْنا إلى عبد الله بن جابر، عساه يكون له علْم بالمنطقة، لكنه أجاب معتذراً بأنْ لا علاقة له بجغرافية المنطقة، ولا بناسها، فنادى بدوره على أحد رجاله، تربطه بالبربر علاقات تجارية، فأخبرَنا عن وجود ممرّ سالك هناك في الأعلى. لكن مرشدَنا الرئيس أكّد أن جمالَنا ومدافعَنا لن تتمكّن قطعاً من الوصول إلى هناك، فردّ عليه التاجر بأن القوافل كانت تقطع الممرّ باستمرار، فحسم

العقيد مانجان الجدال، وأعطى أمره بصعود الهضبة، وتلاقانا المدافعون المنتشرون فوق الجُرْف بالرصاص، فانعطفْنا جهة اليمين، بتغطية من نيران المدفعية. وأجهدْنا أنفسنا في التّسلّق، والمشاة يحمون ظهورنا.

وفجأة، تراجع العدوّ إلى القرية عبر جنبات حقول القمح اليانعة، وبقي، على يميننا، رهطٌ من البربر مختبئين بين الصخور، يوجّهون إلينا ضرباتهم من فوق الأجراف العالية.

لمّا تجمّعتْ فِرَقُنا كلها، استأنفت السَّيْر فوق الهضبة الطويلة التي سننزل بعد مرحلة. لاحتْ أسقف القصيبة بين الصخور، وأشجار الحور Peupliers، واللّوز، والجوز، والمشمش، والتّفّاح، والإجاص، والبرقوق، والزيتون، والتوت، والكرم "التين".

استمرّ المشاة في ملاحقة العدوّ وسط الضيعات والبساتين الموجودة في الهضبة، بينما إخوانهم المعتصمون بالقرية والجبل، لا يتوقّفون عن قَصْفنا دون هوادة. فتعبّأ السبايسيون، والخيّالة المغاربة، للإشراف على تجهيز المدافع الثمانية لقَصْف القصيبة. وما إن انطلقت القذائف حتّى نُسفت الدُّور، وتهدَّمت الجدران، وسقطت الشرفات، وتردّد صدى القذائف الغاضبة بين فجاج الأطلس. وزاد من هول المشهد أعمدة الدخان المتصاعد من المساكن، والبساتين .. لم يسلَم من هذا الجحيم لا بشر، ولا حجر، ولا شجر ...

فرّ المدافعون المرعوبون إلى الجبل عبر الشِّعَاب تاركين القصيبة الوديعة بين أيدي الجزائريّيْن، والگوميّيْن، والسنغاليّيْن الذين واصلوا تقدّمهم إلى المرتفع، حيث قضى القبطان بيكار تاركاً لجنودنا درساً في البطولة والتضحية .. ثمّ وصل السبايسيون إلى الوادي، يتبعهم

ألف من خيّالة القبائل الموالية لنا، ثمّ توزّعوا في أرجاء المدينة كلها، وأشعلوا فيها النيران.

نزلتُ إلى القصيبة مع المقدّم سيمون وطبيب رئيس، عَلَّنا نجد مَنْ يدلّنا على رفات القبطان بيكار، لأن أسيرنا قرّر أخيراً أن يبوح لنا بأنه دُفن في ساحة السوق. سرْنا في ممرّ بين الصخور، وحوالينا بساتين عالية من العوسج، والعنب، والعشب الأخضر.

وجدْنا جثّة القبطان في الساحة الصغيرة، وتكلّف طبيب الإسعاف بنَقْلها. ولمّا استمرّ دَوِيّ الرصاص يلاحقنا حيثما سرْنا، قرّرْنا العودة في طريق، تلفح فيها وجوهَنا حرارةُ النيران التي أتتْ على الحواجز الشوكية، وتخنقنا أدخنتها المتصاعدة.

أمّا التدلاويون، فاقتحموا المنازل، ونهبوها، وملؤوا الأكياس بكل ما تقع عليه أيديهم من المؤونة. ثمّ سمعْنا تحذيراتهم: "غَادِرُوا القرية! غَادِرُوا القرية! البربرُ وراءنا!!"، لكن فرقة من المارسونيّيْن لم تعبأ بهذا التحذير، واستمرّت تشرب من إحدى العيون، وتملأ أوانيها، إلى أن استفحل الخطر، وأصدر العقيد أمرَهُ عند الزوال بالعودة قائلاً: "حقّقنا الهدف، وانتقمْنا لخيّالتنا، وعثرْنا على جثّة القبطان بيكار، ودمّرْنا القصيبة. وما بقي على طابورنا سوى العودة إلى قصبة تادلة عبر وادي فم تاسقوت/تاسكوت. وسنترك أمر احتلال القرية وضواحيها لفِرَق العقيد "ماتيو".

مرّ كل شيء على أحسن ما يرام، وبقي العدوّ مُحاصَراً في الوادي بين الحَرَس الخلفي، والقصف العنيف للمدافع. لكن الملازم فارينجيان Variengien الذي كان في المقدّمة مع مدفعيّيْه الجزائريّيْن أُصيب في بطنه، وضحّى رجاله من الگوميّيْن المغاربة بأنفسهم لإنقاذه، وأُصيب

العديد منهم وهم يحملونه. وفي الساعة الثانية، وصلت القافلة مع فرقة عسكرية إلى فم تاسقوت/تاسكوت المؤدّي إلى هضبة أمّ الربيع. وأخذت فِرَق العقيد ماتيو موقعَها عند مدخل المعسكر Le défilé، ثمّ أمر العقيد مانجان المدفعيةَ بمغادرة الساحة بعد شَحْن القذائف. لتَقصف على بُعْد ثلاثة آلاف الهضبة التي كان البربر يضغطون فيها على باقي الفِرَق.

لم تتمّ السيطرة على الهضبة بسهولة، فقد تسلّل البربر مُسلّحين بخناجرهم لمباغتة مؤخّرة الطابور، ولم ينجُ الرجال إلا بصعوبة، ولم نخاطرْ برَمْيهم مخافة أن يسقط الكثير من رجالنا، كما بُترت يد أحد رجالنا في هذه المواجهة الدموية.

وبدا، في الأخير، شريطٌ من محاربينا المنتشرين وسط سنابل القمح، وهم ينزلون جماعات من مرتفعات الأطلس، وتولّت الرشّاشات المختبئة وراء الصخور والمدافع، والجريئون من المشاة تفريقَ ما تبقّى من فلول العدوّ.

وحوالي الساعة الثانية وثلاثين دقيقة، بدا العدوّ المُثخَن بالجروح الجسدية والنّفْسية متراجعاً، لأن ميزان القوى مالَ لصالحنا، فأنّى للسواعد والخناجر أن تصمدَ في وجه المدافع والرشّاشات؟!

تولّى المساعدون المغاربة الرّدّ على القصف العنيف الموجّه ضدّ الطابور من أعلى المرتفعات على يسارنا، وأدّى إلى إصابات بليغة في صفوف الرجال والدواب. كان البربر يتوقّعون أن نسلكَ الطريق المحادية للوادي، حيث كانوا ينصبون لنا كميناً، لكنْ، خاب مسعاهم عندما فطنّا لخطّتهم، وغيّرْنا اتّجاهنا جهة اليمين، فجُنّ جنونهم، فبدؤوا يقصفوننا من بعيد دون أن تُشكِّل هجماتهم على الفِرَق أدنى خطر، وواصلتْ تقدّمها وسط غابة كثيفة، وأدغال مُوحِشة، أُلقيَت داخلها أكياس فارغة للمُتسوّقين.

عَبَثاً حاول الرجالُ تثبيتَ أكياس المؤن ولوازم المدفعية على ظهور البغال، إلا أنها كانت تُلامِس أغصانَ الأشجار الكثيفة، فتسقط، فأُعطيت الأوامرُ للسنغاليّيْن بحملها على رؤوسهم، فكان يشترك رجلان في حَمْل كيس ثقيل، وتسلُّق هضاب، قد يصل ارتفاع بعضها إلى خمسين متراً. وحتّى يُخفّفوا من وطأة الأثقال التي لا تُطاق، تخلّصوا من معدّات تقطيع اللحم.

واصلْنا الطريق بهدوء، وتجاذبْنا أطراف الحديث حول أحداث هذا اليوم العصيب. وبينما كانت المؤشّرات كلها تشير إلى انتهاء الحرب، سمعْنا فجأة جلبة خلف الطابور، فقيل لنا إن قطيعاً هرب واختفى داخل الغابة، ولمّا حاولنا اللحاق به، باغتَنَا الشلوح بين الأدغال الكثيفة والصخور المدبّبة بأجسام نحيلة نصف عُراة، ببشرة بيضاء، وعيون زرقاء، وسراويل حمراء، فالتحمت معهم فرقة الزواف والسينغاليّيْن تارة بتبادُل الرصاص، وتارة أخرى بالالتحام البَدَني، والطَّعْن بالخناجر، والضَّرْب بأعقاب البنادق. لكن الجبليّيْن كانوا مميّزين بدقّة التصويب بالحجارة التي أوجعت الزواف والسود.

ولمّا حاولت الوحدات الأخرى دَعْم رفاقهم بالبنادق، وقع ارتباك، فَقَدَ على إثره النقيب فومي توازنَهُ، وسقط بين صخرَتَيْن، فانقضّ عليه ستّة شلوح، فضربه أحدهم على رأسه بسكّين، وجده في إحدى أكياس الجزارة المَرمية. لكن الضابط القوي أشهرَ مسدّسه، وقَتَلَ ثلاثة منهم، وجرّد الرجلَ الذي ضربَهُ بالسّكّين، ثمّ طعنَهُ به. ولمّا جاء العقيد ماتيو قائد القسم الخلفي من الطابور لنجدة الفِرَق المحاربة، فرّ المهاجمون، وبدأت المطاردة الطويلة والقاسية، أنهاها العقيد مانجان بأمر المدفعية بالتّوقّف فوق أقرب مرتفع.

فَتَرَ حماس البربر أمام ذلك السَّيْل من قذائف المدافع وطلقات الرشّاشات المتطوّرة. لحقت مؤخّرة الطابور بباقي الفِرَق فوق المرتفع.

وصل المقدّم فومي والدماء تغطّي ملامحه وعينَيْه متبوعاً بأحد المغاربة، يجرّ جواده، ولم يكن النقيب Paris أحسن منه حالاً، فقد تلطّخ وجهه بالدماء، لكثرة ما حمل من الجرحى السينغاليّيْن، وكان الأطبّاء يتحرّكون في حالة استنفار قصوى لإسعاف المصابين في سباق محموم مع الموت الذي كان يتخطّفهم الواحد تلو الآخر، وفي طليعتهم الملازم الثاني Gilles.

لم يجرؤ البربر على تخطّي حاجز الموت الذي أنشأتْهُ نيراننا، فحاولوا مَنْعَنَا من التّقدّم بالتّسلّق من عمق شعبة، لكن المدفعية كانت لهم بالمرصاد، فشتّتهم في جنبات الوادي. فهل سيُغيّرون اهتمامهم إلى القافلة التي لم يصلْها خبر هذه التّطوّرات كلها، لصعوبة التواصل معهم في هذه التضاريس الوَعِرَة؟

بحلول الساعة الثالثة والنصف، رجعت الأمور كلها لنصابها، وانتهى الارتباك الذي فجّر هذه الوقائع كلها لمُدّة ثلاثين دقيقة. أعطى العقيدُ مانجان أوامرَه بالإسراع، لتدارُك القافلة خوفاً من أن يلحقها أيّ مكروه على يد أولئك الثعابين المُتسلّلين بين الصخور والشِّعَاب!!.

وفي حدود الساعة الرابعة وثلاثين دقيقة، توقّفت التهديدات كلها التي كانت تستهدف الحَرَس الخلفي، وشعرْنا بالهدوء والأمن ونحن نسير فوق السهل المُمتدّ .. يبدو أن صفحة الحرب قد طُويت، فَبَنَيْنَا المعسكر عند قَدَم الأطلس قريباً من ضفّتَي ساقية فم تاكسوت، لنحصي خسائر هذا اليوم المأساوي، فقد كانت الحصيلة ثقيلة، فعدد القتلى ناهز الخمسين، وعدد الجرحى يربو على تسعة عشر ومائة. وممّا لا شكّ فيه أن خسائر العدوّ ستكون أضعاف هذه الأرقام، يكفي أن نعلم أن رجالنا أطلقوا مائة وخمسين ألف رصاصة، ومدفعيونا أرسلوا ثلاث عشرة قذيفة دون أن ننسى رماة السهام الذين أبلوا البلاء الحسن.

١١ حزيران/ يونيو

استسلمتْ الفِرَق كلها، في هذه الليلة، لنوم هادئ وعميق. ولم يحدث ما يُعكّر هذا النعيم، إلى أن أيقظتْهم إشراقة الصباح. لم يبقَ هناك أيّ أثر للبربر، لا في السهل، ولا في الجبل. انطلقت مسيرة الألف من الخيّالة مَدعومة بستمائة محارب من بني عمير الذين فاتتْهم المشاركة في المواجهة - لوصولهم أمس المتأخّر- واستطلاع أحوال الجبل، فقرّروا الرجوع عند الزوال دون أن يعترضَ طريقَهم الشلوح الذين تواروا عن الأنظار بعدما لاقوا ما يسوؤهم من التقتيل والفتك جسدياً، ثمّ الهلع والذعر نَفْسياً. وأخبرَنا أحد الجواسيس بأن الشلوح بدورهم قرّروا التّوقّف عن ملاحقتنا.

حقّقْنا ما كُنّا نصبو إليه: فقصبة موحى أوسعيد قد أُحرقت، والقصيبة دُمِّرت، والشلوح مع زعيمهم ترجّلوا عن تعاليهم وعجرفتهم. واحتفل حلفاؤنا التادلاويون بانتصارنا على بربر الجبل أشرس منافسيهم على المراعي والحقول عند سفح الجبل.

لم تعد تفصلنا عن قصبة تادلة سوى أربع مراحل، لذا انطلقنا إليها بعد الزوال في طقس شديد الحرارة، يُنذر بعاصفة رعدية، وكنّا نسير فوق حقول القمح الشاسعة التي كان يستغلّها الجبليون، ثمّ حصل ما لم يكن في الحسبان: فقد رمى أحد المدخّنين اللامبالين عقب سيجارته في حقل، فاندلعت نيران مهولة، أتت على المحاصيل اليابسة، زادت من تأججها الرياحُ القوية، فخفْنا على كل مَنْ في الطابور. لكنْ، لحُسن الحظّ، تغيّر اتّجاه هبوب الريح، ودفعت ألسنةَ النيران بعيداً جهة اليسار معطيةً الطابور فرصة، ليستدير ناحية اليمين لتجنّب الخطر المحدق. ومكّنَتْنا ساقية من إسعاف المصابين وإرواء الظمأى.

واشتدّ غضب الرجال، وانهالوا على المتسبّبين في اندلاع الحريق بسَيْل من الشتائم واللعنات، بل عزموا على قَتْلهم، لأنهم لم يفكّروا في تبعات وعاقبة الحماقة التي أقدموا عليها.

انطفأت جذوة الغضب، وعاد الرجال لرشدهم، وتحوّلت الرياح الحارّة إلى رطبة، مهّدت لعاصفة رعدية مُدوّية مصحوبة بزخّات مطرية قوية، أرغمت الطابور على التّوقّف، وإدارة ظَهْره للرياح العاتية. ولمّا هدأت العاصفة، سرْنا في طريق مُوحلة، أخّرت وصولنا إلى قصبة تادلة، إلى أن أرخى الليل سدوله.

١٢ حزيران/ يونيو

أدّيْنا المراسيم الأخيرة لتوديع أمواتنا، على رأسهم زميلنا Variengien في الوقت الذي تماثل فيه معظم الجرحى للشفاء، ثمّ وجّهناهم بعد ذلك إلى المشفى الرئيس بالدار البيضاء. إنها ضريبة الاحتلال، وثمن بسط النفوذ!!

لا يمكن أن يستسلم الناس هنا دون حرب، فدِيْنهم الذي يدعوهم للجهاد والمقاومة هو نفسه الذي يُوجّههم لعدم الدخول في معركة خاسرة ضدّ خصم يفوقكَ عدّة وعتاداً. وتعلّمْنا كذلك أن إخضاع أيّ قبيلة من القبائل لا يتمّ إلا عبر السيطرة على أراضيها.

احتُلّت تادلة رغم المقاومة المستميتة لأهلها، واعترف الشلوح أن الدفاع عن القصيبة كلّفهم سبعمائة قتيل، وعدّة آلاف من الجرحى، تماماً كما رجعت قبائل أيت عطا إلى تافيلالت تجرّ أذيال الخيبة بعد أن عبرت الأطلس الكبير والمتوسّط لمحاربتنا، لكنها عمّا قريب ستصبح حليفتنا.

٣٠ حزيران/ يونيو

اقتنع البربر أن لا جدوى من إعادة الحراك والمناورة، فاستسلموا، وكفّوا رصاصهم عن مركز القصيبة، بل إنهم مَنعوا لصوصهم العتاة من النزوح للسهول، لاستئناف عمليات السطو خوفاً من عودتنا مرّة أخرى لمعاقلهم بالأطلس. يبدو أنهم فهموا الدرس الذي لقّناهم. عمّ الهدوء، وتمّ الشروع في تفكيك طابور تادلة تدريجياً. شهدت الشهور الثلاث عشرة معارك طاحنة، وخلّفت ذكريات بطولية، وخيبات أمل، وحزناً على فراق الأصدقاء، ومواقف إنسانية نبيلة، وأخرى مخزية ...

الانطباط، والاحترام، والتخطيط الجيّد هي الأسلحة الحقيقية التي مكّنَتْنا من تحقيق النصر، وإخضاع هذه الربوع العنيدة.

ومن تلك الذكريات المجيدة ما وقع يوم السادس والعشرين من آذار / مارس في بطمة عيساوة، لمّا نجحْنا في تضليل السماعلة بالمرور على غفلة منهم إلى المعسكر الذي اجتمعت فيه قبائل زَيَّان كلها، للتشاور والتخطيط للهجوم علينا، فسبقناهم إلى ذلك، وفاجأناهم في معاقلهم.

أمّا في يوم السابع من نيسان/ أبريل، فلم تسر الأمور وفق ما كُنّا نأمل، لأن العدوّ طاردَنا إلى قَدَم الأطلس، وكُنّا في موقف دفاع، لا هجوم، وعجزت فِرَقُنا عن صَدّ ذلك السَّيْل العارم من البربر.

وفي اليوم الحادي عشر من نيسان/ أبريل، انفصلت الفرقة الخفيفة عن باقي الفِرَق، وهاجمت العدوّ المتحصّن بقصبة بني ملال. وفي يوم الثاني عشر من نيسان/ أبريل، نجح الطابور في استدراج بني عمير للنزول من الجبل إلى ضفاف أمّ الربيع، وأغراهم بالهجوم على المعسكر حتّى إذا اقتربوا منه، باغتهم بهجوم مضادّ. وفي يوم السابع عشر من نيسان/

أبريل، انعطفت طليعة الطابور جهة اليسار صوب سيدي صالح، وطردت فِرَق العدوّ في أعماق الوادي، لتُفسح المجال للطابور، كي يمرّ بسلام عبر المعبر المجاور.

لكنْ، في يوم السادس والعشرين من الشهر نفسه، تجرّأ العدوّ على النيل من الفرقة الموجودة خلف الطابور، ومحاصرتها بعين الزرقة. لكننا رددْناه بهجوم كاسح، انقسم على إثره إلى مجموعَتَيْن، اتّجهت المجموعة الأولى المُكوّنة من أيت الربع نحو بني ملال شرقاً، في حين لم نكتف بملاحقة المجموعة الثانية المُكوّنة من البربر إلى سيدي علي بو إبراهيم في الجنوب الغربي، وإنما تعقّبناهم حتّى ابتلعهم الأطلس.

ولكي نفرض كامل سيطرتنا على القسم الأكبر من الحركة المُعسكِرة بالسهل، لم نقتصر يوم السابع والعشرين من نيسان/ أبريل على احتلال قرية سيدي علي بو إبراهيم، وإنما اكتسحْنا المرتفعات المطلّة عليها، بتنظيم هجوم ليلي مباغت، أزاح العدوّ عن مواقعه. لكنه سرعان ما استرجعها في اليوم الموالي "الثامن والعشرين"، واستمرّ في الاحتفاظ بها إلى يوم التاسع والعشرين، فلجأ العقيد مانجان إلى تكتيك التمويه والتضليل، لمّا تظاهر بالفرار والتراجع، فتعقّبه الأعداء منتشين بلذّة الفوز، لكنه استدار فجأة، وداهمَهم بهجوم شرس، كبّدهم خسائر فادحة، ثمّ نزلت فِرَق الطابور بعد ذلك إلى السفح، لتنعمَ بليلة هادئة.

وقف الجبل سدّاً منيعاً أمام المدفعية والقافلة المتّجهَتَيْن يوم الثامن من حزيران/ يونيو إلى القصيبة، بينما تابع طابور صغير مُكوّن من "قِطَع" جبلية وخيّالة وقسم من المشاة التّقدّم نحوها. جازف قسم من الخيّالة بالهجوم وحده في الطليعة، وبقي القسم الآخر يراقب في الخلف. وركّزت باقي الفِرَق على استهداف قصبة موحى أو سعيد.

في يوم التاسع من حزيران/ يونيو، نزل الجبليون مُتسلّلين، وشنّوا هجوماً على المعسكر الذي كان ينتظر عودة القافلة المبعوثة إلى قصبة تادلة بسيدي بن داود. وفي اليوم الموالي، تمركز الخصوم فوق جُرْف يراقبون الوادي الذي عبره الطابور أمس، ظنّاً منهم أنه سيعود منه، لكنه كان قد غيّر مساره عبر الطريق الصاعدة فوق الهضبة، ولمّا أعياهم الانتظار، تركوا مواقعهم. وتصدّيْنا لنزوح جَمّ غفير من سُكّان الأطلس لتخليص القرية من الحصار، في حين واصلت بقية الفِرَق تدمير القصيبة، تاركة مهمّة حماية ظَهْرها للوحدات المتمركزة في الوادي، تتوثّب الدخول إلى فم تاكسوت.

اندحر الأعداء أمام الهجومات المضادّة بالرماح، كما نجح الحَرَس الخلفي المتراجع مع المدفعية في طَرْد المتربّصين بالحَرَس الأمامي في ساحة صخرية مَكسوّة بالأشجار.

إن شجاعة القيادة وصرامتها هما اللتان تقفان وراء سَحْق المنافس، ودفع الفيالق كلها لتحقيق النصر، وفرض السلام.

فهرس المحتويات

استهلال ٥
مقدّمة ١١
مقدّمة المترجم ١٧
مقدّمة الجنرال مانجان..... ٢١
مقدّمة المؤلّف..... ٢٧
الفصل الأوّل: في الطريق نحو طابور الجنوب..... ٢٩
الفصل الثاني: التّحرّك نحو مراكش..... ٥٣
الفصل الثالث: الإقامة بمراكش ٧١
الفصل الرابع: من مراكش إلى موگادور ٩٣
الفصل الخامس: العودة إلى مراكش عبر الأطلس..... ١١٣
الفصل السادس: عند مسيوة..... ١٢٧
الفصل السابع: في اتّجاه دمنات والقلعة ١٣٧
الفصل الثامن: مراكش ١٥٩
الفصل التاسع: في بلاد تادلة ١٧٧
الفصل العاشر: في مواجهة الزياني..... ١٨٣
الفصل الحادي: عند السماعلة ١٩١
الفصل الثاني عشر: معركة قصبة تادلة..... ١٩٩
الفصل الثالث عشر: ببني ملال..... ٢٠٩
الفصل الرابع عشر: التقاء الفِرَق بمراكش..... ٢١٧

الفصل الخامس عشر: المعارك الثلاث لسيدي علي..... ٢٢٣
الفصل السادس عشر معسكر قصبة تادلة ٢٣٣
الفصل السابع عشر في أبي الجعد وعند بني عمير ٢٤٣
الفصل الثامن عشر في انتظار خضوع أيت الربع ٢٤٩
الفصل التاسع عشر ضدّ بربر القصيبة..... ٢٥٣
الفصل العشرون الحرب الثانية للقصيبة..... ٢٦٣

مكتبة
t.me/soramnqraa

من الرحلة:

... «عاد العقيد مانجان من مشرع بن عبو زوالاً بعد أن أقنع الجنرال ليوطي بعدم التّحرّك نحو مراكش صيانة لأرواح مواطنينا المسجونين، بينما استمرّ الوسطاء في محاولة التّوصّل إلى اتّفاق، يقضي بإطلاق سراح السجناء مقابل مبلغ مالي. ولمزيد من الضغط على الهيبة، تلقّت الحاميات الأمر باحتلال آسفي وموگادور.» ...

... «اتّهم المسلمون المخلصون رجالَ الهيبة بالإفساد في المدينة، فهم بدل أن يقاتلوا أعداء الدِّيْن، انهمكوا في اللهو، والمجون، والسُّكْر، وإكراه النساء على التّزوّج بهم، والإتيان بهنّ للقصر، لإرضاء نزوات رجال السلطان دون احترام قُدسية شهر رمضان.» ...

... «بدت مراكش «خربة»، وشوارعها الضّيّقة خالية، تنوء بالأوساخ والقاذورات المغطّاة بأسراب الذباب، وتنبعث منها روائح كريهة، تزكم الأنفاس، أمّا أبواب المنازل والمحلات التجارية، فمُوصَدة، تبدو المدينة ميتة، لا تسكنها سوى الأشباح، أمّا السّكّان، فقد لاذوا بمنازلهم الترابية مذعورين» ...

منشورات المتوسط

شارل جوزف الكسندر كورني، الملقب بالنقيب كورني Charles Joseph Alexandre Cornet (١٨٧٩.١٩١٤) ضابط فرنسي ومؤلف عدد من الكتب التي وضعها خلال خدمته العسكرية في إفريقيا، والتي انتهت بمصرعه في العشرين من آب/أوغست سنة ١٩١٤ بقذيفة مدفع ألمانية على جبهة بورلايانكور Burlioncourt. أثناء الحرب العالمية الأولى. اشتهر بكتابه «إلى تشاد» ١٩١٠ خلال مشاركته في الحرب الفرنسية في تشاد، طبع عدة مرات وحاز بفضله على جائزة مونتيون (Montyon) التي تمنحها الأكاديمية الفرنسية. وله كتاب آخر تحت عنوان «ملاحظات حول ساحل العاج»، ١٩٠٤.

في يومياته هذه، يراقب النقيب كورني رحى المعارك، دون أن يخفي إعجابه ببعض زعماء المقاومة، وبجمال المغرب، فنقل بّورتريهات رائعة عن هؤلاء الزعماء، ووقف وصفه عند لوحات شاعرية لمناظر البلاد: (حقول، حدائق وبساتين قصور، قصبات، أودية ووديان...)، مما أكسب نصّه حيوية أبعدته عن التقرير العسكري الجاف، فتسلّل ماء الأدبية غَدِقا إلى الكثير من مقاطع النص، فجاءت نديّة تضِج ببهاء الأمكنة ورونقها.

وبقدر ما كانت السخرية والغرائبية في هذه اليوميات استراتيجيتان خطابيتان لتأكيد تفوق الذات، وتكريس دونية المغربي. وهو ما يفرضه السياق الاستعماري. جاءت بّورتريهات زعماء المقاومة وكبار «القياد»، والوصف الباذخ لجمالية الفضاء لتذيب جليد خطاب حاقد يأتي على الأخضر واليابس في العلاقات الإنسانية.

منشورات المتوسط

مكتبة

تعتبر هذه اليوميات نموذجا للكتابات الكولونيالية التي تقدم للقارئ ملامح الاحتلال الفرنسي للجنوب المغربي، وهي، إلى جانب ما قدمته من معلومات عن المكان المغربي والحياة اليومية للمغاربة والمستعمرين معاً ولطبيعة العلاقة الصراعية بين الطرفين، وطبيعة مكونات المجتمع المغربي في مسارح الأحداث العسكرية تمكن، بما جاء فيها من معطيات، من إعادة قراءة هذا المدونات الكولونيالية: الإثنوغرافية والأنثربولوجية والسوسيولوجية والعسكرية والديبلوماسية.

يوميات كتبت في ركاب العسكر الفرنسي ممن عبروا مسالك الشاوية ودكالة والرحامنة والحوز وسوس وفاس وأعماق الأطلس، واستوقفتهم الزوايا والحصون والقصور والقصبات والأضرحة، كما استوقفتهم غرائب الطقوس والممارسات والشعائر، وعجائب الطوائف الدينية: (عيساوة، درقاوة، احمادشة، هدّاوة، كناوة...). في مرحلة حاسمة من تاريخ المغرب الحديث ١٩١٢.١٩١٣، عَمَد فيها النقيب كورني إلى تتبع التفاصيل الصغرى والدقيقة لغزو الجنوب المغربي تحت قيادة الجنرال الشهير شارل مانجان، الذي قدّم لهذه اليوميات. المهداة له ، دون أن يخفي إعجابه الكبير بصاحبها.

وقد نوهت لجنة جائزة ابن بطوطة بهذه الترجمة، واعتمدتها للنشر في إطار منشورات «المركز العربي للأدب الجغرافي».

جائزة ابن بطوطة

ISBN 978-88-99687-69-4

المتوسط